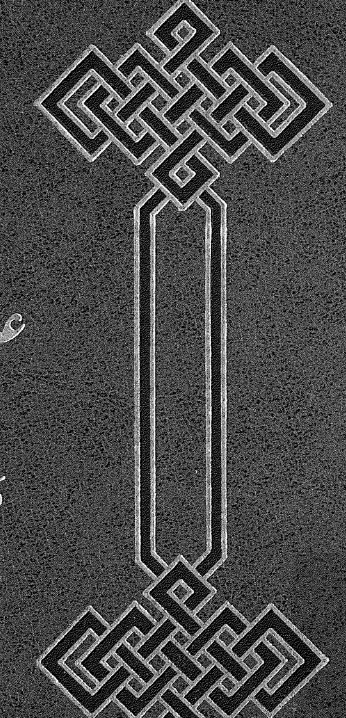
محمد رضا

الإمام
علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه
رابع الخلفاء الراشدين



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الإمام

علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه

رابع الخلفاء الراشدين

تأليف

محمد رضا

مؤلف محمد رسول الله ، أبي بكر ، عمر ، عثمان

يطلب من



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله ، وأصلى وأسلم على رسول الله .

و بعد : فهذه سيرة أمير المؤمنين ، علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، رابع الخلفاء الراشدين ، ابن عم رسول الله ورَبيبه وصهره ، وأبى السبطين الحسن والحسين ، أول الناس إسلاماً ، وأقدمهم إيماناً ، عَلَم من أعلام الدين ، وأبرز الشجعان المجاهدين ، وإمام المتقين ، وقدوة الزاهدين ، وأشهر الخطباء المفوهين ، والعلماء العاملين ، من جاهد فى سبيل نصرة الإسلام منذ نعومة أظفاره إلى يوم وفاته ، فما من غزوة إلا شهدها ورفع لواءها وأبلى فيها أصدق البلاء ، وقاتل المشركين ودحر الأعداء ، فسيرته نبراس الهداية ، والإخلاص إلى النهاية .

وطالما اشتاق المسلمون إلى سيرة وافية ، تجمع بين حياته وجهوده ، وفضائله ، وخلافته ، وخُطَبه ، وكلماته ، وحِكَمه ، من غير تطويل ممل ، أو اختصار مخل .

❊

وإنى أحمد الله الذى هدانى ووفقنى إلى إبراز هذا العمل المبرور ، وأسأله عز وجل أن ينفع به العلم والتاريخ والمسلمين أجمعين ، اللهم آمين .

محمد رضا

على بن أبى طالب رضى الله عنه

رابع الخلفاء الراشدين

تاريخ حياته

(٦٠٠ — ٦٦١ م)

علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد سنة ٦٠٠ بعد الميلاد بمكة . وأم علىّ فاطمة بنت أسد بن هاشم . وكنيته « أبو الحسن » . صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته فاطمة وأبو السِّبطين[1] . وهو أول هاشمىّ ولد بين هاشميين ، والخليفة الرابع ، وأول خليفة من بنى هاشم ، وأحد العلماء والشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ، والخطباء المفوهين ، وكان حين أسلم لم يبلغ الحُلُم . قال ابن إسحاق : إنه كان يومئذ ابن عشر سنين . وكان أصغر من جعفر وعَقِيل وطالب.

كفله النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه لأن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وضمه إليه ، وأخذ العباس جعفراً وضمه إليه تخفيفاً عن أبى طالب . ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

هاجر علىّ إلى المدينة، وشهد بدراً ، وأُحداً ، والخندق ، وبيعة الرضوان ، وجميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبوك ، فإن رسول الله

(١) السبط : ولد الولد

صلى الله عليـه وسلم خلفَه على أهله ، وله فى الجميع بلاء عظيم وأثر حسن . وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء فى مواطن كثيرة بيده . وآخاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، فإن رسول الله آخى بين المهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة ، وقال لعلىّ فى كل واحدة منهما : (أنت أخى فى الدنيا والآخرة) ، وهو من العشرة المبشَّرين بالجنة ، ومن كُتَّاب الوحى ، وروى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة وثمانون وخمسمائة حديثاً .

زوجاته :

زوجاته (١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) خولة بنت جعفر بن قيس بن مَسْلَمَة (٣) ليلى بنت مسعود بن خالد (٤) أم البنين بنت حزام بن خالد (٥) أم ولد (٦) أسماء بنت عميس الخثعمية (٧) الصهباء وهى أم حبيب بنت ربيعة (٨) أمامة بنت أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى وأمها زينب بنت رسول الله ، وأمها خديجة بنت خويلد (٩) أم سعيد بنت عروة بن مسعود (١٠) مُحيَّاة بنت امرئ القيس بن عدى .

زوجته فاطمة بنت رسول الله :

فاطمة هى سيدة نساء العالمين ، ما عدا مريم بنت عمران ، صلى الله عليه وسلم . أمها خديجة بنت خويلد ، وكانت هى وأم كلثوم أصغر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت فاطمة أحب الناس إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وزوّجها من عليّ بعد غزوة أُحد ، وكان سنها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر .

دخل عليّ رضى الله عنه على رسول الله يريد أن يخطب فاطمة ، فقعد بين يديه لكنه لم يستطع الكلام لهيبته صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماجاء بك ، ألك حاجة ؟ فسكت . فقال عليه الصلاة والسلام : لعلك جئت تخطب فاطمة ! فقال : نعم . قال : وهل عندك من شىء تستحلها به ؟ فقال : لا والله يارسول الله . فقال : مافعلت بالدرع التى سلحتكها ؟ فقال : عندى والذى نفس عليّ بيده ، إنها لحطمية ما ثمنها أربعمائة درهم . قال : قد زوجتك فابعث بها فان كانت لَصداق فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ ليلة البناء بفاطمة : لا تحدثن شيئاً حتى تلقانى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ منه ثم أفرغه على عليّ وقال : اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما .

قال ابن اسحق : حدثنى من لاأتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَغار لبناته غَيرة شديدة لاينكح بناته على ضَرة . وعن المسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ــ وهو على المنبر ــ : إن بنى هشام ابن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبى طالب ! فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن إلا أن يريد عليّ بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنها بَضعة منى ، يريبنى مارابها ويؤذينى ما آذاها .

وتوفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر على

أصح الأقوال ، وهى أول من غطى نعشها فى الإسلام ، وصلى عليها علىّ ابن أبى طالب ، وأوصت أن تدفن ليلا ، ففعل ذلك بها ، ونزل فى قبرها علىّ والعباس والفضل بن العباس ، وكان عمرها ٢٩ سنة .

وروى أن عليًّا رضى الله عنه قال عند دفن فاطمة ، كالمناجى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قبره :

« السلام عليك يارسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك . قَلَّ يارسول الله عن صفيتك صبرى، ورق عنها تجلدى، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضعَ تَعَزٍّ ، فلقد وسّدتُك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك، فإنا لله وإنا إليه راجعون فلقد استُرجعتِ الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهّد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فأحفها السؤال واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ولم يخلُق منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سَئِم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة . وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

بنوه وبناته :

الحسن . الحسين . زينب الكبرى . أم كلثوم الكبرى (أمهم فاطمة بنت رسول الله)

محمد الأكبر « ابن الحنفية » (أمه خولة)

عبيد الله وأبو بكر (أمهما ليلى)

العباس الأكبر وعثمان وجعفر الأكبر وعبد الله (أمهم أم البنين)
محمد الأصغر (أمه أم ولد)
يحي وعون (أمهما أسماء بنت عميس)
عمر الأكبر ورقية (أمهما الصهباء)
محمد الأوسط (أمه أمامة)
أم الحسن ورَملة الكبرى (أمهما أم سعيد)
أم هانئ. ميمونة . زينب الصغرى . رملة الصغرى . أم كلثوم الصغرى. فاطمة . أمامة . خديجة . أم الكرام . أم سلمة . أم جعفر. جمانة . نفيسة . وابنة لم تسم (أمها مُحَيَّاة)

قال ابن سعد فى طبقاته : فجميع ولد علىّ بن أبى طالب لصلبه أربعة عشر ذكراً ، وتسع عشرة امرأة .

اسلامه رضى الله عنه :

سبب إسلامه أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خديجة رضى الله عنها وهما يصليان سواء ، فقال : ما هـذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسوله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته والكفر باللات والعزى . فقال له علىّ : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلستُ بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب . وكُره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشى سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : ياعلىّ ! إن لم تُسلم فاكتم هذا . فمكث علىٌّ ليلته ، ثم إن الله تعالى

هداه إلى الإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم على يديه . وكان علىّ رضى الله عنه يخفى إسلامه خوفاً من أبيه ، إلى أن اطلع عليه وأمره بالثبات عليه فأظهره حينئذ . أما أبو طالب فلم يرض أن يفارق دين آبائه ، وتقول الشيعة : إنه أسلم فى آخر حياته .

عن أنس بن مالك قال : بُعث النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، وأسلم علىّ يوم الثلاثاء ، وهو ابن عشر سنين ، وقيل تسع ، ولم يعبد الأوثان قط لصغره .

هجرته :

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أن هاجر أصحابه إلى المدينة ، ينتظر مجىء جبريل عليه السلام وأمْرَه له أن يخرج من مكة بإذن الله له فى الهجرة إلى المدينة ، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت بالنبي وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرادوا ، أتاه جبريل عليه السلام وأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى يبيت فيه ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجّى ببرد له أخضر ففعل ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه . وتتابع الناس فى الهجرة ، وكان آخر من قدم المدينة من الناس ولم يُفتن فى دينه علىّ بن أبى طالب . ولما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضطجع على فراشه قال له : إن قريشاً لم يفقدونى مارأوك ، فاضطجع على فراشه . وكانت قريش تنظر إلى فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرون عليه عليًّا فيظنونه النبيّ

صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أصبحوا رأوا عليه علياً . فقالوا : لو خرج محمد خرج بعلىّ معه ، فحبسهم الله بذلك عن طلب النبي حين رأوا علياً .

قال علىّ رضى الله عنه : « لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فى الهجرة أمرنى أن أقيم بعده حتى أؤدى ودائع كانت عنده للناس ، ولذا كان يسمى الأمين ، فأقمت ثلاثاً فكنت أظهر ما تغيبت يوماً واحداً . ثم خرجت فجعلت أتبع طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدمت بنى عمرو بن عوف ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مقيم ، فنزلت على كلثوم ابن الهدم ، وهنالك منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم »

خرج علىّ رضى الله عنه قاصداً المدينة ، فكان يمشى الليل ويُكمن النهار حتى قدم المدينة ، فلما بلغ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قدومُه قال:ادعوا لى علياً . قيل يارسول الله لا يقدر أن يمشى ، فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه اعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وكانتا تقطران دماً ، فتفل النبى صلى الله عليه وسلم فى يديه ومسح بهما رجليه ودعا له بالعافية ، فلم يشتكهما حتى استشهد رضى الله تعالى عنه .

صفته :

كان علىّ رضى الله عنه رجلاً فوق الربعة ، أميل إلى القصر ، آدم ، عريض اللحية أبيضها ، لا يخضبها ، وقد خضب بالحناء مرة ثم تركه ، أصلع على رأسه زغيبات ، ضخم البطن ، ضخم مُشاشة المنكب ، ضخم عضلة الذراع دقيق مُستدقها ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، عظيم العينين ، وروّى

وعلى عينيه أثر الكحل ، شثن الكفين ، إذا مشى تكفأ ، شديد الساعد واليد ، إذا مشى إلى الحروب هرول ، ثبت الجنان ، ماصارع أحداً إلا صرعه ، شجاعاً ، منصوراً على من لاقاه ، وكان ضحوك السن .

لباسه :

عن خالد بن أمية قال : رأيت علياً وقد لحق إزاره بركبتيه .

وعن عبد الله بن أبي الهذيل قال : رأيت علياً عليه قميص رازيّ ، إذا مدّ كمه بلغ الظفر ، فإذا أرخاه بلغ نصف ساعده .

وعن عطاء أبي محمد قال : رأيت على عليّ قميصاً من هذه الكرابيس غيرَ غسيل .

وكان يلبس إزاراً مرقوعاً ، فقيل له ، فقال : يُخَشِّعُ القلب ويقتدى به المؤمن

ورؤى رضى الله عنه وهو يخرج من القصر وعليه قِطريتان : إزارٌ إلى نصف الساق ، ورداء مُشَمَّرٌ قريبٌ منه ومعه دِرَّة له ، يمشى بها فى الأسواق ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ويقول : أوفوا الكيل والميزان ، ويقول : لا تنفخوا اللحم .

وابتاع رضى الله عنه مرة قميصاً سنبلانياً بأربعة دراهم ، فجاء الخياط فمدّ كم القميص ، فأمره أن يقطعه مما خلف أصابعه .

وعن هرمز قال : رأيت علياً متعصباً بعصابة سوداء ما أدرى أىُّ طرفيها أطول ، الذى قدّامه أو الذى خلفه ، يعنى « عمامة » . وعنه قال رأيت علياً عليه عمامة سوداء قد أرخاها من بين يديه ومن خلفه .

وعن عليّ رضى الله قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان إزارك واسعاً فتوشح به ، وإذا كان ضيقاً فاتزر به .

وكانت قلنسوته لطيفة ، وتختّم فى يساره ، وكان نقش خاتمه فى صلح الشام « محمد رسول الله » ونقش على خاتمه أيضاً « الله الملك » .

قال معاوية لضرار الصدائى : صف لى علياً . فقال : أعفنى يا أمير المؤمنين . قال : لتَصفنّه . قال إذ لا بد من وصفه : كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه . يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس إلى الليل ووحشته . وكان غزير العَبرة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ماقصر ، ومن الطعام ماخشن . كان فينا كاحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له . يعظّم أهل الدين ، ويقرّب المساكين ، ولا يطمع القوىّ فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ، قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين . ويقول : يادنيا غرّى غيرى إلىّ تعرضت ، أم إلىّ تشوفت ؟ هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمركِ قصير وخطرك قليل . آه ! آه ! من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق . فبكى معاوية ، وقال : رحم الله أبا حسن ، كان والله كذلك . فكيف حزنك عليه ياضرار ؟ قال : حزن مَن ذُبح واحدُها فى حجرها .

وعن الحسن بن أبى الحسن ، وقد سئل عن علىّ رضى الله عنه ، قال :

كان عليٌّ والله سهماً صائباً من مرامى الله على عدوّه ، وربانِيَّ هـذه الأمة ، وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لم يكن بالنومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله عز وجل ، ولا بالسروقة لمال الله عز وجل . أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة . ذلك عليٌّ ابن أبى طالب .

زهده وتقشفه وورعه :

عن عمّار بن ياسر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها ، هى زينة الأبرار عند الله ، الزهد فى الدنيا . فجعلك لا ترزأ [1] من الدنيا ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووصب لك [2] المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً .

وعن علىّ عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعلىّ كيف أنت إذا زهد الناس فى الآخرة ورغبوا فى الدنيا ، وأكلوا التراث أكلاً لَمًّا وأحبوا المال حبًّا جمًّا ، واتخذوا دين الله دَغَلاً ومال الله دُوَلاً ؟ قلت : أتركهم حتى ألحق بك إن شاء الله تعالى . قال : صدقت ، اللهم افعل ذلك به .

وجاءه ابن التياح فقال يا أمير المؤمنين : امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء . فقال : الله أكبر ، فقام متوكئاً على ابن التياح حتى قام على بيت المال وهو يقول : ياصفراء يا بيضاء ، غرى غيرى هاء وهاء ، حتى ما بقى فيه دينار ولا درهم . ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين .

---

(١) ترزأ تصيب . والرزء : المصيبة .

(٢) وصب لك : أى أدام لك .

ودخل عليّ مرة بيتَ المال فرأى فيه شيئاً . فقال : لا أرى هذا هنا وبالناس حاجة إليه . فأمر به فقسم ، وأمر بالبيت فكنس ونضح فصلى فيه أو قَالَ فيه ، يعنى نام .

واشترى رضى الله عنه قميصاً بثلاثة دراهم ، وهو خليفة وقطع كمه من موضع الرسغين ، وقال : الحمد لله الذى هذا من رياشه

وعن عليّ بن ربيعة قال : كان لعلى امرأتان فكان إذا كان يوم هذه اشترى لحماً بنصف درهم ، وإذا كان يوم هذه اشترى لحماً بنصف درهم .

ودخل عليّ رضى الله عنه على فاطمة ، والحسن والحسين يبكيان فقال ما يبكيهما ؟ قالت : الجوع ، فخرج عليّ فوجد ديناراً فى السوق فجاء إلى فاطمة فأخبرها ، فقالت : اذهب إلى فلان اليهودى فخذ لنا به دقيقاً ، فجاء إلى اليهودى فاشترى به دقيقاً ، فقال اليهودى : أنت ختن هذا الذى يزعم أنه رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فخذ دينارك ولك الدقيق ، فخرج عليّ حتى جاء به فاطمة فأخبرها فقالت اذهب إلى فلان الجزار فخذ لنا بدرهم لحما . فذهب فرهن الدينار بدرهم على لحم . فجاء به فعجنت و نصبت وخبزت وأرسلت إلى أبيها فجاءهم ، فقالت: يارسول الله أذكر لك ، فإن رأيته حلالاً أكلنا وأكلت ، من شأنه كذا وكذا فقال : كلوا بسم الله ، فأكلوا ، فبينما هم مكانهم إذا غلام ، ينشد الله والإسلام الدينار ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعى له ، فسأله فقال سقط منى فى السوق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا عليّ اذهب إلى الجزار فقل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك أرسل إليّ بالدينار ودرهمك عليّ فأرسل به فدفع إليه .

وصعِد رضى الله عنه المنبر يوماً ، وقال : من يشترى منى سيفى هـذا ؟ فلو كان عندى ثمن إزار مابعته . فقام إليه رجل وقال : أسلفك ثمن إزار ؟

تواضعه رضى الله عنه :

اشترى علىّ رضى الله عنه تمراً بدرهم فحمله فى ملحفته فقيل له ياأمير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ قال : أبو العيال أحق بحمله .

وعوتب فى لباسه ، فقال : مالكم وللباسى ! هذا هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى به المسلم .

صدقته رضى الله عنه :

أذن بلال بصلاة الظهر فقام الناس يصلون فمن بين راكع وساجد وسائل يسأل . فأعطاه علىّ خاتمه وهو راكع فأخبر السائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً . قال : أجر علىّ نفسه يسقى نخلا بشىء من شعير حتى أصبح ، فلما أصبح قبض الشعير فطحن منه ، فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه يقال له الحريرة ، دقيق بلا دهن ، فلما تمّ إنضاجه أتى مسكين فسأل فأطعموه إياه . ثم صنعوا الثلث الثانى ، فلما تمّ إنضاجه ، أتى يتيم مسكين ، فسأل فأطعموه إياه . ثم صنعوا الثلث الثالث ، فلما تمّ إنضاجه أتى أسير من المشركين فأطعموه إياه وطووا يومهم فنزلت الآية ، وهذا قول الحسن وقتادة

إن الأسير كان من المشركين . قال أهل العلم ، وهذا يدل على أن الثواب مرجو فيهم وإن كانوا من غير أهل الملة، وهذا إذا أعطوا من غير الزكاة والكفارة.

وأقطع عمر علياً ينبع ثم اشترى أرضاً إلى جنب قطعته فحفر فيها عيناً فبينما هم يعماون فيها إذا انفجر عليهم مثل عنق الجزور من الماء فأُتى عليّ فبُشر بذلك ، فقال : بشروا الوارث ، ثم تصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل ، وفى سبيل الله ، القريب والبعيد ليوم تبيضّ فيه وجوه وتسودّ وجوه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أُتى بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل أو يسأل عن دَينه، فإن قيل عليه دَين كفّ عن الصلاة عليه ، وإن قيل ليس عليه دَين صلى عليه ، فأُتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل صلى الله عليه وسلم أصحابه . هل على صاحبكم دين ؟ قالوا ديناران ، فعدل صلى الله عليه وسلم وقال: صلوا على صاحبكم. فقال عليٌّ ، هما عليّ ، برئ منهما . فتقدم صلى الله عليه وسلم فصلى عليه ثم قال لعليّ: جزاك الله خيراً ، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك ، إنه ليس من ميت إلا وهو مرتهن بدَينه ، ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة . فقال بعضهم : هذا لعليٍ خاصة أو للمسلمين عامة ؟ فقال : بل للمسلمين عامة .

كراماته :

عن الأصبغ قال : أتينا مع عليّ فمررنا على قبر الحسين فقال عليٌّ : ههنا مناخ

ركائبهم ، وههنا موضع رحالهم ، وههنا مهراق دمائهم ، فتية من آل محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : عرض لعليّ رجلان فى خصومة . فجلس فى أصل جدار . فقال رجل ياأمير المؤمنين : الجُدُر تقع . فقال عليٌّ امض كفى بالله حارساً . فقضى بين الرجلين وقام فسقط الجدار .

وعن عليّ بن زاذان ، أن عليًّا حدث حديثاً فكذبه رجل . فقال عليٌّ أدعو عليك إن كنتُ صادقاً . قال نعم . فدعا عليه فلم ينصرف حتى ذهب بصره

وعن أبى ذرّ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعو عليًّا ، فأتيت بيته فناديته فلم يجبنى ، فعدت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لى : عد إليه أدعه فانه فى البيت . قال فعدت أناديه فسمعت صوت رحى تطحن ، فشارفت فإذا الرحى تطحن وليس معها أحد ، فناديته فخرج إلىّ منشرحا . فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك . فجاء ، ثم لم أزل أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينظر إلىّ . ثم قال : يا أبا ذر ما شأنك ؟ فقلت يارسول الله ، عجيب من العجب ، رأيت رحى تطحن فى بيت علىّ ، وليس معها أحد يرحى . فقال : يا أبا ذرّ إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ، وقد وكلوا بمثونة آل محمد صلى الله عليه وسلم .

قضاؤه رضى الله عنه :

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أَقْضَى أمتى علىّ . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أقضانا عليٌّ بن أبى طالب .

وعن ابن مسعود قال : كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علىّ بن أبى طالب .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : تختصم الناسَ بسبع ، ولا يحاجك أحد من قريش ، أنت أولهم إيمانًا بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقسمهم بالسوية ، وأعدلهم فى الرعية ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزية .

عن علىّ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيًا وأنا حديث السنّ . فقلت : يارسول الله تبعثنى إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لى بالقضاء . قال : إن الله سيَهدى لسانك ، ويثبت قلبك . قال فما شككت فى قضاء بين اثنين . وفى رواية : إن الله يثبت لسانك ، ويَهدى قلبك . قال ثم وضع يده على فمه .

جلس اثنان يتغديان ، ومع أحدهما خمسة أرغفة ، والآخر ثلاثة أرغفة ، وجلس إليهما ثالث واستأذنهما فى أن يصيب من طعامهما فأذنا له ، فأكلوا على السواء ، ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم وقال : هذا عوض ما أكلت من طعامكما . فتنازعا فى قسمتها فقال صاحب الخمسة لى خمسة ولك ثلاثة . وقال صاحب الثلاثة بل نقسمها على السواء . فترافعا إلى علىّ رضى الله عنه ، فقال لصاحب الثلاثة : اقبل من صاحبك ما عرض عليك ، فأبى وقال : ما أريد إلاّ مرّ الحق . فقال علىّ : لك فى مرّ الحق درهم واحد وله سبعة . قال وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلثًا ، لصاحب الخمسة خمسة عشر ولك تسعة ، وقد استويتم فى الأكل فأكلت ثمانيــة وبقى لك

واحد ، وأكل صاحبك ثمانية وبقى له سبعة ، وأكل الثالث ثمانية ، سبعة لصاحبك وواحد لك . فقال : رضيت الآن .

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فوجد أربعة وقعوا فى حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد ، سقط أولاً رجل فتعلق بآخر ، وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة فجرحهم الأسد وماتوا من جراحته ، فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون . فقال علىّ : أنا أقضى بينكم فإن رضيتم فهو القضاء ، وإلاّ حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى بينكم . اجمعوا من القبائل التى حفروا البئر ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة ، فللأول ربع الدية لأنه أهلك من فوقه ، وللذى يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه ، وللثالث النصف لأنه أهلك من فوقه ، وللرابع الدية كاملة ، فأبوا أن يرضوا . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه عند مقام إبراهيم فقصوا عليه القصة . فقال: أنا أقضى بينكم واحتبى ببردة . فقال رجل من القوم : إن علياً قضى بيننا ، فلما قصوا عليه القصة أجازه .

وجاءه رضى الله عنه رجل بامرأة فقال : يا أمير المؤمنين دلست على هذه وهى مجنونة فصعّد علىّ بصره وصوّبه وكانت امرأة جميلة فقال : مايقول هذا ؟ قالت : والله يا أمير المؤمنين مابى جنون ، ولكنى إذا كان ذلك الوقت غلبتنى غشية . فقال : خذها ويحك وأحسن إليها فما أنت لها بأهل .

وأُتى علىّ فى اليمن بثلاثة نفر ، وقعوا على جارية فى طهر واحد ، فولدت ولداً فادّعوه . فقال علىّ لأحدهم تطيب به نفساً لهذا ؟ قال لا . قال أراكم

شركاء متشاكسين، إنى مقرع بينكم فما أجابته القرعة أغرمته ثلثى القيمة وألزمته الولد. فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم. فقال ما أجد فيها إلا ما قال علىٌّ.

وذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم قضاء قضى به علىٌّ، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهلَ البيت.

الأحاديث الواردة فى فضله رضى الله عنه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبىَّ بعدى.

(٢) اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه.

(٣) علىٌّ منى وأنا من علىّ.

(٤) أنت أخى فى الدنيا والآخرة.

(٥) من آذى عليًا فقد آذانى.

(٦) من أحب عليًّا فقد أحبنى، ومن أحبنى فقد أحب الله، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضنى، ومن أبغضنى فقد أبغض الله.

(٧) علىٌّ مع القرآن، والقرآن مع علىّ، لا يفترقان حتى يردا الحوض.

(٨) حقُّ علىٍّ على المسلمين حق الوالد على الولد.

شهوده الغزوات:

شهد علىٌّ رضى الله عنه الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان له فيها شأن عظيم، وأظهر شجاعة عجيبة، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء فى مواطن كثيرة. فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم

كرز بن جابر الفهرى ـ غزوة بدر الأولى ـ أعطاه لواءه الأبيض .

وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة العُشَيرة « بأبى تراب » .
عن عمار بن ياسر . قال كنت أنا وعلىٌّ رفيقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة العشيرة ، فنزلنا منزلاً فرأينا رجالا من بنى مُدْلج يعملون فى نخل . فقلت لو انطلقنا فنظرنا إليهم كيف يعملون ؟ فانطلقنا ، فنظرنا إليهم ساعة ، ثم غشينا النعاس فعمَدنا إلى صور من النخل فنمنا تحته فى دقعاء من التراب ، فما أيقظَنا إلاَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، أتانا وقد تترَّبنا فى ذلك التراب ، فحرَّك عليًّا برجله . فقال : « قم يا أبا تراب ، ألا أخبرك بأشقى الناس ! أحمر ثمود عاقر الناقة ، والذى يضربك على هذا ، يعنى قرنه فيخضب هذه منها وأخذ بلحيته » .

وهناك رواية أخرى فى تسمية علىّ بأبى تراب غيرَ رواية عمار . عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه قال : قيل لسهل بن سعد إن بعض أمراء المدينة يريد أن يبعث إليك تَسُبُّ عليًّا عند المنبر . قال أقول ماذا ؟ قال : تقول أبا تُراب . قال : والله ما سماه بذلك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وكيف ذلك يا أبا العباس ؟ قال : دخل علىٌّ على فاطمة ثم خرج من عندها فاضطجع فى المسجد ، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة ، فقال لها : أين ابنُ عمك ؟ فقالت هو ذاك مضطجع فى المسجد ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجده قد سقط رداؤه عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول : اجلس أبا تراب ، فوالله

ما سماه به إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووالله ما كان له اسم أحبّ إليه منه .

وفى غزوة بدر الكبرى ، كان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان ، إحداهما مع علىّ يقال لها (العقاب) والأخرى مع بعض الأنصار . وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبارز فى هذه الغزوة الوليدَ بن عتبة ، فبارزه وقتله وكان من أشد أعداء رسول الله .

وقال علىٌّ رضى الله عنه يذكر شجاعة رسول الله : لمّا أن كان يوم بدر وحضر الناس التقينا برسول الله ، فكان من أشد الناس بأساً ، وما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه .

وفى غزوة أحد قام طلحة بن عثمان فقال : يامعشر أصحاب محمد ! إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة ، أو يعجلنى بسيفه إلى النار ؟؟ فقام إليه علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : والذى نفسى بيده ، لا أفارقك حتى أعجلك بسيفى إلى النار ، أو تعجلنى بسيفك إلى الجنة ، فضربه علىٌّ فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته . فقال : أنشدك الله والرحم يا ابن عم ، فتركه فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لعلىٍّ أصحابُه : مامنعك أن تجهز عليه ؟ قال إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته فاستحييتُ منه .

وقتل علىٌّ ثلاثةً من أصحاب الألوية فى هذه الغزوة ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من مشركى قريش فقال لعلىّ : أحمل عليهم ، فحمل

عليهم ففرق جمعهم ، وقتل عمرو بن عبد الله الجُمَحِيّ ، ثم أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من مشركى قريش ، فقال لعلىٍّ احمل عليهم ، فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبة بن مالك أحد بنى عامر بن لؤى فقال جبريل يارسول الله إن هذه للمواساة . فقال رسول الله صلى عليه وسلم : إنه منى وأنا منه . فقال جبريل وأنا منكما . فسمعوا صوتاً

لاسيف إلا ذو الفقَار   ولا فتى إلا على

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله بعد غزوة أحد ناول سيفه ابنته فاطمة . فقال اغسلى عن هذا دمَه يابنيةُ ، وناولها علىٌّ رضى الله عنه سيفه وقال : وهذا فاغسلى عنه ، فوالله لقد صدقنى اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهلُ بن حُنَيف وأبو دُجانة سماك بن خَرَشة .

قال الطبرى : وزعموا أنّ علىّ بن أبى طالب حين أعطى فاطمة عليهما السلام سيفه قال :

أَفاطِم هاكِ السيفَ غيرَ ذميمِ   فلست برعديد ولا بُمليمِ
لعمرى لقدقاتلت فى حُبّ أحمدٍ   وطاعة رب بالعباد رحيم
وسيفى بكفى كالشهاب أهُزُّهُ   أجُذّ به من عاتقٍ وصميم
فمازلتُ حتى فضَّ ربى جموعهم   وحتى شفينا نفسَ كل حليم

من هذا يتضح أن علياً قد دافع هو وزملاؤه دفاعاً شديداً فى هذه الغزوة

وقتل رءوساً كبيرة عرف بعدائها للإسلام، وقد كان وقتئذ فى عنفوان شبابه ممتلئاً قوة ونشاطاً وإيماناً .

وفى غزوة الخندق لما تهيأ فرسان قريش للقتال وخرجوا على خيلهم وأقبلوا نحو الخندق ورأوا مالم يكونوا قد رأوه من قبل ، قالوا : إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقاً فضربوا خيولَهم فاقتحمت منه . فجالت بهم فى السَّبْخة بين الخندق وسَلْع .

عند ذلك خرج علىٌّ رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثُّغْرَةَ التى أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم . وقد كان عمرو بن عبد وُد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أُحداً . فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِماً ليرى مكانه ، وكان من شجعان العرب المشهورين ، وكان وقتئذ كبير السن، فلما وقف هو وخيله ، قال له علىٌّ: ياعمرو! إنك كنت تعاهد الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى خلّتين إلا أخذت منه إحداهما قال أجَلْ . قال له علىّ بن أبى طالب : فإنى أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله وإلى الإسلام ، قال: لاحاجة لى بذلك . قال فإنى أدعوك إلى النزال قال ولِمَ يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. قال علىّ: ولكنى والله أحبُّ أن أقتلك، فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه، ثم أقبل على علىّ فتنازلا وتجاولا فقتله علىٌّ رضى الله عنه وخرجت خيله منهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

وفى غزوة بنى المصطلق قتل علىّ منهم رجلين : مالكاً ، وابنه . وكان رضى الله عنه هو الذى دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد إليه كتابة صلح الحديبية وأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فدك إلى حى من بنى سعد بن بكر .

وفى غزوة خيبر أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء عمر بن الخطاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجبنه أصحابه ويجبنهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فلما كان من الغد تطاول لها أبو بكر وعمر فدعا عليًّا ، وهو أرمد فتفل فى عينيه وأعطاه اللواء ونهض معه من الناس من نهض ، فلقى أهل خيبر ، فإذا مرحب يرتجز ويقول :

قد علمتْ خيبرُ أنى مَرْحَبُ   شاكى السلاح بَطَلٌ مُجَرَّبُ
أطعن أحياناً وحيناً أضرب   إذا الليوث أقبلت تَلَهَّبُ

فاختلف هو وعلىّ ضربتين فضربه علىّ على هامته ، حتى عض السيف منها بأضراسه ! ! وسمع أهل العسكر صوت ضربته فما تتام آخر الناس مع علىّ رضى الله عنه حتى فتح الله له ولهم .

وعن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خرجنا مع علىّ بن أبى طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه

من يده فتناول علىٌّ رضى الله عنه باباً كان عند الحصن فترّس به عن نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ . فلقد رأيتنى فى نفر ، سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن تقلب ذلك الباب فما تقلبه

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً والزبير بن العوام فى أثر المرأة التى أعطاها حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش وذلك لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى مكة . فخرجا وأدركاها بالحليفة فاستنزلاها فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً . فقال لها علىّ بن أبى طالب : إنى أحلف ما كذب رسول الله ، ولا كذبنا ولتُخْرِجِنَّ إلىَّ هذا الكتاب أو لنكشفنك فلما رأت الجدّ منه،قالت: أعرض عنى، فأعرض عنها. فحلّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه . فدفعته إليه فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعلىّ رضى الله عنه هو الذى قتل الحويرث بن نقيد الذى أهدَر دمَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان ينشد الهجاء فيه ويكثر أذاه وهو بمكة وكان قد شارك هبار بن الأسود فى نخس جمل زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجرت من مكة .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة نهى عن سفك الدماء وكان قد بعث خالد بن الوليد وأمره بأن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً فوطىء بنى جذيمة فأصاب منهم ، وقيل إنهم لما وضعوا السلاح أمَرَ بهم خالد فكُتِّفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم ، فلما انتهى الخبر إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم إنى أبرأ بك مما صنع خالد بن الوليد . نذكر هذه الحادثة لأن علياً رضى الله عنه كان له شأن فيها فقد دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : ياعلىّ أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فَوَدَى لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى أنه ليَدِى مِيلَغَةَ الكلب (أى أنه دفع تعويضاً عن كل ما أصابهم) حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . فقال لهم علىّ رضى الله عنه حين فرغ منهم : هل بقى لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا: لا ، قال : فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فقال أصبت وأحسنت .

وكان علىٌّ رضى الله عنه ممن ثبت مع رسول الله فى غزوة حنين حين انهزم المسلمون كما ثبت فى غزوة أحد ، وفى غزوة تبوك خلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم . فأرجف المنافقون بعلىّ وقالوا : ما خلّفه إلا استثقالا له وتخففاً منه . فلما قال ذلك المنافقون أخذ علىٌّ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجُرْف ـ موضع على ثلاثة أميال من المدينة ـ فقال : يانبىَّ الله زعم المنافقون أنك لمّا خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى . فقال: كذبوا ولكنى إنما خلفتك لما ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك . أفلا ترضى ياعلىّ أن

تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبىّ بعدى فرجع علىّ إلى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره .

وفى السنه التاسعة من الهجرة فى شهر ربيع الآخر وجه رسول الله عليًّا رضى الله عنه فى سرية إلى الفُلُس- صنم طىء- ليهدمه فى مئة وخمسين رجلا من الأنصار على مئة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء ولواء أبيض فشنُّوا الغارة على مَحِلة آل حاتم مع الفجر فهدموا الفلس وخربوه وملئوا أيديهم من السَّبْىِ والنَّعَم والشاء والفضة .

وفى السنة التاسعة من الهجرة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه أن يحج بالناس فخرج من المدينة فى ثلاثمائة وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثره عليًّا فأدركه بالعَرْج (عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج) وأذن علىّ رضى الله عنه ببراءة وقال : لا يقربنَّ المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوفن بالبيت عُريان ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فله عهده إلى مدته ، وأن هذه أيام أكل وشرب ، وأن ا- لا يُدخل الجنة إلا من كان مسلماً .

وفى سنة عشر (الموافق ٦٣١ - ٦٣٢ م) وجّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب سرية إلى اليمن فى رمضان .

عن البراء بن عازب قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن سار معه فأقام عليه ستة أشهر لا يجيبونه إلى شىء فبعث النبى صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب

وأمره أن يقفل خالد ومن معه فإن أراد أحد ممن كان مع خالد بن الوليد أن يعقب معه تركه . قال البراء فكنت فيمن عقب معه ، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القومَ الخبرُ فصلّى بنا علىٌّ الفجر فلما فرغ صفّنا صفًّا واحداً ، ثم تقدم بين أيدينا : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد . وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قرأ كتابه خرّ ساجداً ، ثم جلس فقال : السلام على همدان ، ثم تتابع أهلُ اليمن على الإسلام ، ثم أقبل علىّ ليلقى رسول الله بمكة واستخلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه ، فعمَد ذلك الرجل فكسا رجالاً من القوم حُلَلاً من البزِّ الذى كان مع علىّ بن أبى طالب. فلما دنا جيشه خرج علىٌّ ليلقاهم فإذا هم عليهم الحلل، فقال ويحك ماهذا؟قال كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا فى الناس . فقال : ويلك ! انزع من قبل أن تنتهى إلى رسول الله ، فانتزع الحلل من الناس وردها فى البز، وأظهر الجيش شكاية لما صنع بهم ، فقام رسول الله خطيباً فيهم فقال :

« يا أيها الناس لا تشكوا عليًّا ، فوالله أنه لأَخشى فى ذات الله أو فى سبيل الله .

يعلم مما تقدم أن عليًّا رضى الله تعالى عنه رُبِّىَ فى بيت النبوة وكان أسبق الناس إلى الإسلام ونشأ وقد أُشربت روحه بتعاليمه، وشب على الصلاح ورأى الوحى ينزل على رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان من كتابه لكن لم يبلغنا متى وكيف وممن تعلم القراءة والكتابة ؟ وهو الذى كتب

بخطه ما أملاه عليه رسول الله من صلح الحديبية ، وقد خالط الرسولَ وعاشره وحفظ القرآن وسمع الحديث ورواه وتفقّه فى الدين .

وقد كان رضى الله عنه شجاعاً بطبعه ، فهو من سلالة أبطال شجعان . وقضى زهرة شبابه فى الدفاع عن رسول الله ونشر لواء الإِسلام ، وتثبيت دعائمه غير هيّاب ولا وجِلٍ . وكلما راجعنا غزوات رسول الله وجدنا اسم علىّ مقروناً بها ، فتارة نجده يحمل اللواء ، وتارة يفرّق جموع الأعداء ويَلُمُّ شمل المجاهدين ، ويبارز أبطال قريش ، أعداء الإِسلام فيصرعهم ويفتح الحصون المستعصية ، ويهدم الأصنام ، وهو صاحب الفضل فى دخول همدان فى الإِسلام ، وهى قبيلة كبيرة فى اليمن . حتى خرج رسول الله ساجداً شكراً لله على إسلامها . وإصابته رضى الله عنه يوم أُحد ست عشرة ضربة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه فزوجه ابنته فاطمة بنت السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكان يشفق عليه إذا مرض ، وقد تقدمت الإِشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شفاه مما ألمّ بقدَميه من الوجع والجروح بسبب كثرة المشى عليهما . وشفاه من الرمد .

عليّ والخلافة بعد رسول الله

ولما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليّ رضى الله عنه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس ، يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ؟ قال: أصبح بحمدالله بارئا ، فأخذ بيده عبّاس بن عبد المطلب ، فقال: ألا ترى انك بعد ثلاث عبدُ العصا ، وإنى أرى رسول الله سيتوفى فى وجعه هذا ، وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ؛ فاذهب إلى رسول الله فسَلْه فيمن يكون هذا الأمر ؟ (يعنى الخلافة) فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا . قال عليّ : والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يُعطيناها الناسُ أبداً . والله لا أسألها رسولَ الله أبداً .

وعن عائشة قالت : لما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم المرض الذى مات فيه أُذِّنَ بالصلاة . فقال: مروا أبا بكر أن يصلى بالناس . فقلت إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق ، فقال: مروا أبا بكر يصلى بالناس ، فقلت مثل ذلك ، فغضب وقال : إنكنّ صواحب يوسف .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يهادى بين رَجُلَيْن وقدماه تخطّان فى الأرض . فلما دنا من أبى بكر تأخر أبو بكر فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قم فى مقامك. فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب أبى بكر جالساً . فكان أبو بكر يصلى بصلاة النبي وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر .

وقد صلى أبو بكر بالناس ثلاثة أيام وقيل سبع عشرة صلاة . وفى تقديم أبى بكر للصلاة إشارة إلى أنه الخليفة من بعده .

ولما توفى رسول الله بايع الناسُ أبا بكر على ما ذكرنا فى كتابنا (أبو بكر) وتخلف علىّ رضى الله عنه فلم يبايعه ، وكان ممن تخلّف عن البيعة الزبير ، فإنه اخترط سيفه وقال: لاأغمده حتى يُبَايَعَ علىٌّ ، فبلغ ذلك عمر فقال: خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر . فانطلق إليهم عمر فجاء بهما تَعِباً ، وقال لتبايعان طائعين ، أو لتبايعان وأنتما كارهان فبايعا .

وعن عائشة رضى الله عنها أن فاطمة والعباس أتيا أبابكر يطلبان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فَدَك وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر : أماإنى سمعت رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لانُورَث ماتركنافهو صدقة، إنمايأ كل آل محمدمن هذا المال، وإنى والله لاأدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلاصنعته. فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك،حتى ماتت فدفنها علىٌّ ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وكان لعلى وُجْهٌ من الناس حياة فاطمة ، فلما توفيت فاطمة ، انصرفت وجوه الناس عن علىّ ، فمكثت فاطمة ستة أشهر بعد رسول الله ، ثم توفيت . قال معمر فقال رجل للزهرى : أفلم يبايعه علىٌّ ستة أشهر ؟ قال لا . ولا أحد من بنى هاشم حتى بايعه علىٌّ . فلما رأى علىّ انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر . فأرسل إلى أبى بكر أنائتنا ولايأتنا معك أحد . وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر .

فقال عمر لا تأتهم وحدك . قال أبو بكر والله لآتينهم وحدى وما عسى أن بصنعوا بى ؟ فانطلق أبو بكر فدخل على علىّ وقد جمع بنى هاشم عنده . فقام علىّ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد ، فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقًّا فاستبددتم به علينا » .

ثم ذكر قرابته من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وحقهم ، فلم يزل علىٌّ يقول ذلك حتى بكى أبو بكر ، فلما صمت تشهد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد فوالله لقرابة رسول الله أحبّ إلىّ أن أصِلَ من قرابتى وإنى والله ماألوت فى هذه الأموال التى كانت بينى وبينكم غير الخير ولكنى سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لانُورَث ماتركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، وإنى أعوذ بالله لا أذكر أمراً صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شاء الله » .

كان علىّ رضى الله عنه يرى نفسه أحق بالخلافة من أبى بكر ، فلما بايع الناس أبا بكر استاء ولزم بيته ولم يبايع وغضبت فاطمة زوجته بنت رسول الله لأن أبا بكر رفض أن يعطيها ميراث رسول الله ، فبيّن أبو بكر سبب رفضه ، وهو ماسمعه من حديث رسول الله . ولم يناقش أبو بكر عليًّا فى أمر الخلافة كما هو مذكور هنا لأن هذه مسألة قدفرغ منها ، وقدكان

غضب عمر رضى الله عنه شديداً على علىّ رضى الله عنه . وعن كل من تخلف عن بيعة أبى بكر من أعوان علىّ فقد روى أنه أتى منزل علىّ وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين ، فقال : والله لأُحْرِقن عليكم ، أو لتخرُجُنّ إلى البيعة فخرج عليه الزبير مُصلتاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه .

ثم قال علىّ بعد خطبة أبى بكر التى ألقاها فى منزل علىّ : موعدك العشيّة للبيعة .

بيعة على لأبى بكر الصديق :

فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذر عليّا ببعض مااعتذر . ثم قام علىّ معظّماً من حق أبى بكر وذكر فضيلته وسابقته ، ثم مضى إلى أبى بكر فبايعه ، فأقبل الناس إلى علىّ فقالوا : أصبت وأحسنت ، فكان الناس قريباً إلى علىّ حين قارب الحق والمعروف .

فلما رأى ذلك أبو سفيان قال لعلىّ : ما بال هذا الأمر فى أقل حىّ من قريش ؟ والله لئن شئتَ لاملأنّها عليه خيلاً ورجالاً . فقال علىّ : يا أباسفيان ! طال ما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئاً . إنّا وجدنا أبا بكر لها أهلاً .

وعن عوَانة : قال ، لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول والله إنى لأرى عجاجة لا يطفؤها إلا دمٌ ، يا آل عبد مناف فيما

أبو بكر من أموركم ! أين المستضعفان ! أين الأذلان : علىٌّ والعباس . وقال أبا حسن ! ابسط يدك حتى أبايعك فأبى علىٌّ عليه فجعل يتمثل بشعر المتلمّس:

ولن يقيم على خَسف يُراد به ... إلا الأذلَّان عَيْرُ الحىّ والوَتَدُ

هذا على الخسف معكوسٌ بِرُمَّته ... وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أحَــدُ

فوكزه علىٌّ ، وقال إنك والله ماأردت بهذا إلا الفتنة ، وإنك والله طال ما بغيت الإسلامَ شرًّا ، لاحاجة لنا فى نصيحتك .

على رضى الله عنه يشارك فى غسل رسول الله :

عن ابن عباس . أن علىّ بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل ابن العباس وقُثَم بن العباس وأسامة بن زيد وشُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين وَلُوا غسله. وأن أَوْس بن خَوْلِىّ أحد بنى عوف بن الخزرج قال لعلىّ بن أبى طالب : أنشدك الله ياعلىّ وحظنا من رسول الله ، وكان أوس من أصحاب بدر . وقال ادخل ، فدخل فحضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسنده علىٌّ بن أبى طالب إلى صدره ، وكان العباس والفضل وقثم هم الذين يقلبونه معه ، وكان أسامة بن زيد وشقران مولياه ، هما اللذان يصبان الماء ، وعلىٌّ يغسله قد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلكه من ورائه لا يفضى بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلىٌّ يقول (بأبى أنت وأمى ماأطيبك حيًّا وميتاً) ولم يُرَ من رسول الله شىء مما يُرى من الميت .

نزول على قبر رسول الله :

وكان الذى نزل قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وشُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال أوس بن خولى : أنشدك الله ياعلىّ وحظنا من رسول الله فقال : انزل . فنزل مع القوم .

على رضى الله عنه فى خلافة أبى بكر الصديق :

لما عوَّل أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه على محاربة أهل الردة على كثرتهم وخشى أن يداهموا أهل المدينة بعد خروج جيش أسامة جعل أبو بكر عليًّا والزبير ، وطلحة وعبد الله بن مسعود على أنقاب المدينة . وتوفى أبو بكر رضى الله عنه ولم يبلغنا أنه ولىّ عليًّا شيئًا .

فى خلافة عمر :

قيل كان علىّ رضى الله عنه يقضى بين الناس زمن عمر بن الخطاب ، وقيل لم يكن لعمر فى أيامه قاض . وكان عمر إذا خرج من المدينة استخلف عليها عليًّا رضى الله عنه .

ولما أراد عمر وضع الديوان قال له علىّ ، وعبد الرحمن بن عوف : أبدأ بنفسك . قال : لا ، بل أبدأ بعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الأقرب فالأقرب .

وعن ابن عمر قال : جمع الناس عمر بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق . فقال إنى كنت امرأ تاجراً يُغنى الله عيالى بتجارتى ، وقد شغلتمونى

بأمركم . فماذا ترون أنه يحل لى من هذا المال ؟ فأكثر القوم وعلىّ ساكت فقال : ما تقول ياعلىّ ؟ فقال : ما أصلح عيالك بالمعروف ، ليس لك من هذا المال غيره . فقال القوم : القول قول ابن أبى طالب .

وعن سالم بن عبد الله قال : لما ولى عمر قعد على رزق أبى بكر الذى كانوا فرضوا له فكان بذلك ؛ فاشتدت حاجته . فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلىّ وطلحة والزبير . فقال الزبير : لو قلنا لعمر فى زيادة نزيدها إياه فى رزقه . فقال علىّ : وددنا قبل ذلك فانطلقوا بنا . فقال عثمان : إنه عمر فهاموا فلنستبرىء ما عنده من وراء . نأتى حفصة فنسألها ونستكتمها . فدخلوا عليها وأمروها أن تُخبر بالخبر عن نفر ولا تسمى له أحداً إلا أن يقبل . وخرجوا من عندها . فلقيت عمر فى ذلك فعرفت الغضب فى وجهه . وقال من هؤلاء ؟ قالت . لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك . فقال : لو علمتُ من هم لسؤتُ وجوههم ، أنت بينى و بينهم ، أنشدك بالله ما أفضلُ مااقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس ؟ قالت : ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ، ويخطب فيهما للجمع . قال : فأى الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهى حارّة أسفل عُكة لنا فجعلناها هشّة وسمة ، فأكل منهاوتطعّم منها استطابة لها . قال : فأى مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء لنا ثخين كنا نربّعه فى الصيف فنجعله تحتنا فإذا كان الشتاء بطنا نصفه وتدثّرنا بنصفه . قال:ياحفصة فأبلغيهم عنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلّغ بالترجية ، وإنى قدّرت فوالله

لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلغَنّ بالترجية ، وإنما مَثَلى ومَثَل صاحبَيَّ كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول وقد تزوّد زاداً فبلغ ، ثم أتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم أتبعه الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما .

فقد كان علىّ وأصحابه يريدون أن يزيدوا رزق عمر رضى الله عنه لأنه كان قليلا وقد أشفقوا عليه من الشدة التى كان يعانيها وقد اقتصر على ما كان يتناوله أبو بكر رضى الله عنه لكنهم لم يستطيعوا أن يكلموه خشية غضبه فكلفوا ابنته حفصة زوج رسول الله أن تستطلع رأيه ولم تبح له بأسمائهم فغضب من هذا العَرْض وأبى إلا أن يعيش معيشة رسول الله وأبى بكر .

وقد شهد علىّ لعمر رضى الله عنه شهادة خليقة بأن تكتب بماء الذهب ويتخذها كل راع نصب عينيه فى جميع تصرفاته . ذلك أنه لما قُدم بسيف كسرى على عمر ومِنطقته وزِبْرِجه (جواهره) قال : إن أقواماً أدَّوْا هذا لَذَوُو أمانة فقال علىّ : « إنك عففت فعفّت الرعيَّة » .

ولما استشار عمر أصحابه فى البساط الذى غنمه المسلمون يوم المدائن وهو بساط كسرى وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين . فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم فى رياض . بساط فى ستين ، أرضه بذهب ووشيه بفصوص ، وثمره بجوهر ، وورقه بحرير وماء الذهب ، وكانت العرب تُسمِّيه القِطف ـ أشار بعضهم بقبضه وآخر فوّض إليه ، قام علىّ حين رأى عمر يأبى حتى انتهى إليه فقال :

« لِمَ تجعل علمَك جهلاً ، ويقينك شكاً ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيتَ فأمضيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو أكلتَ فأفنيتَ » وهذا من جوامع الكلم فى الزهد . فقال عمر : صدقتنى فقطعه فقسمه بين الناس فأصاب عليًّا قطعة منه فباعها بعشرين ألفاً وما هى بأجود تلك القطع !

واستشار عمر رضى الله عنه عليًّا فى كتابة التاريخ الهجرى . فعن ابن المسيِّب قال : أول من كتب التاريخ عمر لسنتين ونصف من خلافته فكُتب لست عشرة من الهجرة بمشورة علىّ بن أبى طالب . وعن ابن المسيَّب أيضاً قال : جمع عمر بن الخطاب الناس فسألهم من أىّ يوم نكتب ؟ فقال علىّ من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك أرض الشرك ففعله .

ولما قتل عمر رضى الله عنه قال لعلىّ : أنشدك الله ياعلىّ إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس وأوصى عثمان وعبد الرحمن بن عوف بمثل ذلك .

وعن المغيرة بن شعبة قال : لما دفن عمر أتيت عليًّا رضى الله عنه وأنا أحب أن أسمع منه فى عمر شيئاً ، فخرج ينفض رأسه ولحيته وقد اغتسل وهو ملتحف بثوب لا يشك أن الأمر يصير إليه فقال : يرحم الله ابن الخطاب لقد صدقت ابنة أبى حثمة، لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها .

على رضى الله عنه والخلافة بعد عمر :

لما طعن عمر رضى الله عنه قيل له ياأمير المؤمنين لو استخلفت . قال : من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا استخلفته ، فإن سألنى ربى

قلت سمعت نبيك يقول : « إنه أمين هذه الأمة » ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته. فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول « إن سالماً شديد الحب لله» . فقال له رجل أدلك عليه ـ عبد الله بن عمر ـ فقال : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا . ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته . لا أرَبَ لنا فى أموركم . ماحمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فشرٌ عنا إلى عمر بحَسْب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدتُ نفسى وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافاً لاوزر ولا أجر إنى لسعيد وأنظرُ فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى ، ولن يضيع الله دينه .

ثم قال للقوم : كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أنظر فأولى رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق (وأشار إلى علىّ) ورهقتنى غشية فرأيت رجلا دخل جنة قد غرسها فجعل يقطف كل غَضّة ويانعة فيضمه إليه ويصيّره تحته ، فعلمت أن الله غالب أمره ومتوف عمر فما أريد أن أتحملها حيًّا وميتاً .

فكان عمر رضى الله عنه يريد أن يولّى علياً على ما جاء فى هذه الرواية لكنه لم يرد فى آخر الأمر أن يتحمل المسئولية فلجأ إلى الشورى وقال :

(عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم من أهل الجنة سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل منهم ولست مُدخله، ولكن الستة:

علىّ وعثمان ابنا عبدمناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، وطلحة الخير ابن عبيدالله فليختاروا منهم رجلا فإذا ولّوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه إن ائتمن أحداً منكم فليؤد إليه أمانته . فقال العباس لعلىّ بعد أن خرج القوم « لا تدخل معهم » قال أكره الخلاف . قال : إذا ترى ما تكره .

فكان رأى العباس أن يخرج علىّ لأنه توقع أنه سيرى ما يكره ولكن علياً كان يرى أنه أحق بالخلافة من بادئ الأمر .

فلما أصبح عمر دعا عليا وعثمان وسعداً وعبد الرحمن بن عوف والزبير ابن العوام ، فقال إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم . وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم . ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا واختاروا رجلا منكم ، فدخلوا فتناجوا ، ثم ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله إن أمير المؤمنين لم يمت بعد. فأسمعه فانتبه فقال : ألا أعرضوا عن هذا الأمر أجمعون فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليُصلّ بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير ويحضر عبد الله بن عمر مُشيراً ولا شيء له من الأمر وطلحة شريككم فى الأمر ، فإن قدم فى الأيام الثلاثة (وكان غائباً) فأحضروه أمركم وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومَن لى بطلحة ؟ فقال سعد بن أبى وقاص: أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله،

فقال عمر . أرجو أن لايخالف إن شاء الله . وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين علىّ أو عثمان ، فإن ولى عثمان فرجلٌ فيه لين ، وإن ولى علىّ ففيه دُعابة وأحْرِ به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تُولّوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستعن به الوالى (أى بأن يجعله وزيراً فيستشيره فى أموره) فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ، ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدَّدٌ رشيد . له من الله حافظ فاسمعوا منه .

ولما مات عمر وأخرجت جنازته ، تصدى علىّ وعثمان أيهما يصلى عليه فقال عبد الرحمن كلا كما يحب الإمْرة . لستما من هذا فى شىء ، هـذا إلى صهيب استخلفه عمر يصلى بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام ، فصلى صهيب . ولما دفن عمر ، جمع المقداد أهل الشورى فى حجرة عائشة بإذنها ، وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحة غائب . وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما ، وقال تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى ، وأخيراً تخلى عبد الرحمن ابن عوف وفوضوا أمر اختيار الخليفة إليه ، فشاور عبد الرحمن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس . وقيل كان لايخلو برجل إلاَّ أمره بعثمان ، وكان علىّ لا يشك أنه صاحب الأمر .

وبعد أن صلى الناس الصبح ، وكان المسجد مزدحماً بأهله قال عبدالرحمن: يأيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم، وقد علموا

مَن أميرهم ، فقال سعد بن زيد : إنا نراك لها أهلاً ، فقال : أشيروا عليّ بغير هذا .

فقال عمّار : إن أردت أن لايختلف المسلمون فبايع عليّا .

وقال المقداد : صدق عمار إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا .

وقال ابن أبي سرح : إن أردت أن لاتختلف قريش فبايع عثمان .

فقال عبد الله بن أبي ربيعة : صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا

فشتم عمار ابن أبي سرح وقال متى كنتَ تنصح المسلمين ؟ ثم تكلم عمار فقال :

«أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ »

فقال رجل من مخزوم : لقد عدوتَ طورك ياابن سُمَية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها .

فقال سعد بن أبي وقاص : «ياعبد الرحمن ، افرغ قبل أن يفتتن الناس»

فقال عبد الرحمن : إني قد نظرتُ وشاورت فلا تجعلُنَّ أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا عليا فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسُنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؛ قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي .

ودعا عثمان فقال له مثل ماقال لعليّ . قال نعم ، فبايعه .

فقال عليّ : (حبوته حبو دهر ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم علينا .

فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون والله ما وليت عثمان إلا ليردّ الأمر إليك . والله كل يوم هو فى شأن) .

كان لعلى رضى الله عنه أنصار يجلونه وأعوان يحبونه ويوقرونه لقرابته من رسول الله وسعة علمه وكثرة جهاده . ولم يكن ينتظر أن يختار عبد الرحمن أحداً غيره للخلافة . أما ما أجاب به عبد الرحمن من أنه يرجو أن يفعل ويعمل بمبلغ علمه وطاقته بكتاب الله وسنة رسوله، فجواب حكيم ولا يدل على أنه يعدل عنهما ، بل على أنه يعمل جهد طاقته . وغالبا لا يقول ذلك إلا كل عالم متواضع . ولما استاء علىّ من هذه المفاجأة وأبدى احتجاجه قال له عبد الرحمن بن عوف :

« ياعلى لاتجعل على نفسك سبيلا . فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لايعدلون بعثمان » .

فخرج علىّ وهو يقول « سيبلغ الكتاب أجله » .

فقال المقداد : ياعبد الرحمن أما والله تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون .

فقال . يامقداد والله لقد اجتهدتُ للمسلمين . إن كنتَ أردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين .

فقال المقداد : مارأيت مثل ما أوتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم . إنى لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل . أما والله لو أجد عليه أعوانا .

فقال عبد الرحمن: يامقداد اتق الله فإنى خائف عليك الفتنة، فقال رجل للمقداد : رحمك الله مَن أهل هذا البيت ومَن هذا الرجل ؟ ؟

قال : أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل علىٌّ بن أبى طالب .

فقال علىٌّ : إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً وما كانت فى غيرهم من قريش تداولتموها بينكم .

ولما قدم طلحة وعلم أن الناس بايعوا عثمان قال : قد رضيت لا أرغب عما قد أَجمعوا عليه وبايعه .

أما المغيرة بن شعبة فقال لعبد الرحمن : يا أبا محمد قد أصبت إذ بايعت عثمان ، وقال لعثمان لو بايع عبد الرحمن غيرك مارضينا ، فقال عبد الرحمن كذبت يا أعور لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة .

وروى أن عبد الرحمن لما بايع عثمان رفع رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان ، ثم قال اللهم اسمع واشهد . اللهم إنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر فقعد عبد الرحمن مقعد النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر وأقعد عثمان على الدرجة الثانية.فجعل الناس يبايعونه ، وتَلَكَّأَ (تأخر) علىٌّ. فقال عبدالرحمن «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً » فرجع علىّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول : (خَدْعَةٌ وأيما خَدعة)

قال عبد العزيز : وإنما سبب قول علىّ خدعة أن عمرو بن العاص كان قد لقى عليًّا فى ليالى الشورى ، فقال : إن عبد الرحمن رجل مجتهد ، وإنه متى أعطيته العزيمة كان أزهد له فيك ، ولكن الجُهد والطاقة ، فإنه أرغب له . ثم لقى عثمان فقال : إن عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله يبايعك إلا بالعزيمة فاقبل . فلذلك قال علىّ : « خدعة » .

ولما تم اختيار الخليفة استشار عثمان رضى الله عنه أصحابه فى أمر عبيدالله ابن عمر ، وكان محبوساً فى دار سعد بن أبى وقاص وهو الذى نُزع السيف من يده بعد قتله جُفَيْنة والهرمزان ، وابنة أبى لؤلؤة ، وكان يقول : والله لأقتلنَّ رجالا ممن شرك فى دم أبى ، يُعَرّض بالمهاجرين والأنصار ـ فأشار علىّ بقتله ، لكن عثمان تركه لما قال بعض المهاجرين : قُتِلَ عمر أمس ويقتل ابنه اليوم .

موقف علي رضى الله عنه

إزاء الفتنة ضد عثمان

لما اجتمع أهل الفتنة وكثر الناس على عثمان كلموا علياً رضى الله عنه ، فدخل على عثمان فقال :

الناس ورائى وقد كلمونى فيك ووالله ما أدرى ما أقول لك ، وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لاتعرفه . إنك لتعلم ما نعلم . ماسبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وما خُصصنا بأمر دونك ، وقد رأيتَ وسمعتَ وصحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره وما ابن أبى قحافة (يعنى أبا بكر) بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالا ، ولا سبقاك إلى شيء فالله فى نفسك ، فإنك والله ما تُبَصَّر من عمى ، ولا تُعَلَّم من جهل ، وإن الطريق لواضح بيّن ، وإن أعلام الدين لقائمة . تَعَلَّمْ ياعثمان إن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدِى وهَدَى فأقام سُنة معلومة وأمات بدعة متروكة . فوالله إن كلا لبيّن وإن السنن القائمة لها أعلام ، وإن البدع القائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَل وضُل به ، فأمات سُنة معلومة وأحيا بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى فى

جهنم فيدور فى جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم » وإنى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونِقَماته ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه يقال يُقتل فى هذه إمام فيُفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة وتُلبَس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلوّ الباطل ، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مَرَجاً.

فقال عثمان :

قد والله علمت ليقولُن الذى قلت . أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئتُ منكراً ، إن وصلتُ رحماً وسددتُ خَلّة وآويتُ ضائعاً ووليتُ شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك اللهَ ياعلىّ! هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم. قال فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم. قال فلم تلومنى أن وليّتُ ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ » قال علىّ « سأخبر أن عمر بن الخطاب كان مَن ولى فانما يطأ على صِماخه إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لاتفعل ، ضعفت ورققت على أقاربك » .

قال عثمان : « هم أقاربك أيضاً » .

فقال علىّ : « لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ولكن الفضل فى غيرهم »

قال عثمان : « هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها . فقد وليته ؟ »

فقال علىّ : « أنشدك الله . هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ » .

قال : « نعم ».

قال عليٌّ : « فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تُغَيّرُ على معاوية »

أثبتنا خطبة عليّ رضى الله عنه ومناقشته لعثمان فى كتابنا « عثمان بن عفان » والخطبة والمناقشة توضحان أن علياً لم يكن راضياً عن سياسة عثمان مع اعترافه بمكانته وفضله ، وكان أهم مادار عليه الحوار قول عليّ (إنك ضعفت ورفقت على أقربائك) .

وكان أهل مصر يريدون أن يكون الخليفة علياً ، فلما عرضوا عليه ذلك صاح بهم وطردهم وقال « لقد علم الصالحون أن جيش ذى المروة وذى خُشُب ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فارجعوا صحبكم الله » قالوا نعم فانصرفوا من عنده على ذلك . وكذلك فعل طلحة والزبير بأصحابهما ، ثم لما عاد الجيش جاء عثمان علياً فدخل عليه بيته فقال : يا ابن عم إنه ليس لى مُتَّرَكٌ ، وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك ، وقد جاء ماترى من هؤلاء القوم ، وهم مُصبِّحيَّ ، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك ، فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عنى ، فإنى لا أحب أن يدخلوا عليّ فإن ذلك جُرأة منهم عليّ وليسمع بذلك غيرهم ، فقال عليٌّ : علام أردهم ؟ قال : على أن أصير إلى ما أشرت به عليَّ ورأيته لى ، ولست أخرج من يديك . فقال عليٌّ : إنى كنت كلمتُك مرة بعد مرة ، فكل ذلك تخرج فتكلم وتقول وتقول ، وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية .

أطعتهم وعصيتني ـ قال عثمان «فإني أعصيهم وأطيعك» فأمر الناس فركبوا . معه المهاجرون والأنصار (ولم يرض عمار أن يخرج مع عليّ وقال لسعد والله لا أردهم عنه أبداً) .

ركب عليٌ رضى الله عنه إلى أهل مصر فردهم عنه فانصرفوا راجعين . أطاع عليٌ عثمان ولم يرفض رد الجيش عنه كما رفض غيره ولما دعا الصحابة عليٌ لأن يركبوا معه أجابوه وركبوا معه وبذلك انصرف الجيش بفضل عليّ وأصحابه ، فكان عليه السلام مخلصاً لعثمان ، مدافعاً عنه ملبياً لدعوته ، ماداً إليه يده ومعونته عند الحاجة .

دخل عليّ بعد أن رجع الجيش على عثمان وكلمه كلاماً فى نفسه ، ولا شك أنه كان يريد أن يعدل الخليفة عن خطته فضاً للنزاع وإخماداً للفتنة وتهدئة للخواطر .

وعن عليّ بن عمر عن أبيه قال :

ثم إن علياً جاء عثمان بعد انصراف المصريين فقال له «تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليه ، ويشهد الله على مافى قلبك من النزوع والإنابة فإن البلاد قد تمخضت عليك ، فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول يا عليّ اركب إليهم ، ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أُسمِعَ عذراً ، ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : ياعليّ اركب إليهم ، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعتُ رحمك واستخففت بحقك »

دعا عثمان إلى النزوع ليضع بذلك حداً للفتن ، ومتى علم الناس أن الخليفة صرّح بتغيير سياسته هدأت ثائرتهم ولولا ذلك لا يأمن أحد من قدوم الثائرين من أى بلد ، وعند ذلك قد لا يستطيع علىٌّ ولا غيره ردهم .

بعد ذلك خرج عثمان فخطب الخطبة التى نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة ، فلما دخل منزله قال له مروان : « بأبى أنت وأمى والله لوددتُ أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ، فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلتَ ماقلتَ حين بلغ الحزام الطُّبْيين ، وخلف السَّيل الزُّبَى ، وحين أعطى الخُطة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها ، أجمل من توبة تخوّف عليها ، وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تُقرر بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس » .

لم يستطيع عثمان أن يخرج للناس وينقض توبته لكنه أذن لمروان بالخروج إليهم فخرج وعنفهم ، فلما علم علىّ بما فعل مروان جاء مغضباً حتى دخل على عثمان فقال :

« أما رضيت من مروان ، ولا رضى منك إلا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به ، والله مامروان بذى رأى فى دينه ولا نفسه ، وأيم الله إنى لأراه سيوردك ، ثم لا يصدرك ، وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغُلبت على أمرك » .

هذا رأى علىّ رضى الله عنه فى مروان ، وقد لام عثمان على سماحه له بنقض توبته ، وقد غضب وحق له أن يغضب ، وأدركت نائلة زوجة عثمان ماارتكبه

مروان من الخطأ ، فكلمت زوجها فى ذلك ، فأرسل عثمان رسولا يستدعى عليًّا فقال له بصوت مرتفع : « قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد » فاضطر عثمان أن يأتيه فقال له علىّ : « بعد ما تكلمت به على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطيت من نفسك ، ثم دخلت بيتك وخرج مروان إلى الناس فشتمهم على بابك ويؤذيهم !! » .

فرجع عثمان ، وهو يقول : « قطعتَ رحمى وخذلتنى وجرّأت الناس علىّ » .

فأجابه علىّ : « والله إنى لَأَذَبُّ الناس عنك ، ولكنى كلما جئتك بهَنة أظنها لك رضى جاء بأُخرى فسمعتَ قول مروان علىّ واستدخلت مروان » ، ثم انصرف عثمان رضى الله عنه ، ومن هذا يتبين أن عليًّا كان مستاء أشد الاستياء من تدخل مروان فى الأمر ، وأنه كان يشفق على عثمان ويود أن تسكن الثورة ويحل الوفاق محل الشقاق .

ثم جاء عثمان يوم الجمعة وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، فقام رجل فقال : « أقم كتاب الله » فقال عثمان : اجلس ، فجلس حتى قام ثلاثًا ، فأمر به عثمان فجلس فتحاثوا بالحصباء حتى ماتُرى السماء ، وسقط عن المنبر وحُمل فأُدخل داره مغشياً عليه . فخرج رجل من حجاب عثمان ومعه مُصحف فى يده وهو ينادى (إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شيء . إنما أمرهم إلى الله) .

ودخل علىٌّ بن أبى طالب على عثمان رضى الله عنه وهو مغشىٌّ عليه

وبنو أمية حوله . فقال مالك يا أمير المؤمنين ؟ فأقبلت بنو أمية بمنطق واحد فقالوا : « ياعليّ أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين . أما والله لئن بلغتَ الذى تريد لتمرّن عليك الدنيا » فقام عليّ مغضباً .

عجيب أن يتهم بنو مروان علياً بعد أن دافع عن عثمان ورد عنه الجيش وأخلص له النصح ، وكان الأجدر بهم أن يوقفوا مروان عند حده ، وأن لايملوا على عثمان إرادتهم ويضغطوا عليه بقبول آرائهم التى جرّت عليه سخط الناس .

ولما خاف عثمان القتل شاور نصحاءه ، فأشاروا إليه أن يرسل إلى عليّ ابن أبى طالب فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم مايُرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه المدد . فقال عثمان : إن القوم لن يقبلوا التعليل وَهِىَ مُحَمِّلِى عهداً . وقد كان منى فى قَدْمتهم الأولى ماكان ، فتى أعطهم ذلك يسألونى الوفاء به . . فقال مروان بن الحكم : يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب، فأعطهم ماسألوك وطاولهم ماطاولوك، فإنما بغوا عليك فلا عهد لهم .

فخطة طلب المهلة إلى أن يأتى المدد هى خطة مروان ولم يكن عليّ يعلم شيئاً عن هذه الخطة فأرسل عثمان إلى عليّ فلما حضر قال : يا أبا الحسن إنه قد كان من الناس ماقد رأيت ، وكان منى ماقد علمت، ولستُ آمنهم على قتلى فارددهم عنى ، فإن لهم الله عز وجل أن أُعتبهم، وإن كان فى ذلك سفك دمى . فقال عليّ : الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك . وإنى لأرى قوما

لا يرضون إلا بالرضى ، وقد كنت أعطيتهم فى قَدْمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع مانقموا فرددتُهم عنك . ثم لم تف لهم بشىء من ذلك ، فلا تغرنى هذه المرة من شىء فإنى معطيهم عليك الحق . قال نعم فأعطهم، فوالله لأفينّ لهم . فخرج علىّ إلى الناس فقال :

« أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ماتكرهون فاقبلوا منه ووكدوا عليه » .

قال الناس قد قبلنا فاستوثق منه لنا ، فإنا والله لانرضى بقول دون فعل ، فقال لهم علىّ : ذلك لكم . ثم دخل عليه فأخبره الخبر ، فقال عثمان : إضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على ردّ ما كرهوا فى يوم واحد .

قال له علىّ : ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك . قال : نعم . ولكن أجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . قال علىّ : نعم . فخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يردّ كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه ، ثم أخذ عليه فى الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق ، وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار . فكف المسلمون عنه ورجعوا إلى أن يفى لهم بما أعطاهم من نفسه .

❁

كان عليٌّ رضى الله عنه واسطة بين عثمان ، والثائرين ، وكان جاداً فى صرف الناس عن عثمان ، وإصلاح ذات البين ، ولما التجأ إليه عثمان فى هذه المرة لم يتقاعد ، ولم يستمر فى غضبه الأول بل ضرب صفحاً عن إصراره أن لا يعود إلى عثمان بعد أن نقض مروان توبته . وعند ما طلب إليه عثمان أن يمهل الناس حتى يجيب مطالبهم وثق به . لكنه خشى أن يعود وينقض وعده إذا اجتمع إليه مروان ، وبنو أمية . فأخذ عليه ميثاقاً شديداً وأشهد عليه وجوه القوم وبعد ذلك تعهد للثوار بأن عثمان سيفى بوعده ، ويجيب مطالبهم، لذلك انصرف الناس وفكوا الحصار ، غير أن علياً لم يكن يعلم بأن مروان وغيره من بنى أمية احتالوا بذلك حتى يستعدّ الخليفة ويأتيه المدد .

جعل عثمان رضى الله عنه يتأهب للقتال ، ويستعد بالسلاح ، وقد كان اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الخُمس . فلما مضت الأيام الثلاثة وهو على حاله لم يغير شيئاً مما كرهوه ، ولم يعزل عاملاً ، ثار به الناس ، ولا سيما لما وجدوا ذلك الكتاب الذى أُرسل إلى والى مصر بقتل محمد بن أبى بكر وتبرّأ منه عثمان ، واتضح أن الكتاب بخط مروان، فسألوا الخليفة أن يسلمهم مروان فأبى فحاصروه ثم قتلوه .

ولما منع المحاصرون الماء من عثمان رضى الله عنه . أرسل إلى علىّ بأنهم قد منعوا الماء عنه . كذلك أرسل إلى طلحة ، والزبير ، وعائشة وأزواج النبى

صلى الله عليه وسلم . فكان عليّ رضى الله عنه أولهم إنجاداً هو ، وأم حبيبة . فجاءه عليّ فى الليل . فقال : « يا أيها الناس إن الذى تصنعون لا يُشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين . لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة . فإن الرّوم ، وفارس لتأسر فتُطعم وتسقى ، وما تعرّض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله ؟ »

فعليّ رضى الله عنه كان ساخطاً عليهم مستفظعاً منع الماء والأكل عنه وعدّه أمراً وحشياً كما هو المفهوم من خطابه لهم ، ولم يكن راضياً عن الحصار لقوله « فبم تستحلون حصره وقتله ؟ » لكنه ما كان يستطيع أن يدفع عنه شراً أضمروه وغدراً بيتوه . فقالوا لعليّ : لا والله ولا نعمة عين . لا نتركه يأكل ويشرب .

ولكى يبرهن عليّ أنه جاء لنجدة عثمان بلا تمهل رمى بعمامته فى الدار بأنه نهض فيما أنهضه .

وجاءت أم حبيبة فتعدّوا عليها ، وقطعوا حبل البغلة التى كانت تركبها بالسيف وكادوا يقتلونها فعادت إلى بيتها . فيُرى أن النفوس كانت فى أشد الثورة فلا عليّ ولا غيره يستطيع أن يعمل شيئاً ، والدليل على ذلك أنه لما بلغ طلحة والزبير ما لقى عليّ وأم حبيبة لزموا بيوتهم .

وقد ذكر ابن عباس السبب الذى منع عثمان من العمل باستشارة عليّ قال عكرمة . قلت لابن عباس : أوكانا حصرين ؟ فقال ابن عباس : « نعم . الحصر الأول حُصر اثنتى عشرة . وقدم المصريون فلقيهم عليّ بذى خشب ،

فردهم عنه . وقد كان والله علىّ له صاحب صدق حتى أوغر نفسَ علىّ عليه ، جعل مروان ، وسعيد ، وذووهما يحملونه على علىّ فيتحمل ويقولون لو شاء ما كلمك أحد ، وذلك أن علياً كان يكلمه وينصحه ، ويُغلظ عليه فى المنطق فى مروان وذويه . فيقولون لعثمان : هكذا يستقبلك ، وأنت إمامه وسِلْفه وابن عمه ، فما ظنك بما غاب عنك منه ؟ فلم يزالوا بعلىّ حتى أجمع ألا يقوم دونه . فدخلتُ عليه اليوم الذى خرجتُ فيه إلى مكة ، فذكرتُ له أن عثمان دعانى إلى الخروج فقال لى : ما يريد عثمان أن ينصحه أحد . اتخذ بطانة ، أهل غش . ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها . فقلت له إن له رحماً وحقًّا فإن رأيتَ أن تقوم دونه ، فعلتَ فإنك لا تُعذِر إلا بذلك . قال ابن عباس فالله يعلم أنى رأيت فيه الانكسار ، والرقة لعثمان ، ثم إنى لأراه يُؤتَى إليه عظيم » .

فحاشية عثمان هم الذين أوقعوا البغض فى نفسه بالنسبة لعلى رضى الله عنه ، لذلك لم يقبل نصحه وحسب إنه يحرّض الناس عليه ، ومع ذلك كان يلجأ إليه وقت الشدة . إنهم كانوا يقولون إن علياً يغلظ القول عليه أمامه ، وقالوا فما ظنك بما غاب عنك منه ؟ لكن هذا استنتاج لا يطرد مع جميع الناس ، فقد ينصحنى الصديق بشدة أمامى ، ويمدحنى فى غيبتى ، ويسارع إلى نجدتى ، وهذا النوع من الأصدقاء خير من المداهنين ومستشارى السوء ، والمتملقين ، والذين يوقعون بين الناس للحصول على أغراضهم ، والمحب الصادق يسوؤه أن يصاب حبيبه بسوء فيغلظ عليه النصح إذا رأى أنه لا يرعوى عن خطته ،

ولا يكف عن سماع أقوال المغرضين والنمامين . والنمام لا يوثق به ، ولا يركن إليه ، وكثيراً ما كانت حاشية الملوك ، والأمراء سبباً فى إبعاد العقلاء ، والمخلصين وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم لمصالحهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية ، وكثيراً ما كانوا سبب القلاقل والفتن ، والثورات التى عادت على الراعى والرعية بأشد الإضرار ، والفتنة أشد من القتل ، ثم إن الأمراء فى الغالب يسمعون كلام الملاصقين لهم فى كل يوم ، وفى كل لحظة ، ويسمعون المطاعن والتهم الموجهة إلى قوم من الخارجين عن دائرتهم ، ولا يستطيعون تحقيقها ، والتثبت من صحتها أو كذبها فتكون النتيجة أنهم يأثرون على مر الأيام من أقوال المقرّبين إليهم، ويحملون على المطعون فيهم ، وهم أبرياء مخلصون ، وكيف يمكن لهؤلاء إثبات إخلاصهم للوالى ما دام خلطاؤه يطعنون فيهم فى غيبتهم ، ويتهمونهم بتهم لا يعلمونها ، ولا يستطيعون لها دفعاً ! ؟

المنافسة بين عليّ وعثمان

قال ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة : حدثني جعفر بن مكي الحاجب رحمه الله قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجاب ، وقد رأيت أنا محمداً هذا ، وكانت لي به معرفة غير مستحكمة ، وكان ظريفاً أديباً ، وقد اشتغل بالرياضات من الفلسفة ولم يكن يتعصب لمذهب بعينه . قال جعفر : سألته عما عنده في أمر عثمان فقال :

هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس ، وبين بني هاشم ، وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان يحسد محمداً صلى الله عليه وسلم ، وحاربه ولم تزل الثنتان متباغضتين ، وإن جمعتهما المنافية ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج علياً بابنته ، وزوج عثمان بابنته الأخرى ، وكان اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الأخرى وللثانية التي تزوجها عثمان بعد وفاة الأولى ، واختصاصه أيضاً لعليّ وزيادة قربه منه ، وامتزاجه به ، واستخلاصه إياه لنفسه أكثر وأعظم من اختصاصه لعثمان ، فنفس عثمان ذلك عليه ؛ فتباعد ما بين قلبيهما ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأختين من مباغضة أو مشاجرة ، أو كلام ينقل من إحداهما إلى الأخرى فيتكدّر قلبها على أختها ، ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعلين أيضاً كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الأعصار ، وقد قيل ما قطع من الأخوين كالزوجتين . ثم اتفق

أن علياً عليه السلام قتل جماعة كثيرة من بنى عبدشمس فى حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأكد الشنآن . وإذا استوحش الإنسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فصبا إلى علىّ جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ولا حضر فى دار فاطمة مع من حضر من المخلفين عن البيعة ، وكانت فى نفس علىّ عليه السلام أمور من الخلافة لم يمكنه إظهارها فى أيام أبى بكر ، وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه، فلما قتل عمر جعل الأمر شورى بين الستة ، وعدل عبد الرحمن بها عن علىّ إلى عثمان ، لم يملك علىّ نفسه فأظهر ما كان كامناً ، وأبدى ما كان مستوراً . ولم يزل الأمر يتزايد بينهما حتى شرف وتفاقم ، ومع ذلك لم يكن علىّ عليه السلام لينكر من أمره إلا منكراً ، ولا ينهاه إلا عما تقتضى الشريعة نهيه عنه ، وكان عثمان مستضعفاً فى نفسه رخواً قليل الحزم واهى العقدة ، وسلم عنانه إلى مروان يصرّفه كيف شاء ، فالخلافة له فى المعنى ولعثمان فى الاسم . فلما انتقض على عثمان أمره ، استصرخ علياً ولاذ به ، وألقى زمام أمره إليه . فدافع عنه حيث لا ينفع الدفاع وذبّ عنه حين لا يغنى الذب . فقد كان الأمر فسد فساداً لا يرجى صلاحه .

قال جعفر ، فقلت له : أتقول إن علياً وجد من خلافة عثمان أعظم مما وجد فى خلافة أبى بكر ، وعمر ؟ فقال : كيف يكون ذلك وهو فرع لهما ، ولولاهما لم يصل إلى الخلافة ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل، ولا يخطر له ببال ، ولكن هاهنا أمر يقتضى فى عثمان زيادة المنافسة ، وهو اجتماعهما فى

النسب ، وكونهما من بنى عبد مناف . والإنسان ينافس ابن عمه الأدنى أكثر من منافسة الأبعد ما لا يهون عليه من الأقرب . قال جعفر : فقلت له أفتقول لو أن عثمان خُلع ولم يقتل ، أكان الأمر يستقيم لعلىّ عليه السلام إذا بويع بعد خلعه ؟ فقال لا . وكيف يتوهم ذلك ؟ بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حىّ مخلوع أكثر من انتقاضها عليه بعد قتله لأنه موجود يُرجى ويُتوقع عوده . فإن كان محبوساً ، عظم البلاء والخطب ، وهتف الناس باسمه فى كل يوم . بل فى كل ساعة . وإن مخلياً سربه وممكناً من نفسه ، وغير محوّل بينه وبين اختياره ، لجأ إلى بعض الأطراف ، وذكر أنه مظلوم، غُصبت خلافته . وقُهر على خلع نفسه . فكان اجتماع الناس عليه أعظم ، والفتنة به أشد وأغلظ . قال جعفر : فقلت له فما تقول فى هذا الاختلاف الواقع فى أمر الإمامة من مبدإ الحال ؟ وما الذى تظنه أصله ومنبعه ؟ فقال : لا أعلم لهذا أصلاً إلا أمرين : أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمل أمر الإمامة فلم يصرح فيه بأحد بعينه ، وإنما كان هناك رمز وإيماء وكناية وتعريض . لو أراد صاحبه أن يحتج به وقت الاختلاف وحال المنازعة ، لم يقم منه صورة حجة تغنى ولا دلالة تحسب وتكفى ، ولذلك لم يحتج علىّ عليه السلام يوم السقيفة بما ورد فيه لأنه لم يكن نصاً جلياً يقطع العذر ويوجب الحجة . وعادة الملوك إذا تمهد ملكهم ، وأرادوا العقد لولد من أولادهم أو ثقة من ثقاتهم ، أن يصرّحوا بذكره ، ويخطبوا باسمه على أعناق المنابر ، وبين فواصل الخطب، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم

والأقطار النائية منهم ، ومن كان ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ، ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك بحيث تزول الشبهة فى أمره ، ويسقط الارتياب بحاله . فليس أمر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير فى مظنة الاشتباه واللبس . ولعله كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك عذر لا نعلمه نحن . أما خشيته من فساد الأمر أو إرجاف المنافقين وقولهم إنها ليس بنبوة وإنما هى ملك أوصى به من بعده لذريته وسلالته ، ولما لم يكن أحد من تلك الذرية فى تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر سنه جعله لأبيهم ليكون فى الحقيقة لزوجته التى هى ابنته « ولأولاده منها من بعده » .

ثم ذكر الخلاف بين علىّ وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية بعد قتل عثمان مما لا محل لذكره هنا .

بيعة عليّ رضى الله عنه

يوم الجمعة ٢٥ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ٢٤ يونيه سنة ٦٥٦ م

بعد أن قتل عثمان رضى عنه فرّ أقاربه إلى مكة طلباً للثأر وأقبل الناس يبايعون علياً، وكان ابن عباس عاد من الحج ، فلما رآه عليّ ترك الناس وانفرد به وقال له : ماترى فيما وقع فإنه قد وقع أمر عظيم كما ترى ؟

فقال ابن عباس : لابد للناس منك اليوم ، فأرى أنه لايُبايع اليوم أحدٌ إلا اتهم بدم هذا الرجل . فأبى إلا أن يُبايع فاتهم بدمه .

عن محمد بن الحنفية قال : كنت مع أبى حين قتل عثمان رضى الله عنه فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك . لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لاتفعلوا فإنى لكم وزير خيرٌ منى أمير ، فقالوا لا والله مانحن بفاعلين حتى نبايعك . قال : ففى المسجد فإن بيعتى لاتكون خفيا ولا تكون إلا عن رضى المسلمين، فقال عبد الله بن عباس . فلقد كرهت أن يأتى المسجد مخافة أن يُشْغب عليه، وأبى هو إلا المسجد ، فلما دخل دخل المهاجرون والأنصار ، فبايعوه ، ثم بايعه الناس ، ولم يكن فى المسلمين من هو أحق وأليق من عليّ بالخلافة وقتئذ .

خطبته رضى الله عنه :

صعد عليّ رضى الله عنه المنبر فاجتمع الناس إليه فقال :

« إنى قد كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم . إلا أنه ليس لى أمر دونكم إلا أن مفاتيح مالكم معى. ألاوإنه ليس لى أن آخذ منه درهما دونكم . رضيتم ؟ » قالوا نعم . قال « اللهم اشهد عليهم » .

ثم بايعهم على ذلك، وقيل أول من بايعه طلحة فقال حبيب بن ذؤيب . أول مَن بدأ بالبيعة يد شلاء . لايتم هذا الأمر، وقال قوم إنما بايع طلحة والزبير علياً كرها .

المتخلفون عن البيعة :

وعن عبدالله بن الحسن قال : لما قُتل عثمان رضىالله عنه بايعت الأنصار علياً إلا نُفيراً يسيراً منهم : حسان بن ثابت . وكعب بن مالك . ومَسْلَمة ابن مُخَلَّد . وأبو سعيد الخُدرى . ومحمد بن مَسْلَمة . والنعمان بن بشير . وزيد ابن ثابت. وأسامة بن زيد. ورافع بن خَدِيج. وفَضالة بن عُبيد . وكعب بن عُجرة كانوا عثمانية . فقال رجل لعبد الله بن حسن : كيف أبى هؤلاء بيعة علىّ وكانوا عثمانية . قال :

أما حسان فكان شاعراً لايبالى ما يصنع ، وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال . فلما حصر عثمان قال : يامعشر الأنصار كونوا

أنصاراً لله مرتين. فقال أبو أيوب ماتنصره إلا أنه أكثر لك من العِضدان .
فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له » .

وهرب قوم من المدينة إلى الشام ، ولم يبايعوا علياً . ولم يبايعه قُدامة ابن مظعون ، وعبد الله بن سلام ، والمغيرة بن شُعبة ، وسعد بن أبى وقاص ، وابن عمر وصهيب . وأهل الكوفة يقولون إن أول من بايعه الأشتر .

أما الوليد وسعيد ومروان فخرجوا هاربين إلى مكة وأما النعمان بن بشير فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التى قطعت ، وقميص عثمان الذى قتل فيه وهرب به فلحق بالشام ، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع ، فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً ، وجدًّا فى أمرهم . ثم رفعه فإذا أحسّ منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص : حرك لها حوارها تَحِنّ فيعلقها .

أول خطبة لعلى حين استخلف :

خطب علىّ أمير المؤمنين حين استخلف فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر . فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يُؤدكم إلى الجنة . إن الله حرّم حُرَماً غيرَ مجهولة وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها ، وشدّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين . والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق . لايحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصةُ أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإن مامِن خلفكم الساعةُ تحدوكم . تخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أُخراهم . اتقوا الله عبادَه فى عباده وبلاده . إنكم مسئولون حتى عن البقاع

والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به . وإذا رأيتم الشر فدعوه ؟ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض » .

ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر ، قال المصريون :

خذها اليك واحذرن أبا حَسَنْ　　إنَّا نُمِرُّ الأمر إمرار الرَّسَنْ
صولة أقوام كاسداد السُّفن　　بمشرفيّات كغُدران اللَّبَنْ
ونطعن المُلك بِلَيْنٍ كالشَّطَنْ　　حتى يُمَرَّنَ على غير عَنَنْ

فقال عليٌّ :

إنى عجزت عجزة لا أعتــــذرْ　　سوف أكيس بعدها وأسْتَمِر
أرفع من ذيلىَ ما كنت أجُر　　وأجمع الأمر الشتيت المُنْتَشر
ولم يشاغبنى العجول المنتصر　　أو يتركونى والسلاح يُبْتَدر

اجتماع الصحابة بعلى رضى الله عنه :

اجتمع إلى علىّ طلحة والزبير وفريق من الصحابة فقال : ياعلىّ إنا قد اشترطنا « إقامة الحدود » وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل ، وأحلوا بأنفسهم. فقال لهم: « ياإخوتاه إنى لست أجهل ماتعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم . هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء مما تريدون ؟ » قالوا لا. قال : «والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله . إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء مادة وذلك أن الشيطان لم

يشرع شريعة قط نيبرح الأرض من أخذ بها أبداً ، إن الناس من هذا الأمر إن حُرّك على أمور ، فرقة ترى ماترون ، وفرقة لاترى هذا ولاهذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا» .

واشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج على حالها وإنما هيّجه على ذلك هرب بنى أمية . وتفرق القوم وبعضهم يقول : والله لئن ازداد الأمر لاقدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا إلى ماقال علىّ أمثل، وبعضهم يقول نقضى الذى علينا ولا نؤخره . ووالله إن علياً لمستغن برأيه وأمره عنا ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره ، فذُكر ذلك لعلىّ فقام فحمد الله ، وأثنى عليه وذكر فضلهم ، وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل عليه ونادى برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مولاه. فتذامرت السبائية والأعراب وقالوا لنا غداً مثلها ولا نستطيع نحتج فيهم بشىء فقال رضى الله عنه : ياأيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب وقال يامعشر الأعراب الحقوا بمياهكم ، فأبت السبائية وأطاعهم الأعراب .

فدخل علىّ بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دونكم ثأركم فاقتلوه ، فقالوا عتوا عن ذلك فقال هم والله بعد اليوم أعتى وقال :

لو أن قومى طاوعتنى سَراتُهم أمرتُهمُ أمراً يُديخ الأعاديا

وقال طلحة : دعنى فلآت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل. فقال حتى أنظر فى ذلك ، وقال الزبير : دعنى آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل فقال حتى أنظر فى ذلك :

رأى المغيرة بن شعبة فى إقرار العمال :

ودخل المغيرة على علىّ رضى الله عنه فقال :

« إن لك حق الطاعة والنصيحة وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد وان الضياع اليوم تُضيّع به مافى غدٍ. أقرر معاوية على عمله وأقرر ابن عامر على عمله وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلتَ أو تركت » قال حتى أنظر . فخرج من عنده وعاد إليه من الغد ، فقال إنى أشرتُ عليك بالأمس برأى وإن الرأى أن تعاجلهم بالنزوع فيعرف السامع من غيره ويستقبل أمرك ، ثم خرج وتلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل . فلما انتهى إلى علىّ ، قال رأيتُ المغيرة خرج من عندك ، ففيم جاءك ؟ فقال قال لى قبل مرته هذه إن لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وإن الرأى اليوم تحرز به مافى غد وان الضياع اليوم يضيع به ما فى غد . أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم اعزل من شئت ، فأبيتُ عليه ذلك وقلت لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنية فى أمرى . قال فإن كنت أبيت علىّ فانزع من شئت واترك معاوية فإن فى معاوية جرأة وهو فى أهل الشام يُستمع منه ولك حجة فى إثباته . كان عمر قد ولاه الشام، فقلت لاوالله لاأستعمل معاوية يومين ثم انصرف

من عندى وأنا أعرف فيه أنه يود أنى مخطئ . ثم عاد إلىّ الآن فقال ، إنى أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت وخالفتنى فيه ، ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذى رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان .

فالمغيرة لما رأى أن عليًّا يأبى إقرار عمال عثمان ولا سيما معاوية عاد فعدل عن رأيه ، وأظهر أنه يوافقه ، وقد كان علىّ فى خلافة عثمان يعيب عليه ترك معاوية فى الحكم لأنه كان يعمل ما يشاء وينسبه إلى الخليفة فلا يتكلم .

قال ابن عباس لعلىّ بعد أن أدلى إليه برأى المغيرة الأول ثم برأيه الثانى : أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك .

رأى ابن عباس :

قال علىّ لابن عباس : ولم نصحنى ؟

قال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى تثبهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر . ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك .

كان ابن عباس يتوقع انتقاض معاوية وأهل الشام معه إذا لم يوله وكذلك كان يتوقع انتقاض أهل الكوفة وانتقاض طلحة والزبير بيعتهما .

فقال علىّ : أما ما ذكرت من إقرارهم . فوالله ما أشك أن ذلك خير فى عاجل الدنيا لإصلاحها . وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان

فوالله لا أولى منهم أحداً أبداً . فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا بذلت لهم السيف .

أصر عليٌ على عزل عمال عثمان فى الحال لأنهم كانوا سبب الشكوى ، والتذمر فإن لم يذعنوا حاربهم .

قال ابن عباس فأطعنى وادخل دارك والحق بمالك بينبع واغلق بابك عليك . فإن العرب تجول جولة وتضطرب ، ولا تجد غيرك . فإنك والله لئن نهضتَ مع هؤلاء اليوم ليحمّلنّك الناس دم عثمان غداً .

فأبى عليٌ.فقال لابن عباس، سر إلى الشام فقد وليتكها . فقال ابن عباس: ما هذا برأى . معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ولست آمن أن يضرب عنقى لعثمان . أو أدنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم علىّ .

فقال له عليٌ ولم ؟ قال لقرابة ما بينى وبينك وإن كل ما حُمل عليك حمل علىّ ، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنّه وعده . فأبى عليٌ وقال والله لا كان هذا أبداً .

وبالطبع ما كان معاوية يرضى أن يعزل عن الشام بعد أن وليها زمن عمر وعثمان وبعد أن قويت سلطته هناك ، وكانت الدلائل تدل على أنه سيقاوم علياً رضى الله عنه ويطالب بدم عثمان ، ولما أبى عليٌ إلا عزل معاوية أو قتاله . قال له ابن عباس « افعل إن أيسر ما لك عندى الطاعة »

أ علىّ رضى الله عنه أن خير ما يصلح به الأمر ،عزل جميع ولاة عثمان

قبل أن تصل إليه بيعة الأمصار ، وأن بقاءهم يوماً واحداً طعن فى دينه ، لذلك لم يأخذ برأى المغيرة بن شعبة وابن عباس وهو أقرب الناس إليه ، ولم يرد رضى الله عنه أن يفتتح عهد خلافته بتوليته معاوية الشام ، وإقراره فيه. لأنه لو فعل ذلك لكان ابتدأ فى أول أمره بما انتهى إليه عثمان فى آخر حياته ، فأفضى إلى قتله .

توزيع الولاة على الأمصار :

وزع علىٌّ رضى الله عنه الولاة على الأمصار بالكيفية الآتية :

(١) عثمان بن حنيف على البصرة .

(٢) عمارة بن شهاب على الكوفة .

(٣) عبيد الله بن العباس على اليمن . (لا عبد الله كما ذكره واشنطون أيرفنج) .

(٤) قيس بن سعد على مصر .

(٥) سهل بن حُنَيف على الشام .

أما عثمان بن حُنيف فسار ولم يرده أحد عن دخول البصرة ، ولم يكن لابن عامر فى ذلك رأى ولا استقلال بحرب . وافترق الناس بها . فرقة اتبعت القوم ودخلت فرقة الجماعة . وقالت فرقة ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا .

وأما عُمارة بن شهاب فلما بلغ زُبالة[1] لقيه طليحة بن خويلد يطلب بثأر عثمان وهو يقول : لهفى على أمر لم يسبقنى ولم أدركه . وكان خروجه عند عود

(١) زبالة منزل بطريق مكة من الكوفة وهى قرية كانت بها أسواق .

القعقاع من إغاثة عثمان . فلما لقى عمارة ، قال له : ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً فإن أبيت ضربت عنقك (وكان عامل عثمان على الكوفة سنة وفاته أبا موسى على الصلاة) فرجع عمارة إلى علىّ بالخبر .

وانطلق عبيد الله بن العباس إلى اليمن . فجمع يعلى بن منية (عامل عثمان على صنعاء) كل شىء من الجباية وخرج به إلى مكة فقدمها بالمال ودخل عبيد الله اليمن .

وأما قيس بن سعد الذى أُرسل إلى مصر ، فإنه لما انتهى إلى اَيْلَة (١) لقيته خيل . فقالوا من أنت ؟ قال : من فالّة عثمان فأنا أطلب من آوى إليه ، فأنتصر به لله . قالوا من أنت ؟ قال قيس بن سعد . قالوا امض . فمضى حتى دخل مصر . فافترق أهل مصر فرقاً . فرقة دخلت فى الجماعة . فكانوا معه وفرقة اعتزلت بخَرِبْتا (٢) وقالوا إن قُتل قتلة عثمان فنحن معكم ، وإلا فنحن على جديلتنا (حالنا الأول) حتى نحرك أو نصيب حاجتنا ، وفرقة قالوا نحن مع علىّ مالم يُقِد إخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة، وكتب قيس إلى أمير المؤمنين بذلك.

أما سهل بن حُنَيْف الذى ولاه علىّ رضى الله عنه الشام فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيه خيل . فقالوا من أنت ؟ قال أمير . قالوا على أى شىء ؟ قال على الشام . قالوا إن كان عثمان بعثك فحىّ هَلاً بك . وإن كان بعثك غيره فارجع . قال أو ما سمعتم بالذى كان ؟ قالوا بلى . فرجع إلى علىّ فدعا علىّ رضى الله عنه طلحة والزبير فقال : إن الذى كنت أحذركم قد وقع يا قوم ،

---

(١) أيلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام .

(٢) خربتا بلدة حوالى الاسكندرية وهى الآن خراب لاتعرف .

وإن الأمر الذى وقع لا يُدرك إلا بإماتته وإنها فتنة كالنار كلما سُعرت ازدادت واستنارت. فقالاله فأذن لنا أن نخرج من المدينة. فإما أن نكابر وإما أن تدعنا . فقال سأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجد بداً فآخر الداء الكىّ .

☆

قبل أن نذكر بقية الحوادث نكتب شيئاً عن ولاة علىّ رضى الله عنهم ليعرفهم القراء .

(١) كان عثمان بن حنيف أنصاريًّا من قبيلة الأوس وهو أخو سهل ابن حنيف . شهد أحــداً والمشاهد بعدها واستعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على مساحة سواد العراق فمسحه وقسط خراجه.

(٢) عمارة بن شهاب لم نجد له ذكراً بين الصحابة .

(٣) عبيد الله بن العباس . هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ عنه وكان أصغر سنًّا من أخيه عبد الله . قيل كان بينهما فى المولد سنة ، وكان عظيم الكرم والجود يضرب به المثل فى السخاء ، وكان ينحر كل يوم جزوراً فنهاه أخوه عبد الله فلم ينته ونحر كل يوم جزورين ، وكان هو وأخوه عبد الله رضى الله عنهما إذا قدما المدينة ، أوسعهم عبد الله علماً وأوسعهم عبيد الله طعاماً . توفى عبيد الله أيام يزيد بن معاوية ، وكان موته بالمدينة .

(٤) قيس بن سعد الذى ولاه علىّ مصر هو أنصارى خزرجى . كان من فضلاء الصحابة وأحد دهاة العرب وكرمائهم ، وكان من ذوى الرأى

الصائب ، والمكيدة فى الحرب مع النجدة والشجاعة ، وكان شريف قومه ، ومن بيت سيادتهم ، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولجوده أخبار طويلة . توفى سنة ٥٩ هـ .

(٥) سهل بن حنيف هو أنصارى أوسى . شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبت يوم أحد ، وكان بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على الموت ، وكان يرمى بالنبل عن رسول الله ، وكان رجلاً حسن الجسم . توفى بالكوفة سنة ٣٨ هـ .

طاعة أهل الكوفة :

كتب أبو موسى إلى علىّ رضى الله عنه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم وبيّن الكاره منهم للذى كان والراضى بالذى قد كان ومَن بين ذلك حتى كان علىٌّ على المواجهة من أمر الكوفة ، وكان رسول علىّ إلى أبى موسى معبد الأسلمىّ .

انتقاض معاوية بالشام :

أرسل أمير المؤمنين إلى معاوية سَبْرة الجُهنىّ فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشىء ولم يجبه وردّ رسوله وجعل كلما تنجّز جوابه لم يزد على قوله .

أُدِم إدامة حصن أو خذا بيدى ... حرباً ضروساً تشب الجزل والضّرَما
فى جاركم وابنكُمْ إذ كان مقتله ... شنعاء شيَّبت الأصداغ واللمما
أعيي المسوّد بها والسيدون فلم ... يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

لم يزد معاوية شيئاً على قوله هذا حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل

عثمان فى صفر ، دعا معاوية برجل من بنى عبس ثم أحد بنى رواحة يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً (صحيفة) مختوماً . عنوانه « من معاوية إلى علىّ » وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول ، وصرف رسول علىّ وخرجا، فقدما المدينة فى ربيع الأول لغُرته . فلما دخلا المدينة رفع العبسىّ الطومار كما أمره ، وخرج الناس ينظرون إليه. فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية « معترض » ومضى حتى دخل على علىّ فدفع إليه الطومار ففض خاتمه فلم يجد فيه كتابة . فقال للرسول : ما وراءك ؟ قال آمن أنا ؟ قال نعم إن الرسل أَمَنَة لا تُقتل . قال ورائى أنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقَوَد (القصاص) . قال ممن ؟ قال من خيط نفسك . وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق . فقال منى يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتوراً كترة عثمان ؟ اللهم إنى أربأ إليك من دم عثمان . نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد أمراً أصابه . اخرج . قال وأنا آمن . قال وأنت آمن . فخرج العبسى وصاحت السبائية وقالوا : هذا الكلب . هذا وافد الكلام اقتلوه . فنادى يا آل مضر يا آل قيس الخيلَ والنبلَ إنى أحلف بالله جلّ اسمه ليردنّها عليكم أربعة آلاف خَصىّ . فانظروا كم الفحولة والركاب . وتعاوَوا عليه ومنعته مضر وجعلوا يقولون له اسكت فيقول لا والله لا يُفلح هؤلاء أبداً ، فلقد أتاهم ما يوعدون فيقولون له اسكت فيقول لقد حلّ بهم ما يحذرون . انتهت والله أعمالهم ، وذهبت ريحهم . فوالله ما أمسوا حتى عُرف الذُّلُّ فيهم .

رأى على فى انتقاض معاوية :

أراد أهل المدينة أن يقفوا على رأى علىّ رضى الله عنه فى انتقاض معاوية وكان الحسن أشار إلى أبيه بأن لا يحارب معاوية . فحادث الناس زياد ابن حنظلة التميمى ليدخل على علىّ وكان يجتمع به فدخل عليه فقال له علىّ : زياد تيسر . فقال لأىّ شىء ؟ فقال : تغزو الشام . فقال زياد : الأناة والرفق أمثل وقال :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسِمِ

فتمثل علىٌّ وكأنه لا يريده :

متى تجمع القلب الذكىّ وصارماً وأنفاً حَمِيّاً تجتنبك المظالم

وزياد هذا هو الذى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيس ابن عاصم والزبرقان ليتعاونا على مسيلمة وطليحة والأسود وقد عمل لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

خرج زياد على الناس فإذا هم ينتظرون . فقالوا ما وراءك ؟ فقال السيف ياقوم . فعرفوا ما هو فاعلٌ ، ودعا علىٌّ ابنه محمد بن الحنفية ، فدفع إليه اللواء وولى عبد الله بن عباس ميمنته ، وعمر بن أبى سَلِمة أو عمرو بن سفيان ابن عبد الأسد ولاه ميسرته ، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجراح (ابن أخى أبى عبيدة الجراح) فجعله على مقدمته ، واستخلف على المدينة قُثَم بن عباس ، ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً ، وكتب إلى قيس بن سعد أن يندب الناس إلى الشام وإلى عثمان بن حنيف وإلى أبى موسى مثل ذلك ، وأقبل على التهيؤ ، والتجهز ، ودعا أهل المدينة إلى قتالهم .

خطبة على يحث على قتال معاوية :

خطب عليّ رضى الله عنه يحث أهل المدينة على جيش معاوية فقال :
« إن الله عز وجل بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق ، وأمر قائم واضح لا يهلك عنه إلا هالك ، وإن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله . وإن فى سلطان الله عصمة أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ، ولا مستنكرة بها . والله لتفعلن أو لينقلنّ الله عنكم سلطان الإسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرِز الأمرُ إليها . انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم لعلّ الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذى عليكم»

طلحة والزبير وعائشة

خروجهم على أمير المؤمنين

وفى أثناء تجهز أمير المؤمنين لمحاربة معاوية بلغه الخبر عن مكة بخروج طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم على أمير المؤمنين وكان طلحة والزبير استأذناه فى العمرة فأذن لهما ، وروى أنه قال لهما « والله ما تريدان العمرة، وإنما تريدان الغدرة » وخوّفهما بالله من التسرع إلى الفتنة . واعترض بعضهم على أنه ترك طلحة والزبير حتى خرجا إلى مكة وأذن لهما فى العمرة ؛ فانضما إلى عائشة وأثارا الفتنة وكان الرأى أن يحبسهما . وأجيب بأنه ما كان يجوز له فى أن يحبسهما ولا فى السياسة . أما فى الشرع فلإنه محظور أن يعاقب الإنسان بما لايفعل وعلى ما يظن منه ويجوز أن لايقع وأما فى السياسة فلأنه لو أظهر التهمة لهما وهما من أفاضل السابقين وجلة المهاجرين لكان فى ذلك من التنفير عنه ما لايخفى ومن الطعن عليه ما هو معلوم بأن يقال ليس من إمامته على ثقة فلذلك يتهم الرؤساء .

فلما بلغ عليًا خبر خروج عائشة وطلحة والزبير خطب الناس وقال :

« إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة ، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوزَ والنجاة . فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل ألا وإن طلحة ، والزبير ، وعائشة قد تمالئوا على سَخَط إمارتى ودعوا الناس إلى

الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا وأقتصر على ما بلغنى عنهم » .

وقد كانت عائشة رضى الله عنها خرجت إلى مكة معتمرة قبل أن يقتل عثمان رضى الله عنه بعشرين يوماً ، ولما خرج ابن عباس على الحج كما أمره عثمان ليتلو على أهل مكة كتابه رضى الله عنه، مر بعائشة فى الصُّلصُل (بنواحى المدينة على سبعة أميال منها) فقالت يابن عباس أنشدُك الله فإنك قد أُعطيت لساناً إزعيلاً (نشيطاً) أن تخذل عن هذا الرجل (تعنى عثمان) وأن تشكك فيه الناس ، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورُفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يَل (الخلافة بعد عثمان) يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه . فقال لها ابن عباس رضى الله عنه : يا أمَّهْ ! لو حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا (يعنى لو قتل عثمان لبايع الناس علياً) فقالت : إيهاً عنك ! إنى لست أُريد مكابرتك ولا مجادلتك .

فقد كانت عائشة رضى الله عنها تريد أن يخذل ابن عباس عن عثمان . وتود أن يلى الخلافة طلحة الذى كان شديداً على عثمان فتعود الخلافة تيمية كما كانت ، وتكره أن يلى الخلافة علىّ . لكنها لما علمت أن الناس سيبايعونه إذا قُتل عثمان خرجت إلى مكة ، ولما خرجت من مكة تريد المدينة لقيها بسرف رجل من أخوالها من بنى ليث يقال له عبيد بن أبى سلمة فقالت له :

مَهْيَمْ[1] ؟ قال : قُتل عثمان وبقوا ثمانية . قالت ثم صنعوا ماذا ؟ قال اجتمعوا على بيعة عليّ . فقالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك (أى ليت السماء انطبقت على الأرض) ردونى ! ردونى ! فانصرفت إلى مكة وهى تقول : « قُتل والله عثمان مظلوماً . والله لأطلبن بدمه » فقال لها : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنتِ . ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا (عثمان) فقد كفر ، وفى رواية (فقد فجر) . قالت إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولى الأخير خيرٌ من قولى الأول . فقال لها ابن أم كلاب (وهو عبيد بن أبى سلمة) :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تُدْرَاءٍ يزيل الشَّبا ويقيم الصَّعَر
ويلبس للحرب أثوابها وما مَنْ وَفَى مثلُ من قد غدر

ثم انصرفت إلى مكة فقصدت الحِجر فستَّرت فيه فاجتمع الناس حولها .

---

(١) مهيم كلمة استفهام بلغة أهل اليمن . أى ماشأنك أو ما وراءك ؟

خطبة عائشة فى أهل مكة :

خطبت عائشة رضى الله عنها فقالت :

« أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سِنّه ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الِحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها . فلما لم يجدوا حجة ، ولا عذراً بادوا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً ، لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه،والثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء »

استعداد عائشة لمحاربة أمير المؤمنين :

بعد أن خطبت عائشة رضى الله عنها بمكة ، قال عبد الله بن عامر الحضرمى وكان عامل عثمان على مكة : ها أنا أوّل طالب ، فكان أوّل مجيب ، وتبعه بنو أمية على ذلك ، وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان إلى مكة ، ورفعوا رءوسهم . وكان أول ما تكلموا بالحجاز ، وتبعهم سعيد بن العاص ، والوليد ابن عقبة ، وسائر بنى أمية ، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ، وقدم عليهم يعلى بن أمية،وهو ابن منية من اليمن ، وكان عاملاً لعثمان ومعه ستمائة بعير ، وستمائة ألف درهم ، فأناخ بالأبطح،وقدم طلحة والزبير من

المدينة فلقيا عائشة . فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا : إنا تحملنا هُرَّاباً من المدينة من غوغاء ، وأعراب ، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ، ولا يمنعون أنفسهم . انهضوا إلى هذه الغوغاء . وقال طلحة والزبير لعائشة : إن أطعتنا طلبنا بدم عثمان . قالت: وممن تطلبون دمه ؟ قالا: إنهم قوم معروفون وإنهم بطانة عليّ، ورؤساء أصحابه. فقالوا: نأتى الشام. فقال ابن عامر: قد كفاكم الشام معاوية ، فأتوا البصرة فإن لى فيها صنائع، ولهم فى طلحة هوى . قالوا : قبحك الله ، فوالله ما كنت بالمسالم ، ولا بالمحارب . فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكفى بك ، ثم تأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟ فلم يجدوا عنده جواباً مقبولاً . فاستقام الرأى على البصرة ، وقالوا لها : نترك المدينة ، فإنا خرجنا فكان معنا من لا يطيق من بها من الغوغاء ، ونأتى بلداً مضيعاً وسيحتجون علينا ببيعة عليّ فتنهضنهم كما أنهضت أهل مكة . فإن أصلح اللهُ الأمرَ ، كان الذى أردناه ، وإلا دفعنا بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد، فأجابتهم إلى ذلك .

طلحة والزبير يطالبان عظماء البصرة :

قبل أن تسير عائشة رضى الله عنها إلى البصرة ، قال الزبير لعبد الله ابن عامر : مَن رجال البصرة ؟ قال : ثلاثة كلهم سيد مطاع ، كعب بن سور فى اليمن . والمنذر بن ربيعة فى ربيعة . والأحنف بن قيس فى البصرة .

فكتب طلحة والزبير إلى كعب بن سور :

« أما بعد،فإنك قاضى عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة ، وسيد أهل اليمن ، وقد كنتَ غضبت لعثمان من الأذى . فاغضب له من القتل والسلام »

وكتبا إلى الأحنف بن قيس :

« أما بعد ، فإنك وافد عمر ، وسيد مضر ، وحليم أهل العراق ، وقد بلغك مصاب عثمان ، ونحن قادمون عليك ، والعيان أشفى لك من الخبر، والسلام »

وكتبا إلى المنذر بن ربيعة :

« أما بعد ، فإن أباك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيداً فى الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق ، يقال كَاد أو لحق،وقدقتل عثمانَ من أنت خيرمنه ، وغضب له من هو خير منك،والسلام »

ثلاثة كتب مختصرة تدعوهم إلى الانضمام إلى طلحة والزبير. فلما وصلت كتبهما ، قام زياد بن مضر ، والنعمان بن شوال وعزوان ، فقالوا : ما لنا ولهذا الحىّ من قريش ؟ أيريدون أن يُخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه ، ويُدخلونا فى الشرك بعد أن خرجنا منه ؟ قتلوا عثمان وبايعوا عليًّا . لهم مالهم وعليهم ما عليهم .

الرد على الكتب :

كتب كعب بن سور إلى طلحة والزبير :

« أما بعد ، فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان ، فجاء أمر الغير

فيه بالسيف . فإن يك عثمان قُتل ظالماً فما لكما وله . وإن كان قُتل مظلوماً فغيركما أولى به . وإن كان أمره أشكل على من شهده ، فهو على من غاب عنه أشكل »

وكتب الأحنف إليهما :

« أما بعد، فإنه لم يأتنا من قِبَلكم أمر لانشك فيه إلا قتل عثمان ، وأنتم قادمون علينا . فإن يكن فى العيان فضل نظرنا فيه ونظرتم ، وإلا يكن فيه فضل فليس فى أيدينا ولا فى أيديكم ثقة، والسلام»

وكتب المنذر :

« أما بعد. فإنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس ، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه ، فمتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأى ؟ »

فلما قرآ كتب القوم ساءهما ذلك وغضبا .

دعوة ابن عمر الى الانضمام الى عائشة :

ثم كلم طلحةُ ابنَ عمر فقال :

« يا أبا عبد الرحمن إنه والله لَرُبَّ حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضينا بالحق، وأخذنا بالحظ . إن علياً يرى إنفاذ بيعته، وإن معاوية لايرى أن يبايع له ، وإنا نرى أن نردها شورى . فإن سرت معنا ، ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهى الهلكة »

فقال ابن عمر :

« إن يكن قولكما حقاً ففضلاً ضيعت، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت، واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما بالمدينة خير لكما من البصرة ، والذلّ خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليًّا إلا من كان خيراً منه، وأما الشورى فقد والله كانت فقدّم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها . فاكفيانى أنفسكما » فانصرف طلحة والزبير ، وكان الذى أشار عليهما بالكتابة إلى عظماء البصرة ودعوة ابن عمر هو مروان . فلما رفض ابن عمر قال مروان لهما استعينا عليه بحفصة . فأتينا حفصة فقالت لو أطاعنى أطاع عائشة . دعاه فاتركاه .

مسير عائشة إلى البصرة :

لما عوّلت عائشة رضى الله عنها على المسير إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان بناء على ما استقر عليه رأيهم ، دعوا عبد الله بن عمر ليسير معهم فأبى وقال : أنا فى أهل المدينة أفعل مايفعلون . فتركوه .

وكان أزواج رسول الله معها على قصد المدينة ، فلما تغير رأيها إلى البصرة تركْنَ ذلك ، وأجابتهم حفصة إلى المسير معهم، فمنعها أخوها - عبد الله ابن عمر - وجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة وألف درهم ، وجهزهم ابن عامر بمال كثير ، ونادى منادى عائشة أن أم المؤمنين، وطلحة ، والزبير شاخصون إلى البصرة . فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المُحِلِّين ، والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز ، فليأت . فحملوا ستمائة على ستمائة بعير ،

وساروا فى [illegible] وقيل فى [illegible] من أهل المدينة ومكة وخفهم الناس فكانوا فى ٣٠٠٠ رجل . وانحدار عائشة رضى الله عنها ومسيرها إلى البصرة للمطالبة بثأر عثمان ، ومعها من انضم إليها وطلحه والزبير لنرى الحالة بالمدينة .

الحالة بالمدينة وخروج علىّ منها :

بينما علىّ رضى الله عنه يستعد لقتال معاوية ، ويدعو أهل المدينة لقتال أهل الفرقة ، بلغه خبر خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان. فقال : إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم فى المُقام فينا مئونة ولا إكراه ، فاشتد الأمر على أهل المدينة فتثاقلوا . فبعث إلى عبد الله بن عمر كميلاً النَّخَعىَّ (وقيل بعث عماراً) فجاء به . فقال انهض معى . فقال: أنا مع أهل المدينة . إنما أنا رجل منهم ، وقد دخلوا فى هذا الأمر فدخلتُ معهم لا أفارقهم . فإن يخرجوا أخرج ، وإن يقعدوا أقعد . قال:فاعطنى زعيماً بألاّ تخرج.قال:ولاأعطيك زعيما(كفيلاً).قال:لولاماأعرف من سوء خُلقك صغيراً وكبيراً لأنكرتنى. دعوه فأنا به زعيم. فرجع عبد الله ابن عمر إلى المدينة ، وهم يقولون : لاوالله ما ندرى كيف نصنع ؟ فإن هذا الأمر لمشتبه علينا ، ونحن مقيمون حتى يُضىء لنا ويُسفر. فخرج من ليلته ، وأخبر أمّ كلثوم بنت علىّ بالذى سمع من أهل المدينة ، وإنه يخرج معتمراً مُقيما على طاعة علىّ ما خلا النهوض ، وكان صدوقاً فاستقر عندها . وأصبح علىّ فقيل له ، حدث البارحة حدث هو أشد عليك من طلحة والزبير ، وأمّ المؤمنين ومعاوية . قال: وما ذلك ؟ قال: خرج ابن عمر إلى الشام . فأتى

علىٌّ السوق ودعا بالظَّهْر (الدابة) ، فحمل الرجال ، وأعدّ لكل طريق طلاباً ، وماج أهل المدينة ، وسمعت أم كلثوم بالذى هو فيه . فدعت ببغلتها فركبتها فى رحل ثم أتت عليًا وهو واقف فى السوق يفرّق الرجال فى طلبه. فقالت : ما لك ؟ لا تَزَنَّدْ من هذا الرجل، إن هذا الأمر على خلاف مابُلِّغْتَه ، وحُدِّثْتَه . قالت : أنا ضامنة له . فطابت نفسه .

وأتى عمارُ بن ياسر وكلم محمد بن مسلمة الأنصارى ، وسعد بن أبى وقاص ليخرجا مع علىّ فأبيا إلا الاعتزال كما أبى ابن عمر . فقال علىّ لعمار : دع هؤلاء الرهط . أما ابن عمر فضعيف ، وأما سعد فحسود ، وذنبى إلى محمد ابن مسلمة . إنى قتلت أخاه يوم خيبر ، مرحب اليهودى .

ولما رأى علىّ من أهل المدينة ما لم يرض طاعتهم حتى يكون معها نصرته ، قام فيهم وجمع إليه وجوه أهل المدينة وقال :

« إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلُح أوله . فقد رأيتم عواقب قضاء الله عز وجل على من مضى . فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم » .

فأجابه رجلان من أعلام الأنصار (١) أبو الهيثم بن التيِّهان (٢) وخزيمة ابن ثابت، وليس بذى الشهادتين؛ فإن ذا الشهادتين مات فى زمن عثمان بن عفان. وعن الشعبىّ قال : بالله الذى لا إله إلا هو ما نهض فى تلك الفتنة إلا ستة بدريّين ما لهم سابع ، أو سبعة مالهم ثامن ، وقال لعلىّ رضى الله عنه زياد بن حنظلة لما رأى تثاقل الناس عنه : من تثاقل عنك فإنا نخف معك ،

و نقاتل دونك . والسبب فى تثاقل الناس عن النهوض مع علىّ رضى الله عنه أنهم علموا بانتقاض معاوية ومعه أهل الشام وقد تجهز لهم علىّ ، ثم سمعوا بخروج عائشة ومعها طلحة والزبير للمطالبة بدم عثمان فهالهم الأمر ، وقال أبو قتادة لعلىّ : يا أمير المؤمنين ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلدنى هذا السيف،وقد شمتُه(أغمدته)فطال شيمه، وقد أنَى(حان) تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشاً فإن أحببت أن تقدمنى فقدمنى ، وقامت أمّ سلمة (زوج النبى صلى الله عليه وسلم) فقالت : ياأمير المؤمنين ! لولا أن أعصى الله عز وجل ، وإنك لا تقبله منى لخرجت معك . وهذا ابنى عمر والله لهو أعز علىّ من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك ، فخرج معه فلم يزل معه ، واستعمله على البحرين ثم عزله ، واستعمل النعمان بن عجلان الزُّرقى.

ولما بلغ علياً سير جيش عائشة إلى البصرة سار حتى نزل بذى قار[1] وكان مسيره إليها ثمانى ليال ، ومعه جماعة من أهل المدينة .

اختلاف رأى أصحاب عائشة فيمن يصلى بالناس ومن يولون الأمر :

لما خرجت عائشة ومن معها من مكة ، أذّن مروان بن الحكم ، ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير فقال على أيكما أسلّم بالإمرة وأوذن بالصلاة ؟ فقال عبيد الله بن الزبير : على أبى عبدالله ـ يعنى أباه الزبير ـ وقال محمدبن طلحة: على أبى محمد ـ يعنى أباه طلحة ـ فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت له : أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصلّ بالناس ابنُ أختى ـ تعنى عبد الله بن الزبير ـ وقيل

---

(١) ذو قار ، ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط .

بن صلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد حتى قتل . فكا معاذ بن عبيد يقول : والله لو ظفرنا لاقتتلنا . ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ، ولا كان طلحه يترك الزبير والأمر ، وعلى ذلك كان طلحة والزبير يتنازعان الأمر .

تبع عائشةَ رضى الله عنها أمهاتُ المؤمنين إلى ذات عِرق[1] فبكوا على الإسلام فلم يُرَ يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم ، فكان يسمى (يوم النحيب) . فلما بلغوا ذات عِرْق لقى سعيدُ بن العاص مروانَ بن الحكم وأصحابه بها . فقال : أين تذهبون وتتركون ثأركم على أعجاز الإبل وراءكم ؟ (يعنى عائشة وطلحة والزبير) فقال : إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟أصدقانى ، قالا نجعله لأحدنا : أيّنا اختاره الناس . قال بل تجعلونه لولد عثمان ، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه . فقالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام ؟ ! قال : فلا أرانى أسعى إلا لإخراجها من بنى عبد مناف ، فرجع ورجع عبد الله ابن خالد بن أسيد . وقال المغيرة بن شعبة: الرأى ماقال سعيد،من كان ههنا من ثقيف فليرجع ، فرجع

معلوم أن عائشة ومن معها خرجوا للمطالبة بدم عثمان لكنهم قبل أن يشتبكوا مع علىّ فى قتال ، وقبل أن يعرفوا على من تكون الدبرة اختلفوا فيمن يتولى الخلافة فيما إذا انتصروا،أو هزم علىّ رضى الله عنه . هذا وعائشة تندب الإسلام وتَبكى وتُبكى حتى علا النحيب

---

(١) ذات عرق : ميقات أهل العراق ، وهو الحدّ بين نجد وتهامة .

جمل عائشة رضي الله عنها :

مضى القوم قاصدين البصرة ، ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان . وأعطى يعلى بن منية عائشةَ جملا اسمه (عسكر) اشتراه بثمانين ديناراً فركبته .

وقيل بل كان جملها لرجل من عرينة . قال العرنى: بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لى راكب،فقال:أتبيع جملك ؟ قلت: نعم . قال: بكم ؟ قلت: بألف درهم قال:أمجنون أنت ؟ قلت:ولم؟والله ما طلبت عليه أحداً إلاأدركته . ولا طلبنى وأنا عليه أحد إلا فتُّه .قال : لو تعلم لمن نريده ؟ لأم المؤمنين عائشة . فقلت: خذه بغير ثمن . قال : بل ترجع معنا إلى الرحل فنعطيك ناقة ودراهم . قال فرجعت معه فأعطونى ناقة مهرية ،و ٤٠٠ درهم . وقالوا لى: ياأخا عرينة ! هل لك دلالة بالطريق ؟ قلت:أنا من أدلّ الناس . قالوا:فسر معنا . فسرت معهم فلا أمرّ على واد إلاسألونى عنه حتى طرقنا الحوأب، وهو ماء .

كلاب الحوأب :

ولما كانوا بالحوأب نبح كلابه . فقالوا : أى ماء هذا ؟ فقال دليلهم : هذا ماء الحوأب . فصرخت عائشة بأعلى صوتها . وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه . ليت شعرى أيتكنّ تنبحها كلاب الحوأب ؟ ثم ضربت عضد بعيرهافأناخته وقالت:ردونى،والله أنا صاحبة ماء الحوأب ، فأناخوا حولها يوماً وليلة . فقال لها عبد الله بن الزبير : إنه كذب ، ولم يزل بها وهى تمتنع ،فقال لها النجاءَ ! النجاء ! فقد أدرككم علىّ بن أبى طالب .

الوصول الى البصرة :

ارتحل جيش عائشة رضى الله عنها حتى بلغوا البصرة فكتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة ، ومكثت تنتظر الجواب بالحفير ، ولما بلغ ذلك أهلَ البصرة دعا عثمانُ بن حنيف عمرانَ بن حصين وأبا الأسود الدؤلى ليسألا عائشة عن مسيرها،فقدماعليهاوسألاهافقال : إن الغوغاء ونُزَّاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه وآووا المحدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا تِرَة ولا عذر . فاستحلوا الدم الحرام ، وسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام . وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام . فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء ، وما الناس فيه وراءنا . وما ينبغى لهم من إصلاح هذه القصة ، وقرأت (لاخير فى كثير من نجواهم) الآية،فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ، ومنكر ننهاكم عنه . فخرج عمران وأبو الأسود من عندها فأتيا طلحة ، وقالا:ماأقدمك ؟ فقال:الطلب بدم عثمان . فقالا : ألم تبايع عليًّا ؟ فقال : بلى والسيف على عنقى،وقال الزبير مثل ذلك .

اختلاف أهل البصرة بشأن عائشة :

عاد عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلى إلى عثمان بن حنيف وأخبراه بما سمعا من عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم . وكان عثمان قد ولاه علىّ البصرة،فاستشار عمران فقال له : اعتزل فإنى قاعد . قال عثمان . بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين ، وانصرف عمران إلى بيته ، وقام عثمان فى أمره .

فأتاه هشام بن عامر فقال : إن هذا الأمر الذى تريده يسلم إلى شر مما تكره، إن هذا فتق لا يرتق،وصدع لا يجبر . فارفق بهم وسامحهم حتى يأتى أمر علىّ فأبى ونادى عثمان فى الناس ، وأمرهم بلبس السلاح . فاجتمعوا إلى المسجد ، وأمرهم بالتجهز ، وأمر رجلا اسمه قيس بن العَقديه الحميسى أن يندس ليرى رأى الناس فقال : أيها الناس أنا قيس بن العقدية الحميسى ، إن هؤلاء القوم إن كانوا جاءوا خائفين فقد أتوا من بلد يأمن فيه الطير ، وإن جاءوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان فأطيعونى ، وردوهم من حيث جاءوا . فقام الأسود بن سريع السعدى فقال : أوَ زعموا أنَّا قتلة عثمان ؟ إنما أتوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا . فحصبه الناس (رجموه بالحصباء) فعرف عثمان أن لأصحاب عائشة بالبصرة ناصراً فكسره ذلك ، فأقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المِرْبَد (محبس الإبل) فدخلوا من أعلاه ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه.وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها (وعلى ذلك كان قسم من أهل البصرة مع عائشة ، وقسم مع عثمان ابن حنيف ، والى البصرة من قبل علىّ رضى الله عنه) فاجتمع القوم بالمربد فتكلم طلحة وهو فى ميمنة المربد ، وعثمان بن حنيف فى ميسرته . فأنصتوا له، فحمِدَالله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله ، وما استحل منه ودعا إلى الطلب بدمه وحثهم عليه . وكذلك الزبير . فقال من فى ميمنة المربد : صدقاً وبراً . وقال من فى ميسرته : فجرا وغدرا وأمراً بالباطل،فقد بايعا علياً ثم جاءا يقولان . وعند ذلك تحاصب الفريقان وأثاروا الغبار .

ثم تكلمت عائشة رضى الله عنها ، وكانت جهورية الصوت . فحمدت الله وقالت :

« كان الناس يتجنون على عثمان ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبرون عنهم فننظر فى ذلك فنجده بريئاً تقياً وفياً ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، وهم يحاولون غير مايظهرون . فلما قووا ، كاثروه واقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا غدر . الا إن مما ينبغى لاينبغى لكم غيره . أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله ، وقرأت ، (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله) الآية .

ولما سمع أصحاب عثمان خطبة عائشة افترقوا فرقتين . فرقة قالت : صدقت وبرّت . وقال الآخرون : كذبتم والله مانعرف ماجئتم به . فتحاثوا وتحاصبوا . فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان بن حنيف حتى وقفوا فى المربد مع موضع الدباغين ، وبقى أصحاب عثمان على حالهم ، ومال بعضهم إلى عائشة ، وبقى بعضهم مع عثمان .

الاعتراض على خروج عائشة رضى الله عنها :

أقبل جارية بن قدامة السعدى وقال :

« يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . إنه قد كان لك من الله ستر ، وحرمة فهتكتِ سترك ، وأبحت حرمتك ، إنه من رأى قتالك يرى قتلك ، لئن

كنتِ أتيتِنا طائعة فارجعى إلى منزلكِ ، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعينى بالناس » .

الاعتراض على طلحة والزبير :

وخرج شاب من بنى سعد (لا أدرى ما اسمه) إلى طلحة والزبير فقال : أما أنت يازبير فحوارىُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما أنت ياطلحة فوقيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بيدك وأرى أمَّكما (عائشة) معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟ قالا: لا . قال: فما أنا منكما فى شيء ، واعتزل . وقال السعدى فى ذلك :

صُنتم حلائلكم وقُدتم أمكم   هــذا لعمرك قلة الإنصاف
أُمِرتْ بجر ذيولها فى بيتها   فهوتْ تشق البيد بالإيجاف
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها   بالنَّبل والخَطِّىِّ والأسياف
هُتكتْ بطلحة والزبير ستورُها   هـذا المخبَّرُ عنهم والكافى

السؤال عن قتلة عثمان :

وأقبل غلام من جُهينة على محمد بن طلحة ، وكان محمد رجلا عابداً . فقال أخبرنى عن قتلة عثمان رضى الله عنه ، فقال :

« نعم ، دم عثمان ثلاثة أثلاث : ثلث على صاحبة الهودج (يعنى عائشة) ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعنى طلحة) ، وثلث على علىّ بن أبى طالب »

فضحك الغلام وقال : ألا أرانى على ضلال ! ولحق بعلىّ وقال فى ذلك شعراً :

سألت ابن طلحة عن هالك ... بجوف المدينة لم يُقبر
فقال ثلاثة رهط هُمُ ... أماتوا ابن عفان واستعبرِ
فثُلث على تلك فى خدرها ... وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبى طالب ... ونحن بدوية قرقر
فقلت : صدقت على الأولين ... وأخطأت فى الثالث الأزهر

بدء موقعة الجمل :

خرج أبو الأسود وعمران وأقبل حُكيم بن جَبَلة ، وقد خرج وهو على الخيل فأنشب القتال ، وأشرع أصحاب عائشة رضى الله عنها رماحهم وهاجمهم حُكيم بخيله وأصحاب عائشة كافون إلا مادافعوا عن أنفسهم . فأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن فوقفوا بها مليًّا ، وثار إليهم الناس فحال الليل بينهم ، وعاد عثمان إلى القصر ، وعاد الناس إلى قبائلهم . وجاء أبو الجرباء ، أحد بنى عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم ، إلى عائشة وطلحة والزبير ، فأشار عليهم بأمثل من مكانهم فتابعوا رأيه وساروا من مقبرة بنى مازن فأخذوا على مُسَنّاة البصرة من قبل الجبانة حتى انتهوا إلى الزابوقة (موضع قريب من البصرة) ، ثم أتوا مقبرة بنى حصن ، وهى متنحية إلى دار الرزق ، فباتوا يتأهبون ، وبات الناس يسيرون إليهم وأصبحوا وهم على رِجْل فى ساحة دار الرزق ، وأصبح عثمان بن حنيف فغداهم وغدا

حُكيم بن جَبَلة وهو يبربر (يتفوّه بكلام غير مفهوم) وفى يده الرمح . فقال له رجل من عبد القيس . مَن هذا الذى تسب وتقول له ما أسمع ؟ قال: عائشة. قال: يا ابن الخبيثة ! ألِأُمِّ المؤمنين تقول هذا ؟ فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله ، والظاهر أن هذا كان أول قتيل . ثم مرّ حكيم بامرأة ، وهو يسب عائشة . فقالت : من هذا الذى ألجأك إلى هذا ؟ قال : عائشة . قالت : يا ابن الخبيثة ! ألِأُم المؤمنين تقول هذا ؟ فطعنها بين ثدييها فقتلها .

ثم اقتتلوا بدار الرزق قتالا شديداً من الصباح إلى الغروب ، وقد كثر القتلى والجرحى فى الفريقين ، فنادى أصحابُ عائشة بالكف عن القتال ، فأبى أصحاب عثمان ، فلما اشتد القتال نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح فأجابوهم ، وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة حتى يرجع الرسول من المدينة، فإن كانا أُكرها على البيعة خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة ، وإن لم يكونا أُكرها خرج طلحة والزبير،وهذاهو نص الكتاب :

« هذا مااصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما فى يده ، وأن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعب بن سُور من المدينة، ولا يضارّ واحد من الفريقين الآخر فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا

فُرضة. بينهم عَيبة مفتوحة (موادعة) حتى يرجع كعب بالخبر، فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير ، فالأمر أمرهما ، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطِيَّته (بمنزله)، وإن شاء دخل معهما ، وإن رجع بأنهما لم يكرها، فالأمر أمر عثمان فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليّ ، وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما ، والمؤمنون أعوان الفالج منهما »

خروج كعب بن سور[1] إلى المدينة :

خرج كعب حتى قدم المدينة ، فاجتمع الناس لقدومه ، وكان قدومه يوم جمعة ، فقام كعب فقال :

« ياأهل المدينة إنى رسول أهل البصرة إليكم . أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة عليّ أم أتياها طائعين ؟ »

فلم يجبه أحد من القوم ، إلا ما كان من أُسامة بن زيد فإنه قام وقال :

« اللهم إنهم لم يبايعا ، إلا وهما كارهان »

فأمر به تمام فواثبه سهل بن حنيف أخو عثمان والناس ، وثار صُهيب ابن سِنان وأبو أيّوب بن زيد فى عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم محمد بن مسلمة حين خافوا أن يُقتل أسامة . فقال : اللّهم نعم فانفرِجوا عن الرجل ، فانفرجوا عنه ، وأخذ صُهيب بيده حتى أخرجه فأدخله منزله . وقال قد علمت أن أم عامر حامقة . أما وسعك ما وسعنا من السكوت ؟ قال: لا والله ما كنتُ أرى أن الأمر يترامى إلى مارأيتُ . فرجع كعب وبلغ

(١) كان كعب على قضاء البصرة وأبى أن ينضم إلى عائشة فأتته فى منزله فأجابها وقال « أكره ألا أجيب أمى » .

عليًّا الخبر ، فكتب إلى عثمان يعجزّه ويقول : والله ما أُكرها إلا كرهاً على فُرقة ، ولقد أُكرها على جماعة وفضل . فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا .

ما حدث لعثمان بن حنيف بعد قدوم كعب :

قدم الكتاب على عثمان بن حنيف ، وقدم كعب . فأرسلوا إلى عثمان أن اخرج عنا ، فاحتج عثمان بالكتاب ، وقال هذا أمرٌ آخر غير ما كنا فيه

فجمع طلحة والزبير الرجال فى ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ، ثم قصدا المسجد ، فوافقا صلاة العشاء ، وكانوا يؤخرونها ، فأبطأ عثمان ابن حنيف ، فقدّما عبد الرحمن بن عَتَّاب ، ثم اقتتلوا فى المسجد ، وأخرجوا عثمان ، ونتفوا شعره . فلما بلغ عائشة الخبر أمرت بإخلاء سبيله .

وعن سهل بن سعد قال : لما أخذوا عثمان بن حنيف أرسلوا أبان ابن عثمان إلى عائشة يستشيرونها فى أمره ، قالت : اقتلوه . فقالت امراة : نشدتك الله يا أم المؤمنين فى عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : ردوا أباناً . فقالت : احبسوه . ولا تقتلوه . قال : لو علمتُ أنك تدعينى لهذا الأمر لم أرجع . فقال لهم مجاشع بن مسعود : اضربوه ، وانتفوا شعر لحيته . فضربوه أربعين سوطاً ، ونتفوا شعر لحيته ، ورأسه ، وحاجبيه وأشفار عينيه ، وحبسوه ، ثم أطلقوه ، وجعلوا على بيت المال عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق .

قال ابن الأثير : وقيل فى إخراج عثمان غير ماتقدم . وذلك أن عائشة وطلحة والزبير ، لما قدموا البصرة كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان :

«من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

« أما بعد : فإذا أتاك كتابى هذا فاقدم فانصرنا . فإن لم تفعل ، فخذل الناس على علىّ »

فكتب إليها : « أما بعد . فأنا ابنك الخالص إن اعتزلتِ ورجعت إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من نابذك »

وقال زيد : رحم الله أم المؤمنين أُمرتْ أن تلزم بيتها ، وأُمرنا أن نقاتل ، فتركت ما أمرت به ، وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ، ونهتنا عنه ، وكان على البصرة عند قدومها عثمان بن حنيف . فقال لهم : مانقمتم على صاحبكم ؟ فقالوا : لم نره أولى بها منا ، وقد صنع ما صنع . قال : فإن الرجل أمّرنى ، فاكتب إليه ، فاعلم ما جئتم به على أن أصلى أنا بالناس حتى يأتينا كتابه . فوقفوا عنه ، فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتى وثبوا على عثمان عند مدينة الرزق ، فظفروا به ، وأرادوا قتله ، ثم خَشَوْا غضب الأنصار (لأنه أنصارى) ، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه ، وضربوه وحبسوه .

وقام طلحة والزبير خطيبين فقالا : يا أهل البصرة توبة لحوبة (من إثم) . إنما أردنا أن نستعتب أمير المؤمنين عثمان ، فغلب السفهاء الحلماء ، فقتلوه . فقال الناس لطلحة : يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا .

فقال الزبير : هل جاءكم منى كتاب فى شأنه ؟ ثم ذكر قتل عثمان ، وأظهر عيب علىّ، ورماه بقتل عثمان .

دفاع رجل من عبد القيس عن علىّ رضى الله عنه :

بعد أن قال طلحة والزبير ما قالا ، قام رجل من عبد القيس . فقال للزبير : أنصت حتى نتكلم :

« يا معشر المهاجرين ! أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس فى الإسلام ، ولم تستأمرونا فى شىء من ذلك فجعل الله للمسلمين فى إمارته بركة . ثم مات ، واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا فى ذلك، فرضينا وسلمنا. فلما توفى جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليًّا عن غير مشورة منا . فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفىء أو عمل بغير الحق ، أو أتى شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه ، وإلا فما هذا ؟ »

فهموا بقتل ذلك الرجل فقام من دونه عشيرته ، وفى الغد وثبوا عليه وعلى مَن كان معه . فقتلوا سبعين رجلا .

حكيم بن جبلة يقاتل ثم يقتل

٢٥ ربيع الآخر سنة ٣٦

بلغ حكيم بن جبلة ماصنع بعثمان بن حنيف فقال : «لست أخاف الله إن لم أنصره ، فجاء في جماعة من عبد القيس ، ومن تبعه من ربيعة ، وتوجه نحو دار الرزق ، وبها طعام أراد عبد الله بن الزبير أن يوزعه على أصحابه . فقال له عبد الله : ما لك يا حكيم ؟ قال : نريد أن نرتزق من هذا الطعام ، وأن تخلوا عثمان ، فيقيم في دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم عليّ . وايم الله لو أجد أعواناً عليكم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم ، ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا حلال بمن قتلتم . أما تخافون الله ؟ بم تستحلون الدم الحرام؟ قال بدم عثمان . قال : فالذين قتلتم قتلوا عثمان ؟أما تخافون مقت الله ؟ »

فقال له عبد الله لانرزقكم من هذا الطعام ولانخلي سبيل عثمان . حتى تخلع علياً . فقال حكيم : اللهم إنك حكم عدل ، فاشهد ، وقال لأصحابه:لستُ في شك من قتال هؤلاء القوم . فمن كان في شك فلينصرف . وتقدم فقاتلهم فقال طلحة والزبير : الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة . اللهم لاتبق منهم أحدا .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، ومع حكيم أربعة قوّاد ، فكان حكيم بحيال

طلحة ، وذَريح بحيال الزبير ، وابن المُحَرِّش بحيال عبد الرحمن بن عتاب . وحُرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

فزحف طلحة لحكيم وهو فى ثلاثمائة ، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول :

أضربهم باليابس ضرب غلام عابس
من الحياة آيس فى الغُرُفات نافسِ

فضرب رجل رِجْله فقطعها فحبا حتى أخذها فرمى بها صاحبه فصرعه وأتاه فقتله ثم اتكأ عليه وقال :

ياساق لن تُراعى أن معى ذراعى أحمى بها كراعى

وقال :

ليس علىّ أن أموت عارُ والعار فى الناس هو الفرار
والمجد لا يفضحه الدمار

فأتى عليه رجل وهو جريح رأسه على آخر . فقال: مالك ياحُكيم ؟ قال قتلت . قال من قتلك ؟ قال وسادتى . فاحتمله فضمه فى سبعين من أصحابه فتكلم يومئذ حكيم ، وإنه لقائم على رجل وإن السيوف لتأخذهم فما يتعتع ويقول :

«إنا خلفنا هذين وقد بايعا علياً وأعطياه الطاعة ثم أقبلا مخالفين محاربين بطلبان بدم عثمان بن عفان ففرقا بيننا ونحن أهل دار وجوار . اللهم إنهما لم يريدا عثمان» .

لقد أبدى حكيم منتهى الشجاعة فى الدفاع عن علىّ رضى الله عنه ، وخاف أن يموت بجراحه قبل أن يقول كلمته ، وقد اعتبر طلحة والزبير مخالفين ومفرقين .

فنادى مناد : ياخبيث جزعت حين عضك نَـكال الله عزوجل الى كلام من نَصَبك وأصحابك بما ركبتم من الامام المظلوم وفرقتم من الجماعة . وأصبتم من الدماء ، ونلتم من الدنيا . فذق وبال الله عز وجل وانتقامه .

وحكيم بن جبلة هذا كان رجلا صالحاً فى قومه وهو الذى بعثه عثمان على السندفنزلها ، ثم قدم عليه فسأله عنها فقال «ماؤها وَشَل (قليل) ولصها بطل، وسهلها جبل ، إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا » فلم يوجه عثمان رضى الله عنه أحداً حتى قتل ، قيل قتله يزيد بن الأسحم الحرانى . قيل ليس يعرف فى جاهلية ولا إسلام رجل فعل مثل فعله .

قتلى الموقعة :

قُتل حكيم وذريح ومن معه ، وأفلت حُرقوص بن زهير فى نفر من أصحابه فلجئوا إلى قومهم ، ونادى منادى طلحة والزبير بالبصرة . ألا مَن كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنابهم ، فجىء بهم كما يجاء بالـكلاب فقتلوا ، فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعاً إلا حرقوص بن زهير ، ثم كتب طلحة والزبير إلى أهل الشام بما تمّ ، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة بما كان منهم، وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن علىّ، وحثتهم على طلب قتلة عثمان، وكتبت إلى أهل اليمامة وإلى أهل المدنية بما كان منهم وسيرت الـكتب ،

وبايع أهل البصرة طلحة والزبير ، ولما قتل حكيم أرادوا قتل عثمان بن حنيف فقال ماشئتم . أما إن سهل بن حنيف وال على المدينة ، فإن قتلتمونى انتصر فخلوا سبيله .

أبو موسى الأشعرى يحض أهل الكوفة على الكف عن القتال :

كان على رضى الله عنه وجه هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ليستنهض أهل الكوفة وأردفه بابنه الحسن وبعمار بن ياسر ، فساروا حتى دخلوا الكوفة وأبو موسى فى المسجد والناس حوله وهو يقول :

« ياأهل الكوفة ! أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب يأوى اليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . أيها الناس : ان الفتنة إذا أقبلت شبَّهت، وإذا أدبرت تبينت . وإن هذه الفتنة الباقرة [1] لايدرى من أين تأتى ولا من أين تؤتى . شيموا سيوفكم (أغمدوها) وانزعوا أسنة رماحكم ، واقطعوا أوتار قسيّكم، والزموا قعور البيوت. أيها الناس : إن النائم فى الفتنة خير من القائم. والقائم خير من الساعى » فانتهى الحسن بن علىّ وعمار إلى المسجد الأعظم ، وقد اجتمع عالم من الناس على أبى موسى وهو يقول لهم هذا وأشباهه . فقال له الحسن اخرج من مسجدنا وامض حيث شئت . ثم صعد الحسن المنبر وعمار فاستنفرا الناس . فقام حُجر بن عدى الكندى ، وكان من أفاضل أهل الكوفة فقال : انفروا خفافا وثقالاً رحمكم الله ، فأجابه الناس من كل وجه:

---

(١) فتنة باقرة ـ واسعة عظيمة . وفى الحديث « سيأتى على الناس فتنة باقرة تدع الحليم حيران» .

«سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين، نحن خارجون على اليُسْر والعُسْر، والشدة والرخاء»

ولما بلغ علياً أن أبا موسى يثبط أهل الكوفة عن القتال ولّى على أهل الكوفة قرظة بن كعب الأنصارى ، وكتب إلى أبى موسى :

« اعتزل عملنا ياابن الحائد مذموماً مدحوراً . فما هذا أول يومنا منك وإن لك فيها لهنات وهنيات ».

سير علىّ بن أبى طالب إلى البصرة

ربيع الآخر سنة ٣٦

لما أتى علياً الخبر وهو بالمدينة بأمر عائشة وطلحة والزبير : أنهم توجهوا نحو العراق خرج وهو يريد أن يدركهم ليردهم . فلما انتهى إلى الربذة أتاه عنهم أنهم ساروا فأقام بالربذة أياماً .

وروى أن الحسن بن علىّ أتى علياً بعد صلاة الصبح وهو بالربذة وقال له : « قد أمرتك فعصيتنى فتُقتل غداً بمصية لاناصر لك » فقال علىّ : إنك لا تزال تحنّ حنين الجارية ، وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ قال . أمرتك يوم أُحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج إلى المدينة فيقتل ولستَ بها . ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفودُ العرب و بيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيتَ . ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا . فإن كان الفساد ، كان على يدَىْ غيرك فعصيتنى فى ذلك كله .

فقال : أى بُنى ! أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان . فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به . وأما قولك لاتبايع حتى تأتى بيعة الامصار . فان الأمر أمر أهل المدينة . وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . وأما قولك حين خرج طلحة والزبير . فإن ذلك كان وهنا على أهل الاسلام . ووالله مازلتُ مقهوراً مذ وليتُ ، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغى . وأماقولك : أجلس فى بيتك . فكيف لى بما قد لزمنى أو من تريدنى ؟ أتريد أن أكون مثل الضبُع التى يحاط بها ويقال دَبَاب . دَبَاب . ليست هاهنا حتى يُحل عُرقوباها ثم تخرج . وإذا لم أنظر فيما لزمنى من الأمر ويعنينى ، فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك . أى بُنَىّ .

أمّر علىٌّ على المدينة تمّام بن العباس ، وبعث إلى مكة قُثَم بن العباس، وخرج وهو يرجو أن يأخذهم بالطريق ، وأراد أن يعترضهم فاستبان له بالربذة أن قد فاتوه ، وجاء بالخبر عطاء بن رئاب مولى الحارث بن حزن، وقيل خرج علىٌّ يبادرهم فى تعبئته التى كان تعبى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى ٧٠٠ رجل وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج، فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال ياأمير المؤمنين لاتخرج منها . فوالله لئن خرجت منها لاترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً . فسبوه فقال : دعوا الرجل فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وسار حتى انتهى إلى الربذة .

وكتب علىٌّ رضى الله عنه لما كان بالربذة كتاباً إلى أهل الكوفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فانى اخترتكم والنزولَ بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عزّ وجلّ ولرسوله صلى الله عليه وسلم . فمن جاءنى ونصرنى فقد أجاب الحق وقضى الله عليه » .

وأتته جماعة من طىء منهم من يريد الخروج معه ومنهم من يريد التسليم عليه فقال :

« جزى الله كلا خيراً . وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما »

ثم دخلوا عليه فقال : ماشهدتمونا به ؟ قالوا . شهدناك بكل ماتحب . قال جزاكم الله خيراً ، فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين .

خطبة سعيد بن عبيد الطائى

نهض سعيد بن عبيد الطائى فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما فى قلبه ، وإنى والله ما كل ماأجد فى قلبى يعبرعنه لسانى، وسأجهد وبالله التوفيق، أما أنا فسأنصح لك فى السر والعلانية ، وأقاتل عدوك فى كل موطن ، وأرى لك من الحق مالا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك » .

فقال علىّ :

« رحمك الله قد أدى لسانك عما يُجنّ ضميرك » .

وسرّح رضى الله عنه من الربذة إلى الكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد ابن جعفر وكتب إليهم : «إنى اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث

فكونوا لدين الله أعوانا وأنصاراً ، وأيدونا وانهضوا إلينا . فالاصلاح مانريد لتعود الأمة إخواناً ، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره . ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه »

فمضى الرجلان وبقى علىّ بالربذة يتهيأ وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمره وقام فى الناس وخطبهم .

خطبة علىّ بالربذة :

« إنّ الله عزّ وجلّ أعزّنا بالاسلام ورفعنا به وجعلنا به إخواناً بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد . فجرى الناس على ذلك ماشاء الله . الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب إمامهم حتى أصيب هذا الرجل (عثمان) بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هـذه الأمة . إلا أن هذه الأمة لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم . فنعوذ بالله من شر ماهو كائن أن يكون . ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقه تنتحلنى ولا تعمل بعملى، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم، واتبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه ، وارضوا بالله جلّ وعزّ رباً ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، وبالقرآن حكما وإماماً » .

إن علياً رضى الله عنـــه ن من فحول العلماء وخطيباً مفوّهاً ، وقد توقع افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة . وحض المسلمين على التمسك بالكتاب والسنة

بعد ذلك خرج أمير المؤمنين من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر ابن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى الميمنة عبد الله بن عباس ، وعلى الميسرة عمر بن أبى سلمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ، وخرج وهو فى ٧٦٠ .

واستأذن الأشتر أن يبعثه أمير المؤمنين إلى الكوفة لأنه يرجو أن لايخالفه أحد منهم، فقال له علىّ الحق بهم ، وكان علىّ أرسل ابنه الحسن قبل الأشتر، فجعل الأشتر لايمر بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم ويقول اتبعونى إلى القصر فانتهى إلى القصر فى جماعة من الناس فدخله وأبو موسى فى المسجد يخطبهم ويثبطهم والحسن يقول له . اعتزل عملنا لا أم لك وتنح عن منبرنا ، وعمار ينازعه . فأخرج الأشتر غلمان أبى موسى من القصر فخرجوا يعدون وينادون ياأبا موسى، قد دخل الأشتر القصر فضربنا وأخرجنا . فنزل أبو موسى فدخل القصر ، فصاح به الأشتر ، أخرج لا أم لك . أخرج الله نفسك . فقال أجلنى هذه العشية . فقال هى لك ولا تبيتن فى القصر الليلة ، ودخل الناس ينهبون متاع أبى موسى فمنعهم الأشتر . وقال . أنا له جار فكفوا عنه . وقيل إن عدد من سار من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل . وأقبلت القبائل على علىّ بذى قار فلقيهم فى ناس معهم فيهم ابن عباس فرحب بهم وقال :

خطبة على فى أهل الكوفة :

« يا أهل الكوفة . أنتم قاتلتم ملوك العجم ، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم فمنعتم حوزتكم، وأعنتم الناس على عدوهم . وقد دعوتكم

لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة . فان يرجعوا فذاك الذى نريد . وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدءونا بظلم ولم ندع أمراً فيه اصلاح إلا آثرناه على مافيه الفساد إن شاء الله » .

ارسال القعقاع لمفاوضة عائشة :

ثم دعا أمير المؤمنين القعقاع بن عمرو فأرسله إلى أهل البصرة وقال الق هذين الرجلين (طلحة والزبير) . وكان القعقاع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما التفرقة .

فلم يكن علىّ رضى الله عنه يبغى حرباً ، بل كان يدعو إلى الألفة والجماعة، وقد صرح بذلك مراراً ، وكانت هذه دعوته إلى رسله .

خرج القعقاع بناء على أمر أمير المؤمنين حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة رضى الله عنها . فسلم عليها وقال : أى أمه ! ماأشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت : أى بنىّ الإصلاح بين الناس . قال فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما، فبعثت إليهما فجاآ . فقال لهما. إنى سألت أم المؤمنين ماأقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا متابعان . قال فأخبرانى ماوجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحنّ ، ولئن أنكرناه لايصلح ، قالا: قتلة عثمان ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن. قال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم . قتلتم ستمائة رجل ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة الآف . فان تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم ، فالذى

حذرتم وقويتم به هذا الأمر، أعظم مما أراكم تكرهون، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هـذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث المظيم والذنب الكبير . قالت عائشة فماذا تقول أنت ؟ قال أقول إن هذا الأمر دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا. فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر . وإن أنتم أبيتم إلامكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامه شرّ وذهاب هذا المآل . فآثروا العافيـة ، ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرّضونا للبلاء فتعرّضوا له فيصرعنا ، وإياكم . وايم الله إنى لأقول هذا القول وأدعوكم إليه، وإنى لخائف أن لايتم حتى يأخذ الله حاجته من هـذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها مانزل ، فان هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر ، وليس كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل .

قالوا قد أصبت وأحسنت ، فارجع فإن قدم عليٌّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر .

فرجع إلى علىّ فأخبره فأعجبه ذلك ، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه ، ورضيه من رضيه .

وأقبلت وفود البصرة نحو علىّ حين نزل ذى قار . فجاء وفد تميم وبكر قبل رجوع القعقاع لينظروا مارأى إخوانهم من أهل الكوفة، وعلى أىّ حال نهضوا إليهم ، وليعلموهم أن الذى عليه رأيهم الإصلاح ، ولا يخطر لهم قتال على بال .

فلما لقوا عشائرهم من أهل الكوفة بالذى بعثهم فيه عشائرهم من أهل البصرة، وقال لهم الكوفيون مثل مقالتهم وأدخلوهم على علىّ فأخبروه خبرهم سأل علىّ جرير بن شرس عن طلحة والزبير فأخبره عن دقيق أمرهما وجليله حتى تمثل له :

ألا أبلغ بنى بكر رسولاً   فليس إلى بنى كعب سبيل
سيرجع ظلمكم منكم عليكم   طويل الساعدين له فضول

وتمثل علىّ عندها :

ألم تعلم أبا سمعان أنا   نرد الشيخ مثلك ذا الصُداع
ويذهل عقله بالحرب حتى   يقوم فيستجيب لغير داع
فدافعَ عن خزاعة جمع بكر   وما بك ياسراقة من دفاع

انهزام أصحاب الجمل

خندق طلحة والزبير وخرج صِبيان العسكرين فتسابوا ثم تراموا ثم تتابع عبيد العسكرين والسفهاء ونشبت الحرب وألجأتهم إلى الخندق فاقتتلوا عليه حتى أقبلا إلى موضع القتال فدخل منه أصحاب علىّ وخرج الآخرون ونادى علىّ : ألا لاتتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ونهى الناس ، ثم بعث إليهم أن اخرجوا للبيعة فبايعهم على الرايات . وكان جيش علىّ ١٢٠٠٠ وهم الذين قدم بهم البصرة .

وسأل مالك بن حبيب علياً . فقال له : ما أنت صانع إذا لقيت هؤلاء

القوم ؟ قال : قد بان لنا ولهم أن الإصلاح ، الكف عن هذا الأمر . فإن بايعونا فذلك ، فإن أبوا وأبينا إلا القتال فصدع لايلتئم . قال فإن ابتلينا فما بال قتلانا ؟ قال من أراد اللهَ عزّ وجلّ نفعه ذلك وكان نجاءه ، وقام عليّ فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

«ياأيها الناس املكوا أنفسكم وكفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم ، فانهم إخوانكم واصبروا على مايأتيكم . وإياكم أن تسبقونا ، فإن المخصوم غداً من خصم اليوم »

ولما التقى عليّ رضى الله عنه بطلحة قال له طلحة يبرر خروجه عليه : قد ألّبت الناس على عثمان رضى الله عنه. قال عليّ (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) ياطلحة تطلب بدم عثمان رضى الله عنه ، فلعن الله قتلة عثمان ، يازبير أتذكر يوم مررتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غَنْم فنظر إلىّ فضحك وضحكتُ إليه فقلتَ : لايدع ابن أبى طالب زهوَه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت له ظالم ، فقال : اللهم نعم ، ولو ذكرتُ ماسرتُ مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً ، فانصرف عليّ إلى أصحابه فقال : أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم . ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها : ما كنتُ فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت ماتريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وقيل قال عليّ يازبير ارجع ، فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان[١]؟ هذا والله العار الذى لايغسل. فقال يازبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار ، فرجع الزبير وهو يقول :

اخترت عاراً على نار مؤججة   ما إن يقوم لها خلق من الطين

نادى عليّ بأمر لست أجهله   عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين

فقلت حسبك من عدل أبا حسن   فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى

فقال ابنه عبد الله : جمعت بين هذين العارين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب ؟! أحسستَ رايات ابن أبى طالب وعلمتَ أنها تحملها فتية أنجاد (يريد أنه خافهم) قال إنى قد حلفت ألا أقاتله وأحفظه ماقال له . فقال كفر عن يمينك وقاتله ، فدعا بغلام له يقال له (مكحول)[٢] فأعتقه . فقال عبد الرحمن بن سليمان التميمى :

لم أر كاليوم أخا إخوان   أعجب من مكفر الأيمان

بالعتق فى معصية الرحمن

وقال رجل من شعرائهم :

يعتق مكحولا يصون دينه   كفارة لله عن يمينه

والنكثُ قد لاح على جبينه

وقيل إنما عاد الزبير عن القتال لما سمع أن عمار بن ياسر مع عليّ فخاف

(١) أى اشتد الأمر .
(٢) وجاء فى الطبرى أن اسم الغلام (سرجس) .

أن يقتل عماراً وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ياعمار تقتلك الفئة الباغية» فرده ابنه عبد الله كما ذكر .

افترق أهل البصرة ثلاث فرق: فرقة مع طلحة والزبير ، وفرقة مع علىّ، وفرقة لاترى القتال ـ منهم الأحنف وعمران بن حصين وغيرهما، وكان أصحاب علىّ عشرين ألفا .

وأقبل كعب بن سور حتى أتى عائشة فقال : أدركى ، فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الأدراع ، فلما برزت وهى على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقفت واقتتل الناس وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح . والزبير كاف عنه ويقول ، أتقتلنى ياأبا اليقظان ؟ فيقول : لا ياعبد الله ، وإنما كف الزبير عنه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ تقتل عماراً الفئة الباغية . ولولا ذلك لقتله .

وبينما عائشة واقفة إذ سمعت ضجة شديدة ، فقالت . ماهذا ؟ قالوا ضجة العسكر ، قالت بخير أو بشر ؟ قالوا بشر . فما فاجأها إلا الهزيمة ، فمضى الزبير من وجهه إلى وادى السباع . وإنما فارق المعركة لأنه قاتل تعذيراً لما ذكر له علىّ . وأما طلحة فأتاه سهم غرب فأصابه فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادى : إلىّ عباد الله الصبر الصبر . فقال له القعقاع بن عمرو : ياأبا محمد إنك لجريح وإنك عما تريد لعليل ، فادخل البيوت ، فدخل ودمه يسيل وهو يقول : اللهم خذ لعثمان منى حتى يرضى . فلما امتلأ خفه دماً وثقل ، قال لغلامه اردفنى وأمسكنى وأبلغنى مكانا أنزل فيه . فدخل البصرة فأنزل فى دار

خربة فمات فيها . وقيل إنه اجتاز به رجل من أصحاب عليّ فقال له أنت من أصحاب أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قال امدد يدك أبايعك له . فبايعه فخاف أن يموت وليس فى عنقه بيعة . ولما قضى دفن فى بنى سعد وقال لم أرشيخا أضيع دماً مني . وتمثل عند دخول البصرة مَثَله ومَثَل الزبير :

فإن تكن الحوادث أقصدتنى وأخطأهن سهمى حين أرمى
فقد ضُيّعتُ حين تبعت سهماً سفاهة ماسفهت وضل حلمى
ندمت ندامة الكسعىّ لما شَرَيْتُ رضا بنى سهم برغمى
أطعتهم بفرقة آل لأيٍ فألقوا للسباع دمى ولحمى

وكان الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره .

وزعم بعض أهل العلم أن عليا دعا طلحة فذكره أشياء من سوابقه على ماقال للزبير فرجع عن قتاله واعتزل فى بعض الصفوف فرمى بسهم فى رجله، وقال مروان بعد ذلك : لاأطلب بثأرى بعد اليوم والتفت إلى أبان بن عثمان فقال : قد كفيت بعض قتلة أبيك وكان طلحة شديداً على عثمان ولذلك قال : ندمت ندامة الكسعى . وكان عمره حين قتل ستين سنة [١] .

قال الشعبي : لما قتل طلحة ورآه عليّ مقتولاً جعل يمسح التراب عن وجهه وقال: عزيز عليَّ أبا محمد أن أراك مجدّلاً تحت نجوم السماء . ثم قال : إلى الله أشكو عُجَرى وبُجَرى (همومى وأحزانى) ، وترحَّم عليه ، وقال:ليتنى مت قبل

(١) يقال إن طلحة لما علم بانصراف الزبير لما كلمه عليّ هم بأن ينصرف ، فعلم مروان بن الحكم مايريده فرماه بسهم .

هذا اليوم بعشرين سنة وبكى هو وأصحابه . وسمع عليٌّ رجلا ينشد :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا هو ما استغنى ويبعده الفقر

فقال : ذاك أبو طلحة بن عبيد الله رحمه الله .

وقيل جاء إلى عليّ رضى الله عنه إنسان، فقال: أشهد يا أمير المؤمنين لقد مررت على طلحة بعد أن أصابه السهم وهو صريع فصاح بى من أنت ؟ فقلت من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام . فقال: امدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين عليه السلام، فمددت إليه يدى فبايعنى لك . فقال عليٌّ عليه السلام: أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتى فى عنقه .

وأما الزبير فإنه مر بعسكر الأحنف بن قيس فقال والله ماهذا انحياز، جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم بعضاً ثم لحق ببيته . وقال الأحنف من يأتينى بخبره ؟ فقال عمرو بن جرموز لأصحابه أنا ، فاتبعه . فلما لحقه نظر إليه الزبير . فقال : ماوراءك ؟ قال إنما أريد أن أسألك . فقال غلام للزبير اسمه « عطية » إنه معد . قال مايهولك من رجل ، وحضرت الصلاة ، فقال ابن جرموز : الصلاة . فلما نزلا وسجد الزبير استدبره ابن جرموز فطعنه بالسيف حتى قتله وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلى عن الغلام، فدفنه بوادى السباع ورجع إلى الناس بالخبر . وقال الأحنف لابن جرموز : والله ما أدرى أحسنت أم أسأت ؟ فأتى ابن جرموز علياً فقال لحاجبه استأذن لقاتل الزبير ، فقال عليٌّ أئذن له وبشره بالنار ، وأحضر سيف الزبير عند عليّ ، فأخذه فنظر إليه ، وقال : طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبعث به إلى عائشة . وكان قتل الزبير لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ٣٦ هـ .

وقيل إنّ ابن جرموز استأذن على عليّ ، فلم يأذن له وقال : بشره بالنار ، فقال :

أتيت عليًا برأس الزبير أرجو لديه به الزلفه

فبشر بالنار إذ جئته فبئس البشارة والتحفه

وسيّان عندي قتل الزبير وضرطة بذي الجحفه

وقيل إن الزبير لما فارق الحرب وبلغ سفوان أتى إنسان إلى الأحنف ابن قيس فقال : هذا الزبير قد لقي بسَفَوان . فقال الأحنف: ماشاء الله كان، قد جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف، ثم يلحق ببيته وأهله . فسمعه ابن جرموز وفضالة بن حابس ونفيع بن غواة من تميم فركبوا ، فأتاه ابن جرموز من خلفه فطعنه طعنة خفيفة وحمل عليه الزبير وهو على فرس له يقال له (ذو الخمار) حتى إذا ظن أنه قاتله نادى صاحبيه فحملوا عليه فقتلوه . وكان عمره لما قتل سبعاً وستين سنة ، وقيل أكثر .

وقد رثته الشعراء وذكرت غدر ابن جرموز به وممن رثاه زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل أخت سعيد بن زيد، فقالت :

غدر ابن جرموز بفارس تهمة يوم اللقاء وكان غير معدد

ياعمرو لو نبهته لوجدته لاطايشا رعش الجنان ولا اليد

هبلتك أمك إن قتلت لمسلماً حلت عليك عقوبة المتعمد

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله فيمن مضى ممن يروح ويغتدى

كان أول من قُتل طلحة وقتل الزبير وهما من كبار الصحابة، وكان قتلهما خسارة كبيرة ، وقد أسف عليهما علىّ رضى الله عنه أسفاً شديداً .

احتدم القتال ، وانجلت الوقعة عن انهزام أصحاب الجمل . فلما كانت الهزيمة قالت عائشة لكعب بن سور : خل عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعهم إليه وناولته مصحفاً، فاستقبل القوم فأصابه سهم فقتل، ورموا أمّ المؤمنين فى هودجها، فجعلت تنادى البقية البقية يابنىّ، ويعلو صوتها كثرة : الله أكبر ، الله أكبر، اذكروا الله والحساب، فأبوا إلا إقداماً . فكان أول شىء أحدثته حين أبوا أن قالت : أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم ، وأقبلت تدعو وضج الناس بالدعاء . فسمع علىّ . فقال ما هذه الضجة ؟ قالوا عائشة تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم . فقال علىّ : اللهم العن قتلة عثمان وحمل علىّ بنفسه وقاتل حتى انثنى سيفه .

احتدام القتال :

لما رأت عائشة رضى الله عنها أن الناس لا يكفون عن القتال ، وأنهم يريدونها ، أرسلت إلى عبد الرحمن بن عتاب ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام أن أثبتا مكانكما وحرضت الناس فحملت مضر البصرة، حتى قصفت مضر الكوفة، حتى زحم علىّ . فنخس قفا ابنه محمد، وكانت الراية معه، وقال له احمل . فتقدم حتى لم يجد متقدما إلا على سنان رمح لشدّة التزاحم ، فأخذ

عليٌّ الراية من يده . وقال : يابنى بين يدى ، وحملت مضر الكوفة فاجتلدوا أمام الجمل حتى خَرِسوا والمجنِّبتان على حالهما لا تصنع شيئاً ومع علىّ قوم من غير مضر منهم زيد بن صوحان فأصيب هو وأخوه، واشتد القتال، فما رؤى وقعة كانت أعظم منها قبلها ولا بعدها ولا أكثر ذراعا مقطوعة ، ولا رجلا مقطوعة وعائشة تحرض جيشها على القتال وصار مجنبتا علىّ إلى القلب وصار كلما أخذ الخطام أحد قُتل ، وأخذ الخطام الأسود بن أبى البخترى فقتل ، وأخذه عمرو بن الأشرف فقتل ، وقتل معه ثلاثة عشر رجلا من أهل بيته ، وهو أزدى ، وجرح مروان بن الحكم وجرح عبد الله بن الزبير سبعا وثلاثين جراحة من طعنة ورمية .

ثم ضاع خطام الجمل ونادى علىّ « اعقروا الجمل فإنه إن عُقر تفرقوا » فضربه رجل فسقط وقتل من بنى ذهل خمسة وثلاثون رجلا .

وقيل فى عقر الجمل: إن القعقاع لقى الأشتر وقد عاد من القتال عند الجمل فقال : هل لك فى العود ؟ فلم يجبه . فقال : يا أشتر بعضنا أعلم بقتال بعض منك . وحمل القعقاع والزمام مع زفر بن الحارث وكان آخر من أخذ الخطام، فلم يبق شيخ من بنى عامر إلا أصيب أمام الجمل ، وزفر بن الحارث يرتجز ويقول :

يا أُمَّنا مثلك لا يراع   كل بنيك بطل شجاع

ليس بوهواه ولا يراع

وقال القعقاع :

إذا وردنا آجنا جهرناه ولا يطاق ورد مامنعناه

وزحف إلى زفر بن الحارث وتسرعت عامر إلى حربه فأصيبوا . فقال القعقاع لبجير بن دلجة ، وهو من أصحاب علىّ يابُجَيْر بن دُلْجَة صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن تصابوا ، وتصاب أم المؤمنين . فقال بجير: ياآل ضبة ياعمرو بن دلجة ، ادع بى إليك فدعاه، فقال أنا آمن حتى أرجع عنكم . قال نعم فاجتث ساق البعير فرمى نفسه على شقه ، وجرجر البعير . فقال القعقاع لمن يليه : أنتم آمنون . واجتمع هو وزفر على قطع بطان البعير (هو حزام القَتَب الذى يجعل تحت بطن البعير) وحملا الهودج [١] فوضعاه وكان كالقنفد لكثرة مافيه من السهام التى أصابته ، ثم أطافا به . وفر من وراء ذلك الناس . عند ذلك أمر علىّ نفراً أن يحملوا الهودج من بين القتلى وأمر أخاها محمد بن أبى بكر أن يضرب عليها قبة . وقال انظر هل وصل إليها شىء من جراحة ، فأدخل رأسه فى هودجها ، فقالت من أنت ؟ فقال أبغض أهلك إليك . قالت ابن الخثعمية . قال نعم . قالت الحمد لله الذى عافاك .

وقيل لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبى بكر إليه ومعه عمار فاحتملا الهودج فنحياه . فأدخل محمد يده فيه . فقالت من هذا ؟ فقال أخوك البر . قالت : عُقَق (أى عاق) . قال ياأخية هل أصابك شىء ؟ قالت ماأنت وذاك قال فمن إذا الضلال ؟ قالت بل الهداة .

---

(١) كان جمل عائشة أحمر والهودج أحمر .

وقال لها عمار : كيف رأيت ضرب بنيك اليوم ياأماه ؟ قالت لستُ لك بأم . قال : بلى وإن كرهت . قالت فخرتم أن ظفرتم وأتيتم مثل الذى نقمتم . هيهات والله لن يظفر من كان هذا دأبه .

ثم أبرزوا هودجها فوضعوها بعيداً عن الناس . وأتاها علىّ فقال : كيف أنت ياأمه ؟ قالت بخير . قال يغفر الله لك . قالت : ولك .

وجاء أعين بن ضبيعة بن أعين المجاشعى حتى اطلع فى الهودج . فقالت إليك لعنك الله . فقال والله ماأرى إلا حميراء . فقالت له : هتك الله سترك وقطع يدك وأبدى عورتك . فقتل بالبصرة وسُلب وقطعت يده ورمى عريانا فى خربة من خرابات الأزد .

وكان علىّ يقول ذلك اليوم بعد أن فرغ من القتال :

إليك أشكو عُجرى وبُجرى ... ومعشراً أغشوا علىّ بصرى

قتلت منهم مضراً بمضرى ... شفيتُ نفسى وقتلتُ معشرى

القتلى ودفنهم

فلما كان الليل أدخل محمد بن أبى بكر عائشة رضى الله عنها البصرة ، فأنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعى على صفية بنت الحارث بن أبى طلحة ، وكانت دار عبد الله أعظم دار بالبصرة ، وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلا فدخلوا البصرة . فأقام علىّ بظاهر البصرة ثلاثا وأذن للناس فى دفن موتاهم . فخرجوا إليهم فدفنوهم . وطاف علىّ فى القتلى . فلما أتى على كعب بن سُور[1] ،

(١) كعب بن سور قيل إنه أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو قاضى البصرة ، استقضاه عمر

قال : أزعمتم أنه خرج معهم السفهاء ، وهذا الحَبْر قد ترون وأُتى علىّ عبد الرحمن بن عتاب[1] فقال: هذا يعسوب القوم ، يعنى أنهم كانوا يطيفون به . واجتمعوا على الرصافة لصلاتهم . ومرّ علىٌ على طلحة بن عبيد الله وهو صريع فقال : « لهفى عليك ياأبا محمد . إنالله وإنا إليه راجعون . والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى » . وجعل كلما مرّ برجل فيه خير قال : زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء . وهذا العابد المجتهد فيهم . وصلى علىٌ على القتلى من أهل البصرة والكوفة، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء. وأمر فدفنت الأطراف (الأيدى والأرجل والرءوس) فى قبر عظيم . وجمع ما كان فى العسكر من شىء وبعث به إلى مسجد البصرة . وقال من عرف شيئا فليأخذه إلا سلاحاً كان فى الخزائن عليه سمة السلطان . وكان جميع القتلى من أهل البصرة ١٠٠٠٠ نصفهم من أصحاب علىّ ونصفهم من أصحاب عائشة ، وقتل من أهل الكوفة ٥٠٠٠ وقتل من ضبة ألف رجل ، ومن بنى عدى حول الجمل ٧٠ رجلا كلهم قد قرأ القرآن ، سوى الشباب ومن لم يقرأ .

ابن الخطاب عليها فقضى بين أهلها إلى أن قتل عمر ثم خلافة عثمان فلم يزل قاضياً عليها إلى أن قتل يوم الجمل مع عائشة ، خرج بين الصفين معه مصحف فنشره وجعل يناشد الناس فى دمائهم، وقيل بل دعاهم إلى حكم القرآن فأتاه سهم غرب (لايدرى راميه) فقتله . قيل كان المصحف معه وبيده خطام الجمل فأتاه سهم فقتله . وله فى قتال الفرس أثر كبير .

(١) عبد الرحمن بن عتاب . أمه جويرية بنت أبى جهل التى كان علىّ بن أبى طالب يخطبها فنهاه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها عتاب فولدت له عبد الرحمن . كان مع عائشة يوم الجمل فكان يصلى بهم إماماً

وكانت الموقعة من ارتفاع النهار إلى الغروب فى يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ .

قال المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك فى « تاريخ الأمم الإسلامية » تعليقاً على موقعة الجمل :

« هكذا انتهت هذه الموقعة التى سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيماً مهيباً » .

« لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين فى كل الوجوه؛ فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً من غير تِرة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه . إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصر الإمام فى إقامته أو اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام ، وإذا كانوا لا يرون لإمامة علىّ صحة ، فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولاً للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحد، ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه . ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون: إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت ، ولم يكن عند علىّ بن أبى طالب من

الأناة مايمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان . حقيقة إن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما ، ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش بحيث يمكن فرقة [illegible] عقبة عن النظر فيما هو قادم عليه ، وإن من الخطأ العظيم أن يستعين علىّ بمثل هـذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى إلى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان ، فانهم بالضرورة لايحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس ، لأن الاتفاق إنما يقع على رءوسهم ، فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظاً لأنفسهم . على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه فى الدم المسفوك وإن كان هو ينكر ذلك انكاراً تاماً ، وهو عندنا الصادق فى قوله . والنتيجة ان تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لايكفى لبراءة الانسان فى الفعل أن لا يكون قد فعله ، بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة من براءته ، وليس يكفى الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة مايغلب به من خرج عليه من قومه ، بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة ، والأناة مايعيد الخارج إلى حظيرته ، والكىّ لا يكون إلا آخر الدواء .

تسريح عائشة رضى الله عنها

مستهل رجب سنة ٣٦ هـ

سرح علىّ رضى الله عنه عائشة ، وأرسل معها جماعة من الرجال، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأمر لها باثنى عشر ألف من المال فاستقل ذلك عبد الله بن جعفر وجهز لها مالاً عظيماً . وقال إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو علىّ ولم تصب إلا بخدش من سهم . ولما كان اليوم الذى ارتحلت فيه ، أتاها علىّ فوقف لها وحضر الناس وودعتهم وقالت : يابنىّ لايعتب بعضنا على بعض إنه ، والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلاما يكون بين المرأة و بين أحمائها، وإنه على معتبتى لمن الخيار . فقال علىّ : صدقت والله ما كان بينى وبينها إلا ذاك ، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة .

وسألت عائشة عليًّا أن يؤمن ابن اختها عبد الله بن الزبير فأمنه، وتكلم الحسن والحسين فى مروان فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة وولد عثمان وغيرهم من بنى أمية ، وأمن الناس جميعاً .

وخرجت يوم السبت غرة رجب سنة ٣٦ هـ ، وشيعها علىّ أميالاً وسرح بنيه معها يوماً، فانصرفت إلى مكة وأقامت بها إلى الحج ثم رجعت إلى المدينة وخرج عبد الرحمن بن أبى بكر بناء على أمر علىّ رضى الله عنه . وكان عمر عائشة وقتئذ ٤٥ سنة[1] .

(١) توفيت عائشة رضى الله عنها سنة ٥٨ هـ بالغة من العمر ٦٦ سنة وترملت ٤٧ سنة .

قول المعتزلة وغيرهم

فى عائشة وأصحاب الجمل

قالت المعتزلة كل أصحاب الجمل هالكون إلا من ثبتت توبته منهم. قالوا وعائشة ثبتت توبتها، وكذلك طلحة والزبير. أما عائشة فإنها اعترفت لعلىّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ وسألته العفو، وقد تواترت الرواية عنها باظهار الندم وأنها كانت تقول ليته كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وثكلتهم، ولم يكن يوم الجمل، وإنها كانت تقول ليتنى مت قبل يوم الجمل، وإنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها. وأما الزبير فرجع عن الحرب معترفا بالخطأ لما أذكره علىّ عليه السلام ما أذكره. وأما طلحة فانه مر به وهو صريع فارس فقال له قف فوقف. قال من أى الفريقين أنت؟ قال من أصحاب أمير المؤمنين. قال أقعدنى، فأقعده. فقال: امدد يدك لأبايع أمير المؤمنين فبايعه.

وقالت المعتزلة ليس لقائل أن يقول مايروى من أخبار الآحاد بتوبتهم لايعارض ماعلم من معصيتهم. قالوا لأن التوبة إنما يحكم بها للمكلف على غالب الظن فى جميع المواضع لاعلى القطع. ألا ترى أنا نجوّز أن يكون من أظهر التوبة منافقاً وكاذباً فبان المرجع فى قبولها فى كل موضع إنما هو إلى الظن فجاز أن يعارض من معصيتهم بما يظن من توبتهم.

وقالت الإمامية كفر أصحاب الجمل كلهم الرؤساء والأتباع . وقال قوم من الحشوية والعامة اجتهدوا فلا إثم عليهم ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ علىّ عليه السلام وأصحابه . وقال قوم من هؤلاء بل تقول أصحاب الجمل أخطأوا ولكنه خطأ مغفور كخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع عند من قال بالأشبه وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية .

بيعة أهل البصرة

لعلىّ رضى الله عنه

دخل علىّ رضى الله عنه البصرة فأتى مسجدها الأعظم واجتمع الناس إليه فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد : فإن الله ذو رحمة واسعة وعقاب أليم . فما ظنكم بى ياأهل البصرة ، جندَ المرأة وأتباع البهيمة رغا فقاتلتم وعُقر فانهزمتم . أخلاقكم دِقاق (شحيحة) وعهدكم شقاق . وماؤكم زُعاق (مر غليظ لايطاق شربه) . أرضكم قريبة من الماء ، بعيدة من السماء : وأيم الله ليأتين عليها زمان لايُرى منها إلا شُرُفات مسجدها فى البحر مثل جؤجؤ السفينة (صدرها) انصرفوا إلى منازلكم » ثم نزل وانصرف إلى معسكره . وقد ذم علىّ أهل البصرة بعد هذا الموقف مراراً كثيرة .

بايع علىّ أهل البصرة على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة . فلما رجع

مروان ، لحق بمعاوية . وأتاه عبد الرحمن بن أبى بكرة فى المستأمنين أيضا فبايعه. فقال له علىٌّ. وما عمل المتربص المتقاعد بى أيضا،؟ يعنى أباه أبابكرة ؟ فقال : والله إنه لمريض، وإنه على مسرتك لحريص. فقال علىّ: أمش أمامى فمشى معه إلى أبيه . فلما دخل علىٌّ عليه قال له : تقاعدت بى وتربصت . فوضع يده على صدره وقال : هـذا وجع بين واعتذر إليه ، فقبل عذره ، وأراد أن يكون والياً على البصرة فامتنع وقال : رجل من أهلك يسكن الناس إليه ، وسأشير عليه فافترقا على ابن عباس . وولى زياداً على الخراج وبيت المـال ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه ويطيع ، وكان زياد معتزلاً .

وزياد المذكور هنا هو زياد بن سمية وهى أمه ، قيل هو زياد بن أبى سفيان، وهو المعروف بزياد بن أبيه . ليست له صحبة ولا رواية. كان من دهاة العرب والخطباء الفصحاء. استعمله عمر بن الخطاب على بعض أعمال البصرة، ولم يزل مع علىّ حتى قتل . لم تطل إقامة علىّ بالبصرة فعاد إلى الـكوفة.

مسير عليّ إلى الكوفة

١٢ رجب سنة ٣٦ هـ (يناير سنة ٦٥٧ م)

لما أشرف عليٌّ على الكوفة، قال :

« ويحك يا كوفان[1] ما أطيب هواءك، وأغذى تربتك . الخارج منك بذنب، والداخل إليك برحمة . لاتذهب الأيام والليالى حتى يجيء إليك كل مؤمن ، ويبغض المقامَ بك كل فاجر ، وتعمَرِين حتى إن الرجل من أهلك ليبكر إلى الجمعة فلا يُلحقها من بعد المسافة » .

قالوا : وكان مقدمه الكوفة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ٣٦ هـ بعد ستة شهور من مقتل عثمان . فقيل له يا أمير المؤمنين أتنزل القصر ؟ قال لاحاجة لى فى نزوله لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان

---

(١) كوفان والكوفة واحد . قال عليّ بن محمد الكوفى المعروف بالحِمانى :

ألا هل سبيلٌ إلى نظرة بكوفان يحيي بها الناظران
يقلبها الصب دون السدير وحيث أقام بها القائمان
وحيث أناف بأرواقه محلُّ الخورنق والماديان
وهل أبكرنّ وكُثبانها تلوح كأوديه الشاهجان
وأنوارها مثل برد النبيّ رُدِّعَ بالمسك والزعفران

وقال أبو نواس وقدم الكوفة واستطابها، وأقام بها مدة :

ذَهَبَتْ بها كوفان مذهبَها وعَدِمتُ عن أربابها صبرى
ماذاك إلا أننى رجلٌ لاأستخف صداقة البصرى

يبغضه ولكنى نازل الرّحْبة . ثم أقبل حتى دخل المسجد الأعظم فصلى ركعتين ثم نزل الرحبة ، وكان علىّ رضى الله عنه أول خليفة دخل الكوفة وقد جعلها مركزاً لخلافته .

خطبة بالكوفة :

وأول جمعة صلى بالكوفة خطب فقال :

«الحمد لله أحمده . وأستعينه وأستهديه، وأومن به وأتوكل عليه، وأعوذ بالله من الضلالة والردى. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . انتخبه لرسالته واختصه لتبليغ أمره . أكرمَ خلقه عليه وأحبهم إليه . فبلغ رسالة ربه ، ونصح لأمته ، وأدى الذى عليه صلى الله عليه وسلم .

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإنّ تقوى الله خير ماتواصى به عباد الله، وأقربه لرضوان الله . وأفضله فى عواقب الأمور عند الله . وبتقوى الله أُمرتم ، وللاحسان خُلقتم . فاحذروا من الله ماحذركم من نفسه ، فإنه حذَّر بأساً شديداً . واخشوا الله خشية ليست بتعذير . واعملوا من غير رياء ولا سمعة ، فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ماعمل . ومن عمل مخلصاً له تولاه الله وأعطاه أفضل نيته. وأشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سُدى. قد سمى آثاركم، وعلم أسراركم، وأحصى أعمالكم وكتب آجالكم، فلا تغرّنكم الدنيا فإنها غرارة لأهلها. والمغرور من اغترّ بها

وإلى فناء ماهي . وإنّ الآخرة هي دار القرار . نسأل الله منازل الشهداء ، ومرافقة الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله » .

توزيع العمال على البلدان :

ثم وجه عليٌّ رضي الله عنه عماله إلى البلدان كما يلي :

(١) يزيد بن قيس الأرحبي على المدائن وجُوخَى كلها[1] .

(٢) محمد بن سليم على الجبل وأصبهان .

(٣) قُرط بن كعب على البِهقُباذات[2] .

(٤) قدامة بن عَجلان الأزدي على كسكر وحيّزها[3] .

(٥) عديّ بن الحارث على بهرسير[4] .

(٦) حسان بن عبد الله البكري على الأستان العالي[5] .

(٧) سعيد بن مسعود الثقفي على أستان الزوابي[6] .

(٨) رِبْعِيّ بن كاس على سجستان وحيّزها .

(٩) خُليد بن كاس على خراسان .

(١٠) الأشتر على الموصل ونصيبين ودارا وسِنْجار وآمِد ومَيَّا فارقين وهيت

---

(١) جوخى أو جوخا . اسم نهر عليه كورة واسعة في سوق بغداد .

(٢) البهقباذات . اسم ثلاث كور ببغداد من أعمال سقي الفرات .

(٣) كسكر كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية لأنها تكثر بها . وحدها من الجانب الشرقي في آخر سقي النهروان إلى أن تصب دجلة في البحر كله من كسكر فتدخل فيه على هذا البصرة

(٤) بهرسير من نواحي سوق بغداد قرب المدائن . وقيل إنها إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن .

(٥) كورة في غربي بغداد من السواد . قال العسكري الأستان مثل الرستاق .

(٦) الزوابي في العراق أربعة أنهر نهران فوق بغداد ونهران تحتها : يقال لكل واحد منها الزاب.

وعانات[1] وما غلب عليها من أرض الشام .

فأما خليد بن كاس ، فإنه لما دنا من خراسان بلغه أن أهل نيسابور خلعوا يداً من طاعة ، وأنه قدمت عليهم بنت لكسرى من كابل فمالوا معها فقاتلهم خليد ، وأخذ ابنة كسرى بأمان وبعث بها إلى عليّ . فلما أُدخلت عليه قال. أتحبين أن أزوجك من ابنى هذا (يعنى الحسن) ؟ قالت لا أتزوج أحداً على رأسه أحد . فإن أنت أحببت ، رضيتُ بك .

قال إنى شيخ وابنى هذا من فضله كذا وكذا. قالت قد أعطيتك الجملة، فقام رجل من عظماء دهاقين العراق يسمى نَرْسَى . فقال ياأمير المؤمنين قد بلغك أنى من سِنْخ المملكة ، وأنا قرابتها فزوجنيها. فقال هى أملك بنفسها. ثم قال لها انطلق حيث شئت ، وانكحى من أحببت ، لا بأس عليك .

هذه الرواية تدل على شدة تسامح عليّ رضى الله عنه ، وحسن معاملته لابنة كسرى التى قامت تحارب أحد عماله ، فإنه قد أطلق سراحها ومنحها مطلق الحرية فى الإقامة والزواج .

---

(١) دارا . بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين . « سنجار » . مدينة فى نواحى الجزيرة « آمد » أعظم مدن ديار بكر « ميافارقين » . مدينة بديار بكر « هيت » . بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار « عانات » قرى فى أعمال الجزيرة .

قتل محمد بن أبى حذيفة وولاية قيس بن سعد مصر

صفر سنة ٣٦ هـ (أغسطس سنة ٦٥٦ م)

قتل محمد بن أبى حذيفة سنة ٣٦ هـ . وكان سبب قتله ، أنه لما خرج المصريون إلى عثمان مع محمد بن أبى بكر، أقام بمصر وأخرج عنها عبد الله بن سعد بن أبى سرح وضبطها ، فلم يزل مقيما بها حتى قتل عثمان رضى الله عنه، وبويع لمعاوية . وأظهر معاوية الخلاف وبايعه على ذلك عمرو بن العاص . فسار معاوية وعمرو بن العاص إلى محمد بن أبى حذيفة قبل قدوم قيس بن سعد مصر . فعالجا دخول مصر فلم يقدرا على ذلك ، فلم يزالا يخدعان محمد بن أبى حذيفة، حتى خرج إلى عريش مصر فى ألف رجل فتحصن بها . وجاءه عمرو فنصب المنجنيق عليه ، حتى نزل فى ثلاثين من أصحابه وأخذوا وقتلوا [١] .

قال ابن الأثير : وهذا القول ليس بشىء لأن علياً استعمل قيساً على مصر أول مابويع له . ولو أن ابن أبى حذيفه قتله معاوية وعمرو قبل وصول قيس إلى مصر لاستوليا عليها، لأنه لم يكن بها أمير يمنعهما عنها، ولا خلاف أن استيلاء معاوية وعمرو عليها كان بعد صفين . وقيل غير ذلك، وهوأن محمد بن أبى حذيفة سير المصريين إلى عثمان فلما حصروه ، أخرج محمد عبد الله بن سعد عن مصر، وهو عامل عثمان واستولى عليها، فنزل عبد الله على تخوم مصر وانتظر أمر عثمان . فطلع عليه راكب فسأله فأخبره بقتل عثمان فاسترجع [٢] ،

---

(١) ذكر هذه الرواية الطبرى .

(٢) أى قال إنا لله وإنا إليه راجعون .

وسأله عما صنع الناس فأخبره ببيعة عليّ ، فاسترجع فقال له : كأن إمرة عليّ تعدل عندك قتل عثمان ! قال نعم . قال أظنك عبد الله بن سعد . فقال : نعم، فقال له : إن كانت لك فى نفسك حاجة فالنجاء . النجاء . فإنّ رأى أمير المؤمنين عليّ فيك وفى أصحابك إن ظفر بكم أن يقتلكم أو ينفيكم . وهذا بعدى أمير يقدم عليك . فقال من هو ؟ قال قيس بن سعد . قال : عبد الله بن سعد : أبعد الله محمد بن أبى حذيفة فإنه بغى على ابن عمه وسعى عليه، وقد كفله ورباه، وأحسن إليه فأساء جواره، وجهّز إليه الرجال . ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان، ولم يتعه بسلطان بلاده شهراً . ولم يره لذلك أهلا . وخرج عبد الله هارباً حتى قدم على معاوية . وهذا القول يدل على أن قيساً ولى مصر ومحمد بن أبى حذيفة حيّ . قال ابن الأثير وهو الصحيح .

ولما استولى معاوية على مصر ، أخذ محمداً فى الرهن وحبسه ، فهرب من السجن، فظفر به رشدين مولى معاوية فقتله.

هذا ما كان من خبر قتل محمد بن أبى حذيفه . أما ما كان من تولية قيس ابن سعد بن عبادة الأنصارى [1] ، فإن علياً دعاه فقال له (سر إلى مصر فقد وليتكها وأخرج رحلك واجمع إليه ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك

(١) قيس بن سعد بن عبادة الذى ولاه عليّ مصر خزرجيّ أنصاريّ ساعديّ . كان من فضلاء الصحابة وأحد دهاة العرب وكرمائهم ، وكان من ذوى الرأى الصائب والمكيدة فى الحرب مع النجدة والشجاعة، وكان شريف قومه ومن بيت سيادتهم ،وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير . وقيل كانوا يعدون دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة رهط يقال لهم ذوو رأى العرب ومكيدتهم معاوية وعمرو بن العاص وقيس بن سعد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن بديل بن ورقاء فكان قيس وابن بديل مع على، وكان المغيرة معتزلاً فى الطائف ، وكان عمرو مع معاوية وقال قيس: لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «المكر والخديعة فى النار» لكنت من أمكر هذه الأمة . وله أخبار فى ذلك طويلة . وكان قيس مديد القامة جداً .

حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أرعب لعدوك ، وأعز لوليك . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن ، واشتد على المريب ، وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يُمْنٌ) .

فقال له قيس : « رحمك الله ياأمير المؤمنين فقد فهمتُ ماقلتَ . أما قولك اخرج إليها بجند . فوالله لئن لم أدخلها إلا بجند آتيها به من المدينة لاأدخلها أبداً . فإنى أدع ذلك الجند لك . فإن أنت احتجتَ إليهم كانوا منك قريباً . وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عُدة لك ، وأنا أسير إليها بنفسى وأهل بيتى . وأما ماأوصيتنى به من الرفق والإحسان . فإنّ الله عز وجل هو المستعان على ذلك » .

خرج قيس بن سعد فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر .

كتاب علىّ الى أهل مصر :

صعد قيس المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرئ على أهل مصر وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين » .

« سلام عليكم . فإنى أحمد إليكم الله الذى لاإله إلا هو . أما بعد: فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به الرسل صلى الله عليهم إلى عباده، وخص به من انتخب من خلقه . فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة

أن بعث إليهم محمدا صلى الله عليه وسلم، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا، وزكاهم لكيما يتطهروا ورفهم لا يجوروا . فلما قضى من ذلك ماعليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته . ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملاً بالكتاب والسنة، وأحسنا السيرة ولم يعدوَا السنة . ثم توفاهما الله عز وجل رضى الله عنهما . ثم ولى بعده وال فأحدث أحداثاً (يعنى عثمان) فوجدت الأمة عليه مقالا. فقالوا ، ثم نقموا عليه فغيروا، ثم جاءونى فبايعونى ، فأَستهدى الله عز وجل بالهدى، وأستعينه على التقوى . ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، والقيام عليكم بحقه، والتنفيذ لسنته، والنصح لكم بالغيب. والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

« وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً فوازروه ،وكاتفوه، وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدة على مريبكم، والرفق بعوامكم وخواصكم . وهو ممن أرضى هديه ، وأرجو صلاحه ونصيحته . أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكياً ، وثواباً جزيلاً ، ورحمة واسعة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

أما كاتب هذا الكتاب فهو عبيد بن أبى رافع وتاريخه صفر سنة ٣٦ هـ .

خطبة قيس بن سعد فى أهل مصر :

ثم قام قيس بن سعد خطيباً . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال :

« الحمد لله الذى جاء بالحق، وأمات الباطل، وكبت الظالمين . أيها الناس: إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد ، نبينا صلى الله عليه وسلم: فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن نحن لم نعمل لكم بذلك ، فلا بيعة لنا عليكم » .

أحسن المصريون استقبال قيس، وقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر، وبعث عليها عُماله . إلا أنّ قرية منها يقال لها (خَرْبِتا) فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها رجل من كنانة ثم من بنى مُدْلج . فبعث هؤلاء إلى قيس بن سعد : إنا لانقاتلك فابعث عمالَك . والأرض أرضك . ولكن أقرّنا على حالنا ، حتى ننظر إلى مايصير أمر الناس . فبعث قيس إلى أهل خربتا . إنى لاأكرهكم على البيعة، وأنا أرعكم وأكف عنكم، فهادنهم ، وهادن مَسْلَمة بن مخلد أن كان يطلب دم عثمان . وجبى الخراج ، ولم ينازعه أحد من الناس ، وكان أهل خربتا يومئذ ١٠٠٠٠ .

خرج أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب إلى أهل الجمل وقيس على مصر ، ورجع إلى الكوفة من البصرة وهو بمكانه ، فكان أثقل خلق الله على معاوية لقربه من الشام مخافة أن يقبل إليه علىّ فى أهل العراق، ويقبل إليه قيس بن سعد فى أهل مصر فيقع معاوية بينهما .

كتاب معاوية الى قيس :

كتب معاوية إلى قيس وعلىّ بن أبى طالب يومئذ بالكوفة :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى قيس بن سعد » :

« سلام عليك. أما بعد: فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى أثرة رأيتموها، أوضربة سوط ضربها، أوشتيمة رجل، أوفى تسييره آخر، أو فى استعماله الفُتىّ، فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون أنّ دمه لم يكن يحلّ لكم، فقد ركبتم عظيما من الأمر، وجئتم شيئاً إدًّا. فتب إلى الله عزّ وجل ياقيس بن سعد. فإنك كنت من المجلبين على عثمان بن عفان رضى الله عنه إن كانت التوبة من قَتْل المؤمن تُغنى شيئاً . فأما صاحبك ، فإنا استيقنا أنه الذى أغرى به الناس وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وإنه لم يسلم من دمه عُظْم قومك[1] ، فإن استطعت ياقيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرتُ مابقيتُ، ولمن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز مادام لى سلطان. وسلنى غير هذا مما تحب، فإنك لاتسألنى شيئاً إلا أوتيته . واكتب إلىّ برأيك فيما كتبتُ به إليك والسلام » .

اتهم معاوية فى هذا الكتاب علياً بأنه حمل الناس على قتل عثمان ، ودعا قيساً أن ينضم إليه للمطالبة بدم عثمان ، وله نظير ذلك سلطان العراقين وكل مايطلب .

رد قيس بن سعد على كتاب معاوية

فلما جاء كتاب معاوية أحب أن يدافعه ، ولا يبدى له أمره ، ولا يتعجل له حربه فكتب إليه .

---

(١) عظم قومك أى معظمهم .

« أما بعد: فقد بلغنى كتابك ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من قتل عثمان رضى الله عنه . وذلك أمر لم أقارفه ولم أُطف به ، وذكرت أن صاحبى هو أغرى الناس بعثمان، ودسهم إليه حتى قتلوه وهذا مالم أطلع عليه . وذكرتَ أن عُظم قومى لم تسلم من دم عثمان . فأول الناس كان فيه قياماً عشيرتى . وأما ماسألتنى من متابعتك ، وعرضتَ علىَّ من الجزاء به ، فقد فهمته، وهذا أمر لى فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يُسْرَع إليه. وأنا كاف عنك، ولن يأتيك من قِبَلى شىء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله . والمستجار الله عز وجل ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

أنكر قيس فى رده على معاوية أنه كان هو وقومه من المجلبين على عثمان، ونفى علمه بأن علياً أغرى الناس بعثمان حتى قتلوه ، ووعده بأن ينظر فى أمر متابعته ، وأنه لا يشهر عليه حرباً .

رد معاوية على كتاب قيس

لما قرأ معاوية كتاب قيس لم يره إلا مقارباً مباعداً، ولم يأمن أن يكون له فى ذلك مباعداً مكايداً ، فكتب إليه :

« أما بعد: فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأَعُدَّك سِلماً . ولم أرك تباعد فأعدك حرباً . أنت فيما هاهنا كحنك الجزور ، وليس مثلى يُصانع المخادع . ولا ينتزع للمُكايد ، ومعه عدد الرجال ، وبيده أعنة الخيل والسلام عليك » .

رد قيس

فلما قرأ قيس كتاب معاوية، ورأى أنه لا يقبل منه المدافعة والمماطلة ، أظهر له ذات نفسه فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من قيس بن سعد ، إلى معاوية بن أبى سفيان[1] .

« أما بعد فإنّ العجب من اغترارك بى، وطمعك فى استسقاطك رأيى ! أتسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلاً ، وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتأمرنى بالدخول فى طاعتك ، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبيلاً ، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وسيلةً وَلَد ضالين مُضلين . طاغوت من طواغيت إبليس[2]. أما قولك انى مالئ عليك مصر خيلاً ورجلا ، فوالله إن لم اشغلك بنفسك ، حتى تكون نفسك أهم إليك ، انَّك لذو جد والسلام » .

هذا كتاب كما يراه القارئ شديد اللهجة ، رفع فيه قيس من شأن علىّ رضى الله عنه ، وخفض من شأن معاوية وهدده ، فلما بلغ معاوية ذلك أيس من قيس وثقل عليه مكانه .

التجاء معاوية الى الحيلة للتغلب على قيس :

امتنع قيس بمصر بدهائه،فلم يقدر معاوية وعمرو على إخراجه منها، حتى كاد معاوية قيسا من قِبَل علىّ ، وكان معاوية يحدّث رجالاً من ذوى الرأى من قريش يقول :

---

(١) هكذا كانت المخاطبات خالية فى الألقاب وألفاظ التعظيم والإجلال والتفخيم ولو كتب أحد إلى موظف صغير بهذه اللهجة لعده متعدياً على الآداب متهجماً على المقامات !.

(٢) الطاغوت كل رأس ضلال وما عبد من دون الله .

ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندى من مكايدة كدتُ بها قيساً من قِبل علىّ وهو بالعراق حين امتنع منى قيس ، قلت لأهل الشام لاتسبّوا قيس بن سعد ، ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة يأتينا كيِّسُ نصيحة سراً ، ألاترون مايفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خَرْبتا (بمصر) يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمن سربهم، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم ، لا يستنكرونه فى شئ . وهممت أنأ كتب بذلك إلى شيعتى من أهل العراق فيسمع بذلك جواسيس علىّ عندى وبالعراق ، فبلغ ذلك علياً ونماه إليه محمد ابن أبى بكر ومحمد بن جعفر بن أبى طالب . فلما بلغ ذلك علياً . اتهم قيساً ، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس بن سعد أن يقاتلهم، وكتب إلى علىّ إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحِفاظ منهم رضوا منى أن أومن سِربهم، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمرٍ أهون علىّ وعليك من الذى أفعلُ بهم، ولو أُنى غزوتهم كانوا لى قِرنا ، وهم أُسود العرب منهم بُسر بن ارطاة، ومَسْلَمة ابن مُخَلَّد، ومعاوية بن حُديج . فذرنى فأنا أعلم بما أدرى منهم . فأبى علىّ إلا قتالهم، وأبى قيس أن يقاتلهم، فكتب قيس إلى علىّ إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك ، وابعث إليه غيرى . فبعث علىّ الأشتر أميراً إلى مصر ، حتى إذا صار بالقُلْزُم شرب شربة عسل كان فيها حتفه . فبلغ حديثهم معاوية وعمراً فقال عمرو (إن لله جنداً من عسلٍ فلما بلغ علياً وفاة الأشتر بالقُلزم، بعث محمد ابن أبى بكر أميراً على مصر .

هذه هى الحيلة التى التجأ إليها معاوية للايقاع بين علىّ وقيس، وكانت سبباً فى عزله عن ولاية مصر.

كتاب مختلق على قيس يتلوه معاوية على أهل الشام[1]

وذكر الطبرى أن معاوية اختلق كتابا زعم أنه من قيس وقرأه على أهل الشام وهنا نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم، للأمير معاوية بن أبى سفيان . من قيس ابن سعد . سلام عليك: فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنى لما نظرتُ رأيتُ أنه لا يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مُسلماً مُحَرَّماً برًّا تقياً، فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا. ألا وإنى قد ألقيتُ إليكم بالسلم . وإنى أجبتك إلى قتال قتلة عثمان رضى الله عنه إمام الهدى المظلوم، فعوّل علىّ فيما أحببت من الأموال والرجال، أعجل عليك والسلام » .

وبالطبع لم يكتب قيس هذا الكتاب لكن اختلقه معاوية بقصد التأثير فى أهل الشام، كى يقال إن قيساً انضم إلى معاوية، وأنه يرى رأيه، ويعاونه فى حربه، ولكى يشاع ذلك الخبر فى جميع الأرجاء فيعلم به علىّ رضى الله عنه الذى ولاه مصر فيقيله عنها . وبذلك يتخلص معاوية من قيس

---

(١) أشار مستر واشنطون ايرفنج إلى هذا الكتاب وقال إن معاوية زوره على قيس وأذاعه .

الذى كان من دهاة العرب المشهورين، وإنا لا نبيح اختلاق كتاب كهذا مهما كانت العداوة بين معاوية وعلىّ ، ولا نقر أى سياسى على أن يرتكب ذلك مهما كانت الأسباب وإلا ضاعت ثقة الناس بحكامهم الذين يجلونهم ، وينزهونهم عن الاختلاق ، وهذا الخطاب كما ورد فى تاريخ الطبرى وقد نوّه عنه ابن الأثير ولم يكذبه أحدهما .

عزل قيس عن ولاية مصر :

ولما شاع أمر هذا الكتاب وشاع فى أهل الشام أن قيساً بايع معاوية وبلغ الخبر مسامع علىٍّ دعا بنيه الحسن والحسين ودعا عبدالله بن جعفر فأعلمهم ذلك واستشارهم . فقال له عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . اعزل قيساً عن مصر

فقال علىّ : إنى والله ما أُصدق بهذا على قيس .

فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين اعزله . فوالله إن كان هذا حقًّا لا يعتزل لك إن عزلته .

وبينما هم يتشاورون إذ جاء كتاب من قيس أنه كف عن قتال أهل خربتا بمصر الذين تخلفوا عن البيعة ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن قِبَلى رجالاً معتزلين قد سألونى أن أكف عنهم ، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا رأيهم . فقد رأيت أن أكف عنهم

وألا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك ، لعل الله عز وجل أن يُقبل بقلوبهم ويفرقهم عن ضلاتهم إن شاء الله » .

وكان هذا الرأى من قيس سديداً إلا أن إشاعة ممالأته معاوية جعلت علياً يسىء الظن به ويتهمه ، ولعليّ رضى الله عنه العذر فى ذلك .

فقال عبد الله بن جعفر : ياأمير المؤمنين ما أخوفنى أن يكون هذا ممالأة لهم منه ، فمره ياأمير المؤمنين بقتالهم .

فكتب إليه عليّ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فسر إلى القوم الذين ذكرتَ . فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فناجزهم إن شاء الله » .

فردّ عليه قيس :

« أما بعد : ياأمير المؤمنين فقد عجبت لأمرك ، أتأمرنى بقتال قوم كافين عنك مُفرّغيك لقتال عدوك . وأنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك . فأطعنى ياأمير المؤمنين واكفف عنهم فإن الرأى تركهم والسلام » .

فلما أتاه هذا الكتاب ، قال له عبد الله بن جعفر : ياأمير المؤمنين ، ابعث محمد بن أبى بكر على مصر يكفك أمرها ، واعزل قيساً . والله لقد بلغنى أن قيساً يقول . والله إن سلطاناً لايتم إلا بقتل مَسلمة بن مُخَلَّد لسلطان سوء[1] . والله ماأحب أنّ لى ملك الشام إلى مصر، وأنى قتلت ابن المخلد . وكان

(١) مسلمة بن مخلد الأنصارى الخزرجىّ الساعدى ولد حين قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً وقيل كان له أربع سنين . شهد فتح مصر وسكنها ثم تحول إلى المدينة وكان من أصحاب معاوية قال مجاهد : كنت أرى أنى أحفظ الناس للقرآن حتى صليت خلف مسلمة بن مخلد الصبح فقرأ سورة البقرة فما أخطأ فيها واواً ولا ألفاً .

عبد الله بن جعفر أخا محمد بن أبى بكر لأمه ، فبعث علىٌّ محمد بن أبى بكر إلى مصر ، وعزل عنها قيساً ، وقيل بعث الأشتر النخعى ، فمات بالطريق ، فبعث محمداً .

قدم محمد على قيس بمصر ، فقال له قيس : ما بال أمير المؤمنين ؟ ماغيَّره ؟ أدخل أحد بينى وبينه ؟ قال لا وهذا السلطان سلطانك . قال لا ! والله لا أقيم ، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة وهو غضبان .

قال ابن عبد الحكم : لما ولى قيس مصر اختط بها داراً قبلى الجامع . فلما عُزل كان الناس يقولون إنها له حتى ذكرت له . فقال وأى دار لى بمصر فذكروها له . فقال إنما تلك بنيتها من مال المسلمين لاحق لى فيها .

ويقال إن قيساً لما حضرته الوفاة أوصى فقال : إنى كنت بنيت داراً بمصر وأنا واليها . واستعنت فيها بمعونة المسلمين فهى للمسلمين ينزلها ولاتهم .

ثم رحل قيس إلى علىّ رضى الله عنه وحادثه فى شئون مصر ، وما كان من معاوية فعرف علىّ أن قيساً كان يقاسى أموراً عظاماً من المكايدة ، وأنّ من كان يشير عليه بعزله لم ينصح له . فأبقاه علىّ عنده وكان يستشيره فى أموره .

ولاية محمد بن أبى بكر مصر

١٥ رمضان سنة ٣٧ هـ

لما قدم محمد بن أبى بكر مصر قرأ على أهلها عهده وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هـذا ماعهد عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى محمـد بن أبى بكر حين ولاه مصر . أمره بتقوى الله والطاعة فى السر والعلانية ، وخوف الله عز وجل فى الغيب والمشهد وباللين على المسلمين ، وبالغلظة على الفاجر ، وبالعدل على أهل الذمة ، وبإنصاف المظلوم ، وبالشدة على الظالم ، وبالعفو عن الناس ، وبالإحسان مااستطاع . والله يجزى المحسنين ويعذب المجرمين . وأمره أن يدعو من قِبَله إلى الطاعة والجماعة ، فإن لهم فى ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة ، مالا يقدرون قدره ، ولا يعرفون كنهه . وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبي عليه من قبل لا ينتقص منه ولا يُبتدع فيه ، ثم يقسمه بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل ، وأن يُلين لهم جَناحه ، وأن يواسى بينهم فى مجلسه ووجهه . وليكن القريب والبعيد فى الحق سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحق ، وأن يقوم بالقسط ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخف فى الله عز وجل لومة لائم ، فإن الله جل ثناؤه مع من اتقى وآثر طاعته وأمره على ما سواه . وكتب عبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرة شهر رمضان » .

كانت العادة أن يقرأ الوالى عهد أمير المؤمنين على الرعية، ومما يلاحظ أن فى هـذا العهد وصية أمير المؤمنين بالعدل على أهل الذمة وجباية الخراج من غير إرهاق وعدم التفرقة بين الناس فى الحق فلا يحابى قوماً ولا يظلم آخرين .

ثم قام محمد بن أبى بكر خطيباً فقال :

« الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمى عنه الجاهلون . ألا إن أمير المؤمنين ولانى أموركم وعهد إلىّ ماقد سمعتم، وأوصانى بكثير منه مشافهة ولن آلوكم خيراً مااستطعت، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب . فإن يكن ماترون من إمارتى وأعمالى طاعة لله وتقوى فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك فإنه هو الهادى، وإن رأيتم عاملا لى عمل غير الحق زائغاً فارفعوه إلىّ وعاتبونى فيه فإنى بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته »

ثم نزل .

ارسال جرير بن عبدالله البجلى الى معاوية[1] :

انصرف علىّ رضى الله عنه من الكوفة إلى البصرة بعد أن فرغ من وقعة الجمل .

(١) جرير بن عبدالله أسلم قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين يوماً، وكان حسن الصورة. قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : جرير يوسف هذه الأمة، وهو سيد قومه . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه جرير فأكرمه «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» وكان له فى الحروب بالعراق أثر عظيم . وكانت بجيلة متفرقة، فجمعهم عمر بن الخطاب وجعل عليهم جريراً . وكان جرير بهمذان والياً عليها استعمله عثمان رضى الله عنه.

وأرسل جرير بن عبد الله إلى معاوية يدعوه إلى الدخول فى طاعتـه والبيعة له ، أو الإيذان بالحرب . فسار جرير إلى معاوية بكتاب علىّ، فقدم على معاوية فألفاه وعنده وجوه أهل الشام ، فناوله كتاب علىّ وقال : هـذا كتاب علىّ إليك وإلى أهل الشام يدعوكم إلى الدخول فى طاعته، فقد اجتمع له الحرمان والمصران والحجازان واليمن والبحران وعمان واليمامـة ومصر وفارس والجبل وخراسان ، ولم يبق إلا بلادكم هذه وإن سال عليها وادٍ من أوديته غرّقها .

كتاب علىّ الى معاوية :

تناول معاوية كتاب علىّ رضى الله عنه من جرير فقرأه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبـد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبى سفيان .

« أما بعد : فقد لزمك ومن قِبلك من المسلمين بيعتى ، وأنا بالمدينة وأنتم بالشام ؛ لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فليس للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الأمر فى ذلك للمهاجرين والأنصار . فاذا اجتمعوا على مسلم فسموه إماماً ، كان ذلك لله رضى . فإن خرج من أمرهم أحد بطعن فيه ، أو رغبة عنه رُدَّ إلى ما خرج منه . فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ماتولى ويُصْله جهنم وساءت مصيراً . فادخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار ، فان أحب الأمور فيك

وفيمن قبلك العافية . فان قبلتها وإلا فأذن بحرب ، وقد أكثرتَ فى قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على ما فى كتاب الله وسنة نبيه . فأما تلك التى تريدها فانما هى خدعـــة الصبى عن الرضاع » .

وللكتاب بقية فى رواية أخرى وهى قوله رضى الله عنـه : « ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء الذين لايحل لهم الخلافة ، ولا تعرض فيهم الشورى . وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله البجلى، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قوة إلا بالله » .

فلما قرأ الكتاب قام جرير فخطب فقال :

«الحمد لله المحمود بالعوائد ، المأمول منه الزوائد ، المرتجى منه الثواب ، المستعان على النوائب ، أحمده وأستعينه فى الأمور التى تحيّر دونها الألباب . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بعد فترة من الرسل الماضية والقرون الخالية ، فبلّغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وأدّى الحق الذى استودعه الله ، وأمره بأدائه إلى أمته صلى الله عليه وسلم من رسول ومبتعث ومنتخب ، وعلى آله .

«أيها الناس : إنّ أمر عثمان قد أعيا من شهده ، فكيف بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا علياً غير واتر ولا موتور ، وكان طلحة والزبير ممن بايعاه ،

ثم نكثا بيعته على غير حدث . ألا وإن هذا الدين لايحتمل الفتن ، وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملحة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ، وقد بايعت علياً ، ولو ملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره ، فادخل معاوية فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزلني فإن هذا قول لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرئ مافي يديه ، ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضاً » .

معاوية يستشير عمراً في كتاب علي :

فجمع معاوية إليه أشراف أهل بيته ، فاستشارهم في أمره . فقال أخوه عتبة بن أبي سفيان استعن على أمرك بعمرو بن العاص ،وكان مقيماً مع ولديه في ضيعة له من حيز فلسطين قد اعتزل الفتنة فكتب إليه معاوية : « إنه قد كان من أمر علي في طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ما بلغك ، وقد قدم علينا جرير بن عبد الله في أخذنا ببيعة علي فحبست نفسي عليك ، فأقبل أناظرك في ذلك والسلام » .

فسار عمرو بن العاص ومعه ابناه عبد الله ومحمد حتى قدم على معاوية وقد عرف حاجة معاوية إليه . فقال له معاوية : « أبا عبد الله ، طرقتنا في هذه الأيام ثلاثة أمور ليس فيها وِرد ولا صدَر » .

قال . وما هن ؟ .

فقال معاوية : أما أولهن : فإن محمد بن أبي حذيفة كسر السجن وهرب نحو مصر فيمن كان معه من أصحابه وهو من أعدى الناس لنا . وأما الثانية :

فإن قيصر الروم قد جمع الجنود ليخرج إلينا فيحاربنا على الشام . وأما الثالثة : فإن جرير قدم رسولا لعلىّ بن أبى طالب يدعونا إلى البيعة له أو إيذان بحرب » .

رأى عمرو بن العاص :

قال عمرو يجيب عما سأله عنه معاوية بشأن هرب محمد بن أبى حذيفة واحتشاد جنود قيصر و بيعة على رضى الله عنه :

(١) أما ابن أبى حذيفة . فما يغمك من خروجه من سجنك فى أصحابه ؟ فأرسل فى طلبه الخيل . فإن قدرت عليه قدرت . وإن لم تقدر عليه لم يضرك .

(٢) وأما قيصر . فاكتب إليه تعلمه أنك ترد عليه جميع من فى يديك من أسارى الروم وتسأله الموادعة والمصالحة تجده سريعاً إلى ذلك راضياً بالعفو منك .

(٣) وأما علىّ بن أبى طالب فإن المسلمين لايساوون بينك و بينه .

قال معاوية : إنه مالأ على قتل عثمان وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة ، فقال عمرو : إنه وإن كان كذلك فليست لك مثل سابقته وقرابته ولكن مالى إن شايعتك على أمرك حتى تنال ماتريد ؟ قال حكمك . قال عمرو : اجعل لى مصر طعمة مادامت لك ولاية : فتلكأ معاوية وقال ياأبا عبد الله : لو شئت أن أخدعك خدعتُك . فقال عمرو . مامثلى يُخدع : قال معاوية : ادن منى أسارك . فدنا عمرو منه . فقال هذه خدعة. هل ترى فى البيت غيرى وغيرك ، ثم قال ياأبا عبد الله . أما تعلم أن مصر مثل العراق ؟ قال عمرو غير أنها إنما

تكون لى إذا كانت لك الدنيا وإنما تكون لك إذا غلبت علياً . فتلكأ عليه وانصرف عمرو إلى رحله .

كان عمرو بن العاص كما قدمنا فى كتاب عثمان بن عفان رضى الله عنه ساخطاً على عثمان؛ لأنه عزله عن ولاية مصر وهاهو لايزال طامعا فى الرجوع إليها، فشرط على معاوية إن هو شايعه أن يوليه مصر، فلما تلكأ ولم يجبه إلى ماطلب انصرف ، فقال عتبة لمعاوية : أما ترضى أن تشترى عمراً بمصر إن صَفَتْ لك فليتك لاتُغلب على الشام ؟ .

ثم إن معاوية بعث إلى عمرو بن العاص فأعطاه ماسأل وكتب بينهما كتاباً فى ذلك .

دعوة شرحبيل بن السمط أهل الشام لمحاربة علىّ :

واستشار معاوية عمراً فى أمره وقال ماترى ؟ قال عمرو إنه قد أتاك فى هذه البيعة خير أهل العراق من عند خير الناس ولست أرى لك أن تدعو أهل الشام إلى الخلاف، فإن ذلك خطر عظيم حتى تتقدم قبل ذلك بالتوطين للأَشراف منهم وإشراب قلوبهم اليقين بأن علياً مالأ على قتل عثمان. واعلم أن رأس أهل الشام شُرَحبيل بن السِّمط الكندى[1] فأرسل إليه ليأتيك ثم وَطِّنْ له الرجال على طريقه كله يخبرونه بأن علياً قتل عثمان وليكونوا من

(١) أدرك شرحبيل بن السمط النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكنى أبا يزيد، وكان أميراً على حمص لمعاوية .

أهل الرضا عنده فانها كلمة جامعة لك أهل الشام، وإن تعلق هذه الكلمة بقلبه لم يخرجها شيء أبداً. فدعا يزيد بن أسد، وبُسر بن أبي أرطاة، وسُفين ابن عمرو، ومخارق بن الحارث، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعيد وغير هؤلاء من أهل الرضا عند شرحبيل بن السمط، فوطنهم له على طريقه. ثم كتب إليه يأمره بالقدوم عليه، فكان يلقى الرجل بعد الرجل من هؤلاء في طريقه فيخبرونه أن علياً مالأ على قتل عثمان ثم أشربوا قلبه ذلك. فلما دنا من دمشق أمر معاوية أشراف الشام باستقباله، فاستقبلوه وأظهروا تعظيمه. فكان كلما خلا برجل منهم ألقى إليه هذه الكلمة فأقبل حتى دخل على معاوية مغضباً. فقال: أبى الناس إلا أن ابن أبي طالب قتل عثمان والله لئن بايعتَه لُنخرجنَّك من الشام. فقال معاوية: ما كنت لأخالف أمركم وإنما أنا واحد منكم، فاردد هذا الرجل إلى صاحبه (يعني جريراً).

فعلم عند ذلك معاوية أن أهل الشام مع شرحبيل. فقال لشرحبيل: إن هذا الذي تهم به لا يصلح إلا برضا العامة فسر في مدائن الشام فأعلمهم مانحن عليه من الطلب بثأر خليفتنا وبايعهم على النصرة والمعونة. فسار شرحبيل يستقرى مدن الشام مدينة بعد مدينة ويقول: «أيها الناس إن علياً قتل عثمان، وإنه غضب له قوم فلقيهم وقتلهم وغلب على أرضهم، ولم يبق إلا هذه البلاد، وهو واضع سيفه على عاتقه وخائض به غمرات الموت حتى يأتيكم، ولا يجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية. فانهضوا أيها الناس بثأر خليفتكم المظلوم». فأجابه الناس كلهم إلا نفراً من أهل حمص نُسّاكا فانهم قالوا

نلزم بيوتنا ومساجدنا وأنتم أعلم . فلما ذاق معاوية أهل الشام وعرف مبايعتهم له ، قال لجرير الحق بصاحبك ، وأعلمه أنى وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة .

وبهذه الطريقة نجح معاوية فى الاحتيال على شرحبيل لحمله على بث الدعوة ضد علىّ رضى الله عنه ، فكان شرحبيل كما ذكر يلتى فى طريقه إلى معاوية من يثق بهم فيقولون له إن علياً قتل عثمان حتى أيقن بذلك خلافاً للحقيقة . فلما وصل إلى معاوية ، نهاه عن بيعة علىّ . فقال له معاية «ما كنت لأخالف أمركم » يعنى أنه ينزل على إرادة الأمة مع أن الأمة قد غُرّر بها .

وكان من الوسائل التى لجأ إليها معاوية فى تحريض أهل الشام ، أنه لما قدم عليها النعمان بن بشير بقميص عثمان رضى الله عنه الذى قُتل فيه مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم[1] أصبعان منهاوشىء من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولهما ، ونصف الابهام ، وضع معاوية القميص على المنبر ، وكتب بالخبر إلى الأجناد ، وثاب إليه الناس ، وبكوا سنة وهو على المنبر ، والأصابع معلقة فيه ، وآلى الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغسل إلا من احتلام ، ولا يناموا على الفُرُش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشىء أو تفنى أرواحهم .

---

(١) البراجم : مفرد ، برجمة بالضم: وهى المفاصل الظاهرة من ظهور القصب من أصابع الكف .

عودة جرير الى علىّ رضى الله عنه :

قدم جرير وأخبر علياً خبر معاوية ، واجتماع أهل الشام معه على قتاله ، وأنهم يبكون على عثمان ، ويقولون إن علياً قتله وآوى قتلته ، وأنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه. وكان الأشتر يعارض فى بعث جرير إلى معاوية ويتهمه بممالأته . لكن علياً قال وقتئذ دعه حتى ننظر ما الذى يرجع به إلينا وأرسله . فلما عاد جرير وأخبر علياً بما رأى وسمع ، قال الأشتر كنتُ نهيتك أن تبعث جريراً وأخبرتك بعداوته وغشه ولو كنتَ بعثتنى كان خيراً من هذا الذى أقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتحه ، ولا باباً يخاف منه إلا أغلقه . فقال جرير: لو كنت ثمَّ لقتلوك . لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان رضى الله عنه، فقال الأشتر : لو أتيتُهم والله يا جرير لم يُعينى جوابهم ولحملتُ معاوية على خطة أُعجله فيها عن الفكر. ولو أطاعنى فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك فى محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هـذه الأمور. فخرج جرير إلى قرقيسياء وكتب إلى معاوية فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه .

قدوم أبي مسلم الخولانيّ بكتاب معاوية إلى عليّ رضى الله عنه

(سنة ٣٦ هـ - يناير سنة ٦٥٧ م)

أبو مسلم الخولانى العابد أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وقدم المدينة حين قُبض النبيّ صلى الله عليه وسلم واستُخلف أبو بكر وهو معدود فى كبار التابعين ، يعد فى أهل الشام . واسمه عبد الله ابن ثوب كان فاضلاً ناسكاً عابداً ذا كرامات وفضائل ، وهو الذى ألقاه الأسود بن قيس بن ذى الخمار الذى تنبأ باليمن فى نار عظيمة فلم تضره . فقيل له انفه عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك . فأمره بالرحيل فأتى المدينة وقد قبض النبي صلى الله عليه وسلم واستُخلف أبو بكر، فأناخ أبومسلم راحلته بباب المسجد ودخل المسجد فقام يصلى إلى سارية، وبصر به عمر بن الخطاب فقام إليه فقال : ممن الرجل ؟ قال : من أهل اليمن . قال : مافعل الرجل الذى أحرقه الكذاب بالنار ؟ قال : ذاك عبدالله بن ثوب . قال : أنشدك الله أنت هو ؟ قال : اللهم نعم . فاعتنقه عمر وبكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد من فُعل به مافُعل بإبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) راجع أسد الغابة .

إن أبا مسلم الخولانى هذا أقبل حتى قدم على معاوية لما عزم أهل الشام على نصره والقيام معه ، فدخل عليه فى أناس من العُبّاد فقال له : يامعاوية قد بلغنا أنك تهم بمحاربة علىّ بن أبى طالب . فكيف تناويه وليست لك سابقته ؟ ! فقال لهم معاوية : لست أدعى أنى مثله فى الفضل ولكن هل تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً ؟ قالوا بلى . قال : فليدفع إلينا قتلته حتى نسلم إليه هذا الأمر . قال أبو مسلم : فاكتب إليه بذلك حتى أنطلق أنا بكتابك فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب . سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإن الخليفة عثمان قُتل معك فى المحلة وأنت تسمع من داره الهيعة[1] فلا تدفع عنه بقول ولا بفعل . وأقسم بالله قسماً صادقاً لو قمتَ فى أمره مقاماً صادقاً فنهنهتَ عنه[2] ، ماعدل بك مَن قِبلنا من الناس أحداً وأخرى أنت بها ظنين[3] ، إيواؤك قتلته فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك ، وبلغنا أنك تبتهل من من دمه. فإن كنت صادقاً فأمكنا من قَتلته نقتلهم به ونحن أسرع الناس إليك، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف . فوالله الذى لا إله غيره لنطلبن قتلة عثمان فى البر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله والسلام » .

---

(١) الصوت الذى تخافه من عدوك .
(٢) كففت عنه .
(٣) متهم .

فسار أبو مسلم بكتابه حتى ورد الكوفة ، ودخل على علىّ فناوله الكتاب . فلما قرأه تكلم أبو مسلم فقال : يا أبا الحسن إنك قد قمت بأمر ووليته ، والله ما نحب أنه لغيرك إن أعطيتَ الحق من نفسك . إن عثمان رضى الله عنه قُتل مظلوماً ، فادفع إلينا قتلته ، وأنت أميرنا . فإن خالفك أحد من الناس كانت أيدينا لك ناصرة ، وألسنتنا لك شاهدة . وكنتَ ذا عذر وحجة » .

فقال له علىّ رضى الله عنه : اغد علىّ بالغداة ، وأمر به فأُنزل وأُكرم ، فلما كان من الغد ، دخل إلى علىّ وهو فى المسجد ، فإذا هو بزُهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح وهم ينادون : كلنا قتلة عثمان » .

فقال أبو مسلم لعلىّ : إنى لأرى قوماً مالك معهم أَمر، وأَحسب أنه بلغهم الذى قدمتُ له ففعلوا ذلك خوفاً من أن تدفعهم إلىّ .

قال علىّ : إنى ضربت أنف هذا الأمر وعينه فلم أر دفعهم إليك ، ولا إلى غيرك ، فاجلس حتى أكتب جواب كتابك ، ثم كتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد فإن أخا خولان قد قدم علىّ بكتاب منك تذكر فيه قطعى رحم عثمان وتأليبى الناس عليه . وما فعلتُ ذلك غير أنه رحمه الله عتب الناس عليه ، فمن بين قاتل وخاذل ، فجلست فى بيتى واعتزلت أمره إلا أن تتجنى فتجن مابدا لك . فأما ماسألتَ من دفعى إليك قتلته فإنى لأرى ذلك لعلمى بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة إلى ماتأمل ومِرقاة إلى

ماترجو وما الطلب بدمه تريد ، ولعمرى لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لينزلن بك ماينزل بالشاق العاصى الباغى والسلام » .

يقول علىّ رضى الله عنه فى كتابه هـذا إلى معاوية رداً عليـه : أنت لا يهمك أمر القتلة ، ولكنك اتخذت ذلك ذريعة للوصول إلى الخلافة . لذلك لا أسلم إليك أحداً . أما أنا فقد اعتزلت الفتنة ، ولم يكن لى يد فيها ، فإن لم تبايع اعتبرتك عاصياً .

هذا مضمون الكتاب ، وقد بينت فى كتاب « عثمان بن عفان » مركز علىّ إزاء الفتنة ، ووضحت كيف أنه رضى الله عنه نصح لعثمان مراراً ورد عنه المصريين ، لكن مروان كان يوقع بينه وبين عثمان ، ويهـدد الناس ويوغر صدورهم . ولو أن عثمان رضى الله عنه عمل بمشورة علىّ التى ما كان يرمى بها إلا إلى انقاذه : لانصرف الناقمون عليه إلى بلادهم راضين .

كتاب علىّ رضى الله عنه الى عمرو بن العاص :

وكتب علىّ رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص . أما بعد ، فإن الدنيا مَشْغَلة عن غيرها . صاحبها منهوم فيها لا يصيب منها شيئاً إلا ازداد عليها حرصاً . ولم يستغن بما نال عما لا يبلغ ، ومن وراء ذلك فراق ماجمع ، والسعيد من اتعظ بغيره ، فلا تُحبط عملك بمجاراة معاوية فى باطله ؛ فإنه سَفِه الحق ، واختار الباطل والسلام » .

رد عمرو بن العاص :

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« من عمرو بن العاص إلى علىّ بن أبى طالب . أما بعد ؛ فإن الذى فيه صلاحنا وأُلفةُ ذات بيننا أن تجيب إلى ماندعوك إليه من شورى تحملنا وإياك على الحق ويعذرنا الناس بالصدق والسلام » .

علىّ يحض الناس على المسير الى الشام :

ولما عوّل علىّ رضى الله عنه على المسير إلى الشام بعد أن يئس من بيعة معاوية وعمرو بن العاص وحضرت صلاة الجمعة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« أيها الناس سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ، سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار ، سيروا إلى الجُفاة الطَّغام[1] الذين كان إسلامهم خوفاً ، وكرهاً . سيروا إلى المؤلفة قلوبهم ليكفوا عن بأسهم » .

فقام إليه رجل من فزارة يسمى أرْبَد ، فقال :

« أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم كما سرتَ بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم ؟ كلا . لا نفعل ذلك » .

فقام الأشتر فقال : أيها الناس من لهذا ؟

فهرب الفزارىّ وسعى شُؤْبُوب من الناس[2] فى أثره فلحقوه

(١) الطغام كسحاب : أوغاد الناس وأرذالهم . الواحد والجمع سواء .

(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر ، والمراد هنا جماعة من الناس .

بالكُناسة[1] فضربوه بنعالهم حتى سقط ثم وطِئوه بأرجلهم حتى مات . فأُخبر بذلك علىّ رضى الله عنه فقال قتيل عَمّيّة[2] لا يُدرى من قتله فدفع ديته إلى أهله من بيت المال . وقال بعض شعراء بنى تميم :

أعوذ بربى أن تكون منيتى   كما مات فى سوق البراذين أربدُ

تَعاوره همدانُ خصفَ نعالهم   إذا رُفعت عنه يدٌ وقعت يدُ

وقام الأشتر فقال : « ياأمير المؤمنين لا يوئسنَّك من نصرتنا ما سمعت من هذا الخائن . إن جميع من ترى من الناس شيعتك ، لا يرغبون بأنفسهم عنك ، ولا يحبون البقاء بعدك ، فسر بنا إلى أعدائك . فوالله ما ينجو من الموت من خافه ، ولا يُعطى البقاء من أحبه ، ولا يعيش بالأمل إلا المغرور » .

فأجابه جُل الناس إلى المسير ، إلا أصحاب عبد الله بن مسعود ، وعبيدة السلمانى ، والربيع بن خُثيم فى نحو أربعمائة رجل من القُراء . فقالوا : يا أمير المؤمنين قد شككنا فى هذا القتال مع معرفتنا فضلك ، ولا غنى بك ، ولا بالمسلمين عمن يقاتل المشركين . فولنا بعض هذه الثغور لنقاتل عن أهله . فولاهم ثغر قزوين والرىّ ، وولى عليهم الربيع بن خُثيم ، وعقد له لواء ، وكان أول لواء عقد بالكوفة .

---

(١) موضع الزبالة .

(٢) غواية ولجاج .

النهي عن شتم أهل الشام :

كان عليّ رضى الله عنه محافظاً على الآداب ، كريم الخلق ، يأنف اللعن والشتم . فلما بلغه أن حُجْر بن عديّ ، وعمرو بن الحمق (وهما صحابيان) يظهران شتم معاوية ، ولعن أهل الشام أرسل إليهما أن كفا عما بلغني عنكما . فأتياه فقالا : يا أمير المؤمنين . ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال بلى ، ورب الكعبة المُسدَّنة . قالوا فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم ؟ قال كرهت لكم أن تكونوا شتَّامين لعانين . ولكن قولوا : « اللهم احقن دماءنا ودماءهم . وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن الغيّ من لجَّ به » .

لماذا أعلن عليّ الحرب على معاوية ؟

إن علياً رضى الله عنه لم يشهر الحرب على معاوية ، ولم يقاتله لامتناعه عن بيعته ، بل لامتناعه من إنفاذ أوامره فى جميع أرض الشام . وهو الإمام الواجب طاعته ، ولم ينكر معاوية فضل عليّ واستحقاقه الخلافة ، لكنه رأى تقديم أخذ القوم من قتلة عثمان رضى الله عنه على البيعة ، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان ، والكلام فيه من ولده لسنه ولقوته على الطلب ، أخطأ معاوية فى تقديمه ذلك على البيعة . ولو أن معاوية بايع علياً لقوى به على أخذ الحق من قتلة عثمان .

موقعة صفين[١]

غرة صفر سنة ٣٧ هـ (٢٩ و ٣٠ يوليه سنة ٦٥٧ م)

أمر عليّ رضى الله عنه منادياً فنادى بالخروج إلى المعسكر بالنُخيلة[٢] فخرج الناس مستعدين واستخلف عليّ على الكوفة أبا مسعود الأنصارى وهو من السبعين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، وقدم عليه عبد الله بن عباس بمن نهض معه من أهل البصرة .

وبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فاستشاره فقال : أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك . قال : أما إذاً ياأبا عبد الله فجهز الناس . فجاء عمرو فحضض الناس وضعّف عليا وأصحابه ، وقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا حدّهم . ثم إن أهل البصرة مخالفون لعليّ . قد وترهم وقتلهم وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل وإنما سار فى شرذِمة قليلة منهم من قتل خليفتكم . فاللهَ اللهَ فى حقكم أن تضيعوه وفى دمكم أن تطلبوه ، وكتب فى أجناد أهل الشام وعقد لواءه لعمرو ، فعقد لوردان غلامه فيمن عقد ولابنيه عبد الله ومحمد .

وبعث عليّ زياد بن النضر الحارثى طليعة فى ثمانية آلاف، وبعث معه شُريح بن هانئ فى أربعة آلاف (هذه رواية الطبرى) .

(١) صفين بكسرتين وتشديد الفاء : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى .
(٢) النخيلة تصغير نخلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام .

وفى الأخبار الطوال أنه عقد لكل منهما ستة آلاف فارس وعلى كل حال يبلغ مجموع جيشهما ١٢٫٠٠٠ .

ثم قال علىّ للقائدين : ليسر كل واحد منكما منفرداً عن صاحبه . فإن جمعتكما حرب فأنت يازياد الأمير . واعلما أن مقدّمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم . فإياكما أن تسأما عن توجيه الطلائع ، ولا تسر بالكتائب والقبائل من لدن مسيركما إلى نزولكما إلا بتعبية وحذر ، وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم فى أشرف المواضع. ليكن ذلك لكم حصناً حصينا، وإذا غشيكم الليل لحفوا عسكركم بالرماح والتِّرسة ولْيلهم الرماة وما أقتم ؛ فكذلك فكونوا لأن لا يصاب منكم غرة، واحرسا عسكركما بأنفسكما ولا تذوقا نوماً إلا غراراً ومضمضة وليكن عندى خبركما ، فانى، ولاشيء إلا ما شاء الله ، حثيث السير فى أثركما . ولا تقاتلا حتى تبدآ أو يأتيكما أمرى إن شاء الله » .

هذا أوامر القائد العام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى قائديه بالمقدمة . فلما كان اليوم الثالث من مخرجهما ، قام فى أصحابه خطيباً فقال :

« ياأيها الناس نحن سائرون غداً فى آثار مقدمتنا. فإياكم والتخلف فقد خلفتُ مالك بن حبيب اليربوعى وجعلته على الساقة ، وأمرته ألا يدع أحداً إلا ألحقه بنا » .

فلما انتهى إلى رسوم مدينة بابل ، قال لمن كان يسايره من أصحابه : إن هذه مدينة قد خُسف بها مراراً . فحركوا خيلكم وارخوا أعنتها حتى تجوزوا

موضع المدينة لعلنا ندرك العصر خارجاً منها فحرّك وحركوا دوابهم . فخرج من حد المدينة ، وقد حضرت الصلاة . فنزل فصلى بالناس ثم ركب وسار حتى انتهى إلى دير كعب فجاوزه وأتى ساباط المدائن فنزل فيه الناس ، فلما أصبح ركب وركب الناس معه وعدتهم ٨٠٫٠٠٠ ألف أو يزيدون سوى الأتباع والخدم .

ثم سار حتى أتى مدينة الأنبار ، فلما وافى المدائن عقد لمعقل بن قيس فى ثلاثة آلاف رجل وأمره أن يأخذ على الموصل حتى يوافيه .

فلما انتهى علىّ إلى الرقة أمر أهلها بإنشاء جسر ليعبر إلى الشام ، وقد كانوا ضموا اليهم السفن فنهض من عندهم ليعبر من جسر مَنْبِج[1] وخلَّف عليهم الأشتر فناداهم الأشتر فقال : « ياأهل هذا الحصن . ألا إنى أقسم لكم بالله عز وجل لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم جسراً حتى يعبر لأجردن فيكم السيف ثم لأقتلنّ الرجال ، ولأُخربن ولآخذن الأموال » .

فخاف أهل منبج من تهديد الأشتر ، وعلموا أنه ينفذ قوله فنصبوا الجسر فعبر الجيش بالأثقال . ثم أمر علىّ رضى الله عنه الأشتر فوقف فى

---

(١) منبج : بلدة قديمة. قيل إن أول من بناها كسرى لما غلب على الشام وسماها من به (أى أنا أجود) فعربت . كان عليها سور مبنىّ بالحجارة محكم بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ومنها البحترى . و« الرقة » مدينة على الفرات جنوبى حران .

ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر ، ثم إنه عبر آخر الناس .

ولما قطع علىّ رضى الله عنه الفرات . أمر زياد بن النضر وشُريح بن هانىء أن يسيرا أمامه نحو معاوية على حالهما التى كانا خرجا عليها من الكوفة وكانا حيث سرحهما من الكوفة أخذا على شاطىء الفرات من قِبل البر ممايلى الكوفة حتى بلغا عانات : فبلغهما أخذ علىّ على طريق الجزيرة وبلغهما أيضاً أن معاوية قد أقبل من دِمشق فى جنود أهل الشام لاستقبال علىّ . فقالا لا والله ماهذا لنا برأى وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هـذا البحر (الفرات) وما لناخير فى أن نلق جنود أهل الشام بقلة من معنا متقطعين من العدد والمدد، فذهبوا ليعبروا من عانات فمنعهم أهل عانات وحبسوا عنهم السفن فأقبلوا راجعين حتى عبروا من هِيت[1] ثم لحقوا علياً بقرية دون قرقيسياء وقد أرادوا أهل عانات فتحصنوا وفروا .

ولما لحقت المقدمة علياً قال : مقدمتى تأتينى من ورائى. فتقدم إليه زياد ابن النَّضر الحارثى وشريح بن هانئ فأخبراه بالذى رأيا حين بلغهما من الأمر مابلغهما فقال سددتما ثم مضى علىّ ، فلما عبر الفرات قدمهما أمامه نحو معاوية . فلما انتهيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السُّلَمِىّ عمرو بن سفيان فى جند من أهل الشام. فأرسلا إلى علىّ أنا قد لقينا أبا الأعور السلمى فى جند من أهل الشام وقد دعوناهم فلم يُجبنا منهم أحد فرنا بأمرك .

(١) بلدة على الشاطئ الغربى للفرات فوق الأنبار ــ ذات نخل كثير .

استدعاء الأشتر الى الانضمام الى زياد وشريح :

وعلى ذلك أرسل علىّ رضى الله عنه إلى الأشتر ، فقال : يامالك إن زياداً وشريحاً أرسلا إلىّ يعلمانى أنهما لقيا أبا الأعور السامى فى جمع من أهل الشام وأنبأنى الرسول أنه تركهم متوافقين فالنجاء إلى أصحابك النجاء ، فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم (أى أنه جعله أميراً على الجيش) وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدأوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع . ولا يجرمَنّك شنآنهم[١] على قتالهم قبل دعائهم والاعذار إليهم مرة بعد مرة . واجعل ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً ، ولا تدن منهم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم بعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك فإنى حثيث السير فى أثرك إن شاء الله » .

وكان الرسول الحارث بن جُمهان الجُعفىّ فكتب علىّ إلى زياد وشريح : « أما بعد فإنى قد أمرت عليكما مالكا فاسمعا له وأطيعا ، فإنه ممن لا يُخاف رَهَقه[٢] ولاسِقاطه[٣] ولا بُطؤه عما الإسراع إليه أحزم . ولا الإسراع إلى ما البطاء عنه أمثل ، وقد أمرته بمثل الذى كنتُ أمرتكما به ألاّ يبدأ القومَ حتى يلقاهم فيدعوهم ويُعذر إليهم » .

نشوب الحرب :

خرج الأشتر حتى قدم على القوم ، فاتبع ما أمره علىّ وكف عن القتال

(١) أى لايحملنك بغضهم .
(٢) الرهق : حمل الانسان ما لايطيق .
(٣) زلته وعثرته .

فلم يزالوا متوافقين ، حتى إذا كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السلمى فثبتوا له واضطربوا ساعة ، ثم إن أهل الشأم انصرفوا ، ثم خرج إليهم من الغد هاشم بن عُتبة الزهرى فى خيل ورجال حَسُن عددها وعُدتها ، وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم ذلك ، تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال وصبر القوم بعضهم لبعض ، ثم انصرفوا وحمل عليهم الأشتر فقُتل عبد الله ابن المنذر التَّنوخىّ . قتله ظبيان بن عُمارة التميمى . وماهو إلا فتى حَدث وإن كان التنوخى لَفارس أهل الشام . وأخذ الأشتر يقول : ويحكم ! أرونى أباالأعور. ثم إن أبا الأعور دعا الناس فرجعوا نحوه فوقف من وراء المكان الذى كان فيه أول مرة .

وجاء الأشتر حتى صف أصحابه فى المكان الذى كان فيه أبوالأعور فقال الأشتر لِسنان بن مالك النخعىّ . انطلق إلى أبى الأعور فادعه إلى المبارزة .

أبو الأعور يرفض مبارزة الأشتر :

ظن سنان بن مالك أن الأشتر يطلب إليه أن يبارز الأعور . فقال له : إلى مبارزتى أو مبارزتك ؟

فقال له الأشتر : لو أمرتك بمبارزته فعلتَ ؟ قال . نعم والله لو أمرتنى أن اعترض صفهم بسيفى مارجعتُ أبداً حتى أضرب بسيفى فى صفهم .

قال الأشتر : يا ابن أخى . أطال الله بقاءك والله ازددتُ رغبة فيك لاأمرتك بمبارزته ، إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتى ، إنه لايبرز إن كان ذلك من شأنه إلا لذوى الأسنان والكفاءة والشرف ، وأنت لربك الحمد

من أهل الكفاءة والشرف ، غير أنك فتى حدَث السن فليس بمبارز الأحداث ولكن ادعه إلى مبارزتى .

فأتاه سنان فنادى آمنونى فإنى رسول فأومن . فجاء حتى انتهى إلى أبى الأعور .

قال سنان : فدنوت منه فقلت إن الأشتر يدعوك إلى مبارزته ، قال فسكت عنى طويلا ثم قال : « إن خفة الأشتر وسوء رأيه هو حمله على إجلاء عمال ابن عفان رضى الله عنه من العراق وانتزائه عليه يقبح محاسنه . ومن خفة الأشتر وسوء رأيه أن سار إلى ابن عفان رضى الله عنه فى داره وقراره حتى قتله فيمن قتله فأصبح متبعاً بدمه ألا لاحاجة لى فى مبارزته » .

أبى أبو الأعور المبارزة ورمى الأشتر بسوء الرأى واتهمه بقتل عثمان رضى الله عنه والحقيقة أنه لم يكن من القتلة بل كان من الساخطين عليه .

فقال له سنان : إنك قد تكلمت فاسمع حتى أجيبك .

فقال : لا . لاحاجة لى فى الاستماع منك ، ولا فى جوابك . اذهب عنى .

قال : فصاح بى أصحابه ، فانصرفتُ عنه ولو سمع إلىّ لأخبرته بعذر صاحبي وحجته . فرجعت إلى الأشتر فأخبرته أنه قد أبى المبارزة . فقال : لنفسه نظر .

قدوم علىّ والقتال على الماء :

لحق علىّ بالأشتر سريعاً فوقف وتواقفوا طويلاً ، ثم إن علياً طلب موضعاً لعسكره . فلما وجده أمر الناس فوضعوا الأثقال فلما فعلوا ذهب شباب

الناس يستقون فمنعهم أهل الشام فاقتتلوا على الماء . وكان عسكر معاوية اختاروا قبل قدوم جيش علىّ موضعاً سهلاً إلى جانب شريعة فى الفرات ليس فى ذلك الصقع شريعة (مورد للماء) غيرها وجعلها فى حيّزه (استولى عليها) ولم يجد جيش علىّ مورداً للماء غير ذلك المورد . فلما عطش الناس قاتلوهم عليها وتراشق الجيشان بالنبال وتلاقوا بالسيوف . وكان جيش معاوية المانع للماء ١٠٫٠٠٠ .

ولما أقبل معاوية بالخيل كان على مقدمته سفيان بن عمرو وعلى ساقته بُسر بن أبى أرطاة العامرى .

وقال الوليد لمعاوية: امنعهم الماء كما منعوه أمير المؤمنين عثمان . اقتلهم عطشاً قتلهم الله . فقال معاوية لعمرو بن العاص : ماترى ؟ قال أرى أن تُخلى عن الماء فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريّان . فقال عبد الله بن أبى سرح : امنعهم الماء إلى الليل لعلهم أن ينصرفوا إلى طرف الغيضة فيكون انصرافهم هزيمة ، وكان علىّ رضى الله عنه أرسل صعصعة إلى معاوية ليخلى عن الماء فقال له معاوية :ارجع فسيأتيكم رأيى. فانصرف صعصعة إلى علىّ فأخبره بذلك وظل أهل العراق يومهم ذلك وليلتهم بلا ماء إلا من كان ينصرف من الغلمان إلى طرف الغيضة فيمشى مقدار فرسخين فيستقى . فغمَّ علياً رضى الله عنه أمر الناس غماً شديداً ، وضاق بما أصاب الناس من العطش ذرعاً . فأتاه الأشعث بن قيس فقال : ياأمير المؤمنين ! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا

سيوفنا ؟ ولّنى الزحف إليه فوالله لاأرجع أو أموت . ومُر الأشتر فلينضم إلىّ فى خيله .

فقال له علىّ : إيت فى ذلك مارأيت . فلما أصبح زاحف أبا الأعور فاقتتلوا وصدقهم الأشتر والأشعث حتى نفيا أبا الأعور وأصحابهُ عن الشريعة وصارت فى أيديهما .

فقال عمرو بن العاص لمعاوية : ماظنك بالقوم اليوم إن منعوك الماء كما منعتهم أمس ؟ .

فقال معاوية دع مامضى ، ماظنك بعلىّ ؟ قال ظنى أنه لايستحل منك ما استحللت منه لأنه أتاك فى غير أمر الماء .

علىّ لايقابل المثل بالمثل ولا يمنع الماء بعد أن ملكه :

بعد ذلك كف الناس عن القتال ، وأمر علىّ رضى الله عنه أنه لايُمنع أهل الشام من الماء ، فكانوا يسقون جميعاً ويختلط بعضهم ببعض ويدخل بعضهم فى عسكر بعض فلا يعرض أحد من الفريقين لصاحبه إلا بخير ورجوا أن يقع الصلح .

ولو أن علياً رضى الله عنه منع أهل الشام الماء وعامل جيش معاوية كما عاملوه لأذاقهم العطش وهزمهم . لكنه تركهم يشربون ، وقال لجيشه : «خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم فإن الله عزوجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم» .

القراء يمنعون القتال :

ثم تراسل الفريقان شهر ربيع وجمادى الأولى وكلما زحف بعضهم إلى بعض ، حجز بينهم القراء والصالحون فيفترقون من غير حرب حتى فزعوا فى هذه الثلاثة الأشهر خمساً وثمانين فزعة كل ذلك يحجز بينهم القراء .

فلما انقضت جمادى الأولى بات علىّ رضى الله عنه يعبى أصحابه ويكتّب كتائبة وبعث إلى معاوية يؤذنه بحرب فعبى معاوية أيضاً أصحابه وكتّب كتائبه ، فلموا أصبحوا تزاحفوا وتواقفوا تحت راياتهم فى صفوفهم ، ثم تحاجزوا فلم تكن حرب ، وكانوا يكرهون أن يلتقوا بجميع الفيلقين مخافة الاستئصال غير أنه يخرج الجماعة من هؤلاء إلى الجماعة من أولئك ، فيقتتلون بين العسكرين ، فكانوا كذلك حتى أهل هلال رجب فأمسك الفريقان عن القتال .

ومن هـذا يتضح أن الفريقين كانا غير راغبين فى القتال وكان علىّ لا يبغى إلا أن يبايعه معاوية وأهل الشام ، كما بايعه غيرهم من أهل الأمصار لسابقته وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وجهاده فى الغزوات وكان معاوية يطلب إليه أن يسلمه قتلة عثمان ، وإن كان فى الحقيقة يبغى الخلافة .

دعاء عليّ معاوية إلى الطاعة والجماعة

(سنة ٣٧ هـ)

ثم إن علياً دعا بَشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشَبَث بن رِبْعىّ التميمى ، فقال ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة .

فقال له سَبَث بن ربعى : ياأمير المؤمنين ألا تطمعه فى سلطان توليه إياه ومنزلة يكون له بها أثره عندك إن هو بايعك ؟ .

فقال عليّ : ائتوه فالقوه واحتجوا عليه وانظروا مارأيه ، وكان ذلك فى أول ذى الحجة .

فأتوه ودخلوا عليه . فحمد الله وأثنى عليه أبو عُمْرة بشير بن عمرو وقال :

« يامعاوية ! إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عز وجل محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك ، وإنى أنشدك الله عز وجل أن تفرّق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها » .

فقطع معاوية عليه الكلام وقال :

« هلا أوصيت بذلك صاحبك به ؟ » .

فقال أبو عمرة : « إن صاحبي ليس مثلك . إن صاحبي أحق بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم » .

قال : « فيقول ماذا ؟ » .

قال : « يأمرك بتقوى الله عز وجل وإجابة ابن عمك إلى مايدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك » .

قال معاوية : « ونطل دم عثمان رضى الله عنه ؟ لا والله لاأفعل ذلك أبداً » .

فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعى فتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« يامعاوية إننى قد فهمت مارددت به على ابن محصن ، إنه والله لايخفى علينا ماتعزو وما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قومك ، قُتل إمامكم مظلوماً ، فنحن نطلب بدمه فاستجاب له سفهاء طغام ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببتَ له القتل لهذه المنزلة التى أصبحتَ تطلب . ورُبَّ متمنى أمر وطالبه ، الله عز وجل يحول دونه بقدرته ، وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته ، ووالله مالك فى واحدة منهما خير ، لئن أخطأتَ ماترجو ، إنك شر العرب حالاً فى ذلك ، ولئن أصبت ما تمنى لاتصيبه حتى تستحق من ربك صُلِيَّ النار . فاتق الله يامعاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله » .

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإن أول ماعرفتُ فيه سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه ، ثم عَنيتَ بعد فيما لاعلم لك به ، فقد

كذبت ولؤمت أيها الأعرابىّ الجلف الجافى فى كل ماذكرتَ ووصفت .
انصرفوا من عندى فليس بينى وبينكم إلا السيف » وغضب

كان خطاب شبث لمعاوية أبلغ خطاب وقد ألزمه الحجة ألاترى قوله :
إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس الخ » لكن معاوية لما لم يجد لهذا الكلام جواباً ، غضب وصرفهم بعد أن هددهم بالحرب ، لذلك خرج شبث وهو يقول :

« أفعلينا تُهَوّل بالسيف ؟ أقسم بالله ليُعْجَلَنَّ بها إليك » .

كلام عدى بن حاتم :

وكان ممن بعثه علىّ رضى الله عنه عدىّ بن حاتم ، فلما دخل على معاوية مع الوفد ، حمد الله عدىّ ثم قال :

أما بعد ، فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل كلمتنا وأمّتنا ويحقن به الدماء ويأمن به السبل ويصلح به ذات البين ، إن ابن عمك سيّد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله عز وجل بالذى رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، يامعاوية لايصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل »

فقال معاوية :

« كأنك إنما جئت متهدداً لم تأت مصلحاً هيهات ياعدىّ كلا والله إنى

لابن حرب ما يُقعقع لى بالشِّنان[١] . أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان رضى الله عنه وإنك لمن قَتلته ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به ، هيهات ياعدىّ بن حاتم قد حلبت بالساعد الأشد »

فقال له شبث بن ربعى وزياد بن حفصة وتنازعا جواباً واحداً: «أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال ، دع مالا ينتفع به من القول وأجبنا فيما يعمّنا وإياك نفعه »

كلام يزيد بن قيس :

قال يزيد بن قيس يخاطب معاوية :

« إنا لم نأتك إلا لنبلغك مابعثنا به إليك ولنؤدى عنك ماسمعنا منك ، ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ماظننا أن لنا عليك به حجة وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة ، إن صاحبنا مَن قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلىّ ولن يميلوا بينك وبينه ، فاتق الله يامعاوية ولا تخالف علياً فإنا والله مارأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخـــــير كلها منه »

فقال معاوية بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة . فأما الجماعة التى دعوتم

---

(١) ما يقعقع له بالشنان ، مثل يضرب لمن لا يعنو لنوائب الدهر ولا يروعه ما لاحقيقة له .

إليها فمعنا هى . وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ، إن صاحبكم قتل خليفتنا (وهذا ما كرره فى كل خطبة له) وفرّق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا . وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » قال ذلك ولم ينكر شيئاً من فضائل علىّ .

رد شبث على معاوية :

فقال له شبث : « أيسرك يامعاوية أنك لو أمكنت من عمّار تقتله ؟ »

فقال معاوية : « ومايمنعنى من ذلك ؟ والله لو أمكنت من ابن سُميّة ما قتلته بعثمان رضى الله عنه ولكن كنت قاتله بناتل مولى عثمان »

فقال شبث : وإله الأرض وإله السماء أما عدلتَ معتدلا . لا والذى لا إله الا هو لاتصل إلى عمار حتى تندُر الهام عن كواهل الأقوال وتضيق الأرض الفضاء عليك برُحبها » .

فقال معاوية : « إنه لو قد كان ذلك ، كانت الأرض عليك أضيق » .

أصرّ معاوية على عدم مبايعة علىّ وعاد الوفد من غير أن يتمكن بأن يعقد صلحا معه حقناً للدماء .

وفد معاوية الى علىّ :

وبعد أن انصرف القوم عن معاوية ، بعث إلى علىّ رضى الله عنه حبيب ابن مسلمة الفهرى وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس فدخلوا

عليه فحمد اللهَ حبيب وأثنى عليه ثم قال :[١]

« أما بعد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مهديًّا يعمل بكتاب الله عز وجل ويُنيب إلى أمر الله تعالى ، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم مَن أجمع عليه رأيهم » .

فقال له عليّ :

« وما أنت لاأُمَّ لك والعزل وهذا الأمر ! اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له » .

فقام وقال له : « والله لتريَنّي بحيث تكره » .

فقال عليّ : « وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك . لاأبقى الله عليك إن أبقيتَ عَلَيَّ . أحُقرةً وسوءاً . اذهب فصوِّب وصعِّد مابدا لك » .

فقال شرحبيل بن السمط : « إن كلمتُك فلعمرى ما كلامى إلا مثل كلام صاحبي قبلُ . فهل عندك جواب غير الذى أجبتَه به ؟ » .

---

(١) حبيب بن مسلمة القرشيّ يكنى أبا عبد الرحمن سيره عثمان إلى أذربيجان من الشام وبعث سلمان ابن ربيعة الباهلى من الكوفة أمد به حبيب بن مسلمة فاختلفا فى الفىء وتوعد بعضهم بعضاً وتهددوا سلمان بالقتل فقال رجل من أصحاب سلمان :

فان تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم ... وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وهذا هو أول اختلاف كان بين أهل العراق وأهل الشام . وكان أهل الشام يثنون عليه ثناء كثيراً ويقولون هو مجاب الدعوة ولما حصر عثمان أمده معاوية بجيش واستعمل عليهم حبيب بن مسلمة لينصروه فلما بلغ وادى القرى لقيه الخبر بقتل عثمان فرجع ولم يزل مع معاوية فى حروبه كلها بصفين .

فقال علىٌّ : « نعم لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبته به ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد، فإن الله جلّ ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق فأنقذ به فى الضلالة وانتاش به من الهلكة وجمع به من الفرقة . ثم قبضه الله إليه وقد أدى ماعليه صلى الله عليه وسلم ، ثم استخلف الناس أبا بكر رضى الله عنه واستخلف أبو بكر عمر رضى الله عنه فأحسنا السيرة وعدلا فى الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفرنا ذلك لهما ، وولى عثمان رضى الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه فساروا إليه فقتلوه ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لى : بايع ، فأبيت عليهم . فقالوا لى : بايع فإن الأمة لاترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس . فبايعتهم فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله عز وجل له سابقة فى الدين وسلف صدق فى الإسلام . طليق ابن طليق . حزب فى هذه الأحزاب . لم يزل لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين عدوًّا هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهَيْن . فلا غرو إلا خلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم صلى الله عليه وسلم الذين لاينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا تعدلوا بهم من الناس أحداً ألا إنى أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ولكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة »

فقالا : أشهد أن عثمان رضى الله عنه قتل مظلوماً .

فقال لهما : « لاأقول إنه قتل مظلوماً ولا إنه قتل ظالماً »

قالا : « فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه بُرآء »

ثم قاما فانصرفا ، فقال عليّ :

« إنك لاتُسمع الموتى ولا تُسمع الصُّم الدعاء إذا ولّوا مدبرين، وماأنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون »

ثم أقبل عليّ على أصحابه فقال : « لا يكن هؤلاء أولى بالجد فى ضلالهم منكم بالجد فى حقكم وطاعة ربكم » .

وعلى ذلك أخفقت مفاوضات الصلح التى استمرت شهراً ، واستعد كل للقتال .

استعداد على رضى الله عنه :

استعمل عليّ على الخيل عمار بن ياسر .

وعلى الرجالة عبد الله بن بُديل بن ورقاء الخزاعى

ودفع الراية العظمى إلى هاشم بن عتبة المِرقال .

وجعل على الميمنة ، الأشعث بن قيس .

وعلى الميسرة ، عبد الله بن عباس .

وعلى رجالة الميمنة ، سليمان بن صُرَد

وعلى رجالة الميسرة ، الحارث بن مُرة العبدى

وجعل فى القلب ، مضر وفى الميمنة ربيعة وفى الميسرة أهل اليمن ، وضم

قريشاً وأسداً وكنانة إلى عبدالله بن عباس، وضم كندة إلى الأشعث ، وضم تميم البصرة إلى الأحنف بن قيس ، وولى أمر خزاعة ، عمرو بن الحمق . وولى بكر الكوفة ، نعيم بن هبيرة . وولى سعد رباب البصرة ، خارجة ابن قدامة . وولى بَجيلة ، رفاعة بن شداد ، وولى ذُهل الكوفة ، رويماً الشيبانى وولى حنظلة البصرة ، أعْيَن بن ضبيعة ، وجعل على قضاعة كلها ، عدّى بن حاتم ، وجعل على لهازم الكوفة عبد الله بن بُديل ، وعلى تميم الكوفة ، عُمير بن عُطارد ، وعلى الأزد جُندُب بن زهير ، وعلى ذُهل البصرة خالد بن مَعْمَر ، وعلى حنظلة الكوفة ، شبث بن ربعى ، وعلى همدان سعد ابن قيس ، وعلى لهازم البصرة ، خزيمة بن خازم ، وعلى سعد رباب الكوفة أبا حِرْمَة ، واسمه الطفيل ، وعلى مذحج ، الأشتر ، وعلى عبد قيس الكوفة عبد الله بن الطفيل ، وعلى عبد قيس البصرة ، عمرو بن حنظلة ، وعلى قيس البصرة ، شداداً الهلالى ، وعلى اللفيف من القواصى ، القسم بن حنظلة الجهنى

استعداد معاوية :

واستعمل معاوية على الخيل ، عبد الله بن عمرو بن العاص .

وعلى الرجالة ، مسلم بن عقبة .

وعلى الميمنة ، عبيد الله بن عمر بن الخطاب .

وعلى الميسرة ، حبيب بن مسلمة

ودفع اللواء الأعظم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

واستعمل على أهل دمشق ، الضحاك بن قيس .

وعلى أهل حمص ذا الكلاع .

وعلى أهل قِنّسرين ، زُفَر بن الحارث .

وعلى أهل الأردن ، سفيان بن عمرو .

وعلى أهل فلسطين ، مسلمة بن خالد .

وعلى رجالة دمشق ، بُسر بن أبى أرطاة . وعلى رجالة حمص ، حوشبا ذا ظليم ، وعلى رجالة قنسرين ، طريف بن حابس ، وعلى رجالة الأردن ، عبدالرحمن القينى ، وعلى رجاله فلسطين، الحارث بن خالد الأزدى ، وعلى قيس دمشق ، همام بن قبيصة . وعلى قيس حمص ، هلال بن أبى هبيرة . وعلى رجالة الميمنة ، حابس بن ربيعة ، وعلى قضاعة دمشق ، حسان بن بَحْدَل ، وعلى قضاعة حمص ، عباد بن يزيد . وعلى كندة دمشق ، عبد الله بن جَون السكسكى ، وعلى كندة حمص ، يزيد بن هبيرة ، وعلى النَمِر بن قاسط ، يزيد ابن أبى أسد العجلى . وعلى حمير . هانئ بن عمير، وعلى قضاعة الأردن ،مخارق ابن الحارث . وعلى لخم فلسطين ، نابل بن قيس ، وعلى همدان الأردن ، حمزة ابن مالك ، وعلى غسان الأردن ، زيد بن الحارث ، وعلى أهل القواصى ، القعقاع بن أبرهة . وعلى الخيل كلها ، عمرو بن العاص ، وعلى الرجالة كلها ، الضحاك بن قيس .

عدى بن حاتم والنزاع على الراية فى صفوف على رضى الله عنه :

بعد أن عيّن علىّ رضى الله عنه قواده بالكيفية المتقدمة ووزع الرايات واثب عائذ بن قيس الجرمزى عَدىّ بن حاتم فى الراية بصفين . وكانت جِرْمِز

أكثر من بنى عَدىٍّ رهط حاتم . فوثب عليهم عبد الله بن خليفة المطأى البولانى عند علىّ فقال :

« يابنى جرمز . على عدىّ تتوثبون ؟ وهل فيكم مثل عدىّ أو فى آبائهم مثل أبى عدىّ ؟ أليس بحامى القربة ومانع الماء يوم روّيته ؟ أليس بابن ذى المِرباع وابن جواد العرب ؟ أليس بابن المنهب ماله ومانع جاره ؟ أليس مَن لم يغدر ولم يفجر ولم يجهل ولم يبخل ولم يمنن ولم يجبن ؟ هاتوا فى آبائكم مثل أبيه . أو هاتوا فيكم مثله . أليس برأسكم يوم النّخيله . ويوم القادسية ، ويوم المدائن يوم جلولاء الوقيعة ويوم نهاوند ويوم تُسْتَر ؟ فمالكم وله ؟ والله مامن قومكم أحد يطلب مثل الذى تطلبون ؟ ! »

فقال له علىّ رضى الله عنه .

« حسبك يابن خليفة . هلم أيها القوم إلىّ . وعَلَىَّ بجماعة طيئ » فأتوه جميعاً فقال علىّ .

« من كان رأسكم فى هذه المواطن ؟ »

قالت له طيئ : « عدىّ » .

فقال له ابن خليفة : « فسلم يا أمير المؤمنين . أليسوا راضين مسلمين لعدىّ الرياسة ففعل ؟ »

فقالوا : « نعم » .

فقال لهم : عدىّ أحقكم بالراية فسلموها له » .

فضجت بنو الجرمز ، وعندئذ قال لهم أمير المؤمنين على رضى الله عنه :

« إنى أراه رأسكم قبل اليوم ولا أرى قومه كلهم إلا مسلمين له غيركم ، فأتبع فى ذلك الكثرة » فأخذ الراية عدى[١]

وصية أمير المؤمنين الى جيشه :

عن عبد الرحمن بن جُندب الأزدى عن أبيه أن علياً كان يأمرنا فى كل موطن لقينا فيه معه عدواً فيقول :

« لاتقاتلوا القوم حتى يبدءوكم . فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة وتركم إياهم حتى يبدءوكم حُجة أخرى لكم ، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل . فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن . ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ماوجدتم فى عسكركم ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس » .

هذه آداب الحرب عند المسلمين ، وهى آداب سامية تنهى عن استعمال

(١) عدى بن حاتم الطائى وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود الذى يضرب به المثل . وفد عدى على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع فى شعبان فأسلم وكان نصرانياً . ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم على أبى بكر الصديق وقت الردة بصدقة قومه وثبت على الاسلام ولم يرتد وثبت قومه معه . وكان جواداً شريفاً فى قومه معظما عندهم وعندغيرهم حاضر الجواب . روى عنه أنه قال : « مادخل علىّ وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها » وكان رسول الله يكرمه إذا دخل عليه . ولما كان زمن عمر بن الخطاب قدم عدى فلما دخل عليه رأى منه جفاء فقال ياأمير المؤمنين أما تعرفنى ؟ قال بلى والله أعرفك . أكرمك الله بأحسن المعرفة . أعرفك والله أسلمت إذ كفروا ، وعرفت إذ أنكروا ، ووفيت إذ غدروا ، وأقبلت إذ أدبروا . فقال حسبى ياأمير المؤمنين حسبى . وشهد فتوح العراق والقادسية ووقعة مهران الخ الخ .

القسوة والتمثيل وتراعى الشفقة على النساء وإن سببن الرجال .

أما الآن فلا تراعى هذه الآداب الأمم المتحضرة فإنها تجهز على الجرحى ، وتستعمل كل آلات التخريب والتدمير وتلقى القنابل والغازات السامة على المدن والقرى الوادعة ، والأهالى المسالمين بغير حساب . فيذهب فريستها النساء والأطفال والشيوخ ، والمرضى ، والمستشفيات ، ومع ذلك يزعمون أنهم أنصار الإنسانية ورسل المدنية !! . .

وعن أبى صادق الحضرمى قال : سمعت علياً يحض الناس فى ثلاثة مواطن : يحرّض الناس يوم صفين ، ويوم الجمل ، ويوم النهر يقول :

« عباد الله . اتقوا الله وغضوا الأبصار ، واخفضوا الأصوات ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة ، والمجاولة ، والمبارزة ، والمناضلة ، والمبالدة والمعانقة ، والمكادمة ، والملازمة [1] . فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر » .

القتال بعد الهدنة :

اصطف الفريقان استعداداً للقتال بعد انسلاخ شهر المحرم وبعد أن فشلت مفاوضات الصلح وعوّل علىّ على الدخول فى موقعة حاسمة :

---

(١) المنازلة أن ينزل الفريقان عن إبلهما إلى خيلهما فيتضاربوا ، والمجاولة أن يجول بعضهم على بعض ، والمناضلة المباراة فى رمى السهام ، والمبالدة المباطلة بالسيف أو العصا ، والمكادمة من الكدم وهو العض ، والملازمة المعانقة .

ففى اليوم الأول ـ وكان يوم الأربعاء ـ كان على من خرج من أهل الكوفة يومئذ (الأشتر) وعلى أهل الشام (حبيب بن مسلمة) فاقتتلوا اقتتالاً شديداً ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب .

وفى اليوم الثانى ـ يوم الخميس ـ صلى علىٌّ وخرج بالناس إلى أهل الشام وكان على ميمنة علىٍّ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى وعلى ميسرته عبد الله بن عباس ، والقراء مع ثلاثة نفر : عمار ، وقيس بن سعد ، وعبد الله ابن بديل ، والناس على راياتهم ومراكزهم ، وعلىّ فى القلب فى أهل المدينة بين أهل الكوفة ، والبصرة . وأكثر من معه من أهل المدينة ، الأنصار ومعه عدد من خزاعة وكنانة وغيرهم من أهل المدينة وزحف إليهم .

ورفع معاوية قبة عظيمة فألقى عليها الثياب وبايعه أكثر أهل الشام على الموت ، وأحاط بقبته خيل دمشق .

وزحف عبد الله بن بديل فى الميمنة نحو حبيب بن مسلمة وهو فى ميسرة معاوية فلم يزل يحوزه ويكشف خيله حتى اضطرهم إلى قبة معاوية عند الظهر ، وحرّض عبد الله بن بديل أصحابه فقال :

« ألا إن معاوية ادّعى ماليس له ، ونازع الحق أهله ، وعاند من ليس مثله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحق ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب الذين قد زين لهم الضلالة وزرع فى قلوبهم حب الفتنة ، ولبّس عليهم الأمر وزادهم رجساً إلى رجسهم ، فقاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشوهم . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديهم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » .

وحرّض عليّ أصحابه فقال فى كلام له :

فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، والتووا فى الأطراف فإنه أصون للألسنة ، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش ، وأسكن للقلب ، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل ، وأولوا بالوقار . راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإن بعد الصبر ينزل عليكم النصر » .

وقام يزيد بن قيس يحرّض الناس فقال :

« إن المسلم من سلم فى دينه ورأيه ، وإن هؤلاء القوم والله لا يقاتلونا على إقامة دين ضيعناه ، وإحياء حق أمتناه ، إن يقاتلوننا إلا على هـذه الدنيا ليكونوا جبارين فيها ملوكاً . فلو ظهروا عليكم - ولا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً - ألزموكم بمثل سعيد والوليد وابن عامر السفيه الضال[1] يجيز أحدهم بمثل ديته ودية أبيه وجده فى جلسة ثم يقول: هذا لى ولا إثم عليّ كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه ، وإنما هو مال الله أفاءه علينا بأرماحنا وسيوفنا . فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين ، فإنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم وهم من قد عرفتم وخبرتم ، والله ما ازدادوا إلى يومهم إلا شراً »

وقاتلهم عبد الله بن بديل فى الميمنة قتالا شـديداً حتى انتهى إلى قبة معاوية وأقبل الذين تبايعوا على الموت إلى معاوية فأمرهم أن يصمدوا لابن بديل

(١) هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم يزيد بن قيس هم ولاة عثمان بن عفان .

فى الميمنة ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة فى الميسرة فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس فهزمهم وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل فى ٢٣٠ من القراء قد أسند بعضهم إلى بعض وانجفل الناس .

وأمر علىّ سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة فاستقبلتهم جموع لأهل الشام عظيمة فاحتملتهم حتى وافقتهم فى الميمنة . وكان فيما بين الميمنة إلى موقف علىّ فى القلب أهل اليمن ، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علىّ فانصرف علىّ يمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر من الميسرة وثبتت ربيعة ، وكان الحسن والحسين ومحمد بنو علىّ معه حين قصد الميسرة والنبل يمر بين عاتقه ومنكبيه ، وما من بنيه أحد إلا يقيه بنفسه فيرده ، فبصر به أحمر مولى أبى سفيان أو عثمان فأقبل نحوه فخرج إليه كيسان مولى علىّ فاختلفا بينهما ضربتان فقتله أحمر ، فأخذ علىّ بجيب درع أحمر فجذبه وحمله على عاتقه ثم ضرب به الأرض فكسر منكبيه وعضديه وشدّ ابنا علىّ عليه ، حسين ومحمد ، فضرباه بأسيافهما حتى قتلاه .

ثم دنا منه أهل الشام ، فما زاد قربهم منه إلا سرعة فى مشيه فقال له الحسن . « ماضرك لو سعيت حتى تنتهى إلى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوك من أصحابك ؟

فقال « يابنى إن لأبيك يوماً لن يعدُوَه ، ولا يُبطّئ به عنه السعى

ولا يُعجّل به إليه المشى . إن أباك والله ما يبالى أوقع على الموت ، أو وقع الموت عليه » .

ولما وصل علىّ رضى عنه إلى ربيعة نادى بصوت عال كغير المكترث لما فيه الناس : « لمن هذه الرايات ؟ » .

قالوا : « رايات ربيعة » .

قال : « بل رايات عصم الله أهلها فصبرهم وثبت أقدامهم » .

وقال للحسين بن المنذر .

« يافتى ألا تدنى رايتك هذه ذراعاً ؟ »

فقال: « بلى والله . وعشرة أذرع » فأدناها حتى قال : حسبك مكانك»

الأشتر يثبت المنهزمين من جيش على :

قال علىّ للأشتر لما رأى المنهزمين من جيشه «يامالك» . قال : «لبيك ياأمير المؤمنين » .

قال : «ائت القوم فقل لهم . أين فراركم من الموت الذى لن تعجزوه إلى الحياة التى لاتبقى لكم » .

فمضى الأشتر فنادى :

« أيها الناس ما أقبح ماقاتلتم منذ اليوم أخلصوا إلىّ مَذْحِجاً (فأقبلت مَذْحِج إليه) فقال لهم : « ما أرضيتم ربكم ولا نصحتم له فى عدوّكم وكيف بذلك وأنتم أبناء الحروب وأصحاب الغارات وفتيان الصباح وفرسان الطراد وحتوف الأقران ، ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يُسبقون بثأرهم

ولا تُطل دماؤهم ، وما تفعلون هذا اليوم فإنه مأثور بعده فانصحوا وأصدقوا عدوكم اللقاء ، فإن الله مع الصادقين ، والذى نفسى بيده مامن هؤلاء (وأشار إلى أهل الشام) رجل على مثل جناح بعوضة من دين . أجلوا سواد وجهى يرجع فيه دمه عليكم بهـذا السواد الأعظم ، فإن الله قد فضه تبعة مَن بجانبيه كما يتبع مؤخر السيل مُقدَّمَه .

قالوا : «تجدنا حيث أحببت» .

فقصد نحو عُظمهم ممـا يلى الميمنة يزحف إليهم ويردهم واستقبله شباب من همدان وكانوا ٣٠٠ مقاتل يومئذ ، وكانوا صبروا فى الميمنة حتى أُصيب منهم ١٨٠ رجلا ، وقتل منهم ١١ رئيساً كلما قُتل منهم رجل أخذ الراية آخر فـكان الأول : كُرَيب بن شُريح ثم شرحبيل بن شريح ثم مرثد بن شريح ثم هبيرة بن شريح ثم يَريم بن شريح ثم سُمير بن شريح فقتل هؤلاء الإخوة الستة جميعاً ، ثم أخذ الراية سفيان بن زيد ثم عبد بن زيد ثم كُريب بن زيد . فقتل هؤلاء الإخوة الثلاثة جميعاً ثم أخذ الراية عمير بن بَشير ثم الحارث بن بشير فقتلا ثم أخذ الراية وهب بن كريب أخو القلوص فأراد أن يستقبل فقال له رجل من قومه انصرف بهذه الراية رحمك الله فقد قُتل أشراف قومك حولها فلا تقتل نفسك ولا مَن بقى من قومك فانصرفوا وهم يقولون ليت لنا عدتنا من العرب يحالفوننا على الموت ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نُقتل أو نظفر . فمروا بالأشتر وهم يقولون هذا القول .

فقال الأشتر : إلىّ أنا أحالفكم وأعاقدكم على أن لانرجع أبداً حتى نظفر أو نهلك فأتوه فوقفوا معه .

وكان الأشتر يومئذ يقاتل على فرس له فى يده صفيحة يمانية إذا طأطأها خِلْتَ فيها ماء منصباً ، وإذا رفعها كاد يَغْشَى البصَر شعاعها وحعل يضرب بسيفه ويقول : (الغمراتُ ثم ينجلينا) وكان متقنعا فى الحديد.

وقال مولى للأشتر :

إنه لما اجتمع إليه عُظم (معظم) من كان انهزم عن الميمنة حرّضهم ثم قال :

« عَضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين ثأراً بآبائهم وإخوانهم حِناقاً على عدوهم قد وطنوا على الموت أنفسهم كيلا يُسبقوا بوتر ولايلحقوا فى الدنيا عاراً وأيم الله ماوُتر قوم قط بشىء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم ، وإن هؤلاء القوم لايقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السُّنة ويُحيوا البدعة ويعيدوكم فى ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفىء وذل المحيا والممات وعار الدنيا والآخرة » .

وحمل عليهم حتى كشفهم ألحقهم بصفوف معاوية بين صلاة العصر

والمغرب وانتهى إلى عبد الله بن بديل وهو فى عصبة من القراء بين المائتين والثلاثمائة وقدلصقوا بالأرض كأنهم جُثاً فكشف عنهم أهل الشام فابصروا إخوانهم قد دنوا منهم . فقالوا ما فعل أمير المؤمنين ؟ قالوا : حىّ صالح فى الميسرة يقاتل الناس أمامه ، فقالوا : الحمد لله قد كنا ظننا أن قد هلك .

عبد الله بن بديل يقاتل ويقتل :

قال عبد الله بن بديل لأصحابه استقدموا بنا ، فأرسل الأشتر إليه . أن لا تفعل أثبت مع الناس فقاتل فإنه خير لهم وأبقى لك ولأصحابك فأبى ، فمضى كما هو نحو معاوية وحوله كأمثال الجبال (من الجند) وفى يده سفيان وقد خرج أمام أصحابه فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله حتى قتل سبعة ، ودنا من معاوية فنهض إليه الناس من كل جانب وأحيط به وبطائفة من أصحابه فقاتل حتى قُتل . وقُتل ناس من أصحابه ورجعت طائفة قدخرجوا منهزمين .

ولما قتل عبد الله بن بديل أرسل إليه معاوية فقال : انظروا إليه ، فلما عرف أنه عبد الله قال :

« والله لو استطاعت نساء خزاعة أن تقاتلنا فضلاً عن رجالها لفعلت مدوه» فمدوه فقال : هذا والله كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمّرت يوما به الحرب شمّرا

والبيت لحاتم الطائى تمثل به معاوية .

زحف الأشتر :

كان الأشتر نشطاً يحثّ على القتال ويخطب ويجمع شتات الجيش فزحف إليهم فاستقبله معاوية بعك والأشعرين .

فقال الأشتر لمذحج : أكفونا عكاً ، ووقف فى همدان وقال لكندة : أكفونا الأشعرين فاقتتلوا قتالا شديداً وأخذ يخرج إلى قومه فيقول إنما هم عك فاحملوا عليهم فيجثون على الرّكب ويرتجزون :

ياويل أم مذحج من عك   هاتيك أم مذحج تُبكىّ

فقاتلوهم حتى المساء ، ثم إنه قاتلهم فى همدان وناس من طوائف الناس فحمل عليهم فأزالهم عن مواقفهم ، حتى ألحقهم بالصفوف الخمسة المعقلة بالعمائم حول معاوية (وهؤلاء كانوا تحالفوا على الموت وربطوا أنفسهم بالعمائم ليثبتوا فى مواقفهم ولا يفروا) ثم شد عليهم الأشتر شدة أخرى فصرع الصفوف الأربعة وكانوا معقلين بالعمائم حتى انتهوا إلى الخامس الذى حول معاوية ، ودعا معاوية بفرس فركب وكان يقول أردت أن أنهزم فذكرت قول ابن الإطنابة من الأنصار كان جاهلياً :

أبت لى عفتى وحياء نفسى   وإقدامى على البطل المُشيح

وإعطائى على المكروه مالى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وقولى كلما جشأت وجاشت   مكانَك تُحمدى أو تستريحى

فمنعنى هذا القول من الفرار ، ويستفاد من ذلك أن حملة الأشتر على

جيش معاوية التي حملها كانت حملة شديدة زحزحته من مركزه وكان على وشك الهزيمة لولا تذكره هذه الأبيات التي قالها ابن الإطنابة .

خطبة علي رضي الله عنه للذين ثبتوا وقاتلوا :

ولما رأى عليٌّ ميمنته قد عادت إلى مواقفها ومصافها وكشفت من بإزائها من عدوها حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم فقال: « إني قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم يحوزكم الطغاة الجفاة وأعراب أهل الشام وأنتم لهاميم العرب[1] والسَّنام الأعظم وعُمّار الليل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون فلولا إقبالكم بعد إدباركم ، وكركم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المولّي يوم الزحف دبره وكنتم من الهالكين . ولكن هوّن وجدي وشفى بعض أُحاح نفسي[2] بأخرة حزتموهم كما حازوكم وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم ، تحسُّونهم بالسيوف تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطرّدة ، فالآن فاصبروا ، نزلت عليكم السكينة وثبتكم الله عز وجل باليقين ليعلم المنهزم أنه مُسْخِط ربه وموبق نفسه . إن في الفرار مَوْجِدة لله عز وجل عليه والذل اللازم والعار الباقي واعتصار الفيء من يده وفساد العيش ، وأن الفار منه لا يزيد في عمره ولا يُرضي ربه . فموت المرء مُحِقاً قبل إتيان هذه الخصال خيرٌ من الرضا بالتأنيس لها والإقرار عليها » .

---

(١) لهاميم جمع لهموم : الجواد من الناس والخيل .

(٢) الأحاح : حرارة الغم .

عمار بن ياسر :

خرج عمّار بن ياسر إلى الناس ، وكان قائد الفرسان فى جيش علىّ رضى الله عنه فقال :

« اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلتُه . اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أضع ظُبة سيفى فى صدرى ، ثم أنحنى عليها ، حتى تخرج من ظهرى لفعلتُ ، وإنى لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين . ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته » .

فكان عمار يعتقد أن جيش معاوية فاسقين يجب عليه جهادهم ، وقال فى رواية أخرى :

والله إنى لأرى قوما ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المبطلون . وأيم الله لو ضربونا ، حتى يبلغوا بنا سعفات هَجَر[1] لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل » .

وهذه الرواية أيضا تؤيد اعتقاده بأن علياً وجيشه على الحق وأن خصومه على الباطل .

وعن حَبة بن جُوَين العُرَنى[2] قال انطلقت أنا وأبو مسعود إلى حذيفة بالمدائن فدخلنا عليه فقال : « مرحباً بكما . ماخلفتما من قبائل العرب أحداً

---

(١) هجر : قاعدة البحرين مشهورة بالتمر ، وفى المثل « كناقل التمر إلى هجر » .

(٢) هو من أصحاب على رضى الله عنه .

أحب إلىّ منكما فأسندته إلى أبى مسعود فقلنا ياعبد الله حدثنا فإنا نخاف الفتن » . فقال : « عليكما بالفئة التى فيها ابن سُمية (عمار بن ياسر) إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق وإن آخَر رزقه ضياح [1] من لبن » .

قال حبة : فشهدته يوم صفين وهو يقول : ائتونى بآخر رزق لى من الدنيا . فأُتى بضياح من لبن فى قدح أروح له حلقة حمراء فما أخطأ حذيفة مقياس شعرة فقال « اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه ، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل وجعل يقول : الموت تحت الأَسَل [2] والجنة تحت البارقة [3] .

وروى أنه أنشد :

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق على سبيله

وعن زيد بن وهب الجُهنى : أن عمار بن ياسر رحمه الله قال يومئذ : « أين من يبتغى رضوان الله ، ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ؟ » فأتته عصابة من الناس فقال « أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم ابن عفان

---

(١) ضياح كسحاب : اللبن الرقيق الممزوج .
(٢) الأسل : كل حديد هيف من سنان وسيف وسكين ، والرماح الطوال .
(٣) البارقة : سحابة ذات برق والسيوف على التشبيه لبياضها .

ويزعمون أنه قُتل مظلوماً ، والله ماطلبتهم بدمه ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرأوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم ، حال بينهم وبين مايتمرغون فيه من دنياهم ولم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً ، وتلك مكيدة بلغوا بها ماترون ، ولولا هى ماتبعهم من الناس رجلان . اللهم إن تنصر فطالما نصرت وأن تجعل لهم فادخر لهم بما أحدثوا فى عبادك العذاب الأليم » .

ثم مضى ومضت تلك العصابة التى أجابته حتى دنا من عمرو .

عمار وعمرو بن العاص :

قال عمار لعمرو بن العاص لما دنا منه :

«ياعمرو ! بعت دينك بمصر. تبًّا لك تبًّا . طالما بغيت فى الإسلام عِوجاً»

وقال لعبيد الله بن عمر بن الخطاب (وكان من أنصار معاوية) :

« صرعك الله . بعت دينك من عدو الإسلام وابن عدوه » .

قال « لا . ولكن أطلب بدم عثمان بن عفان رضى الله عنه » .

قال له : « أشهد على علمى فيك أنك لاتطلب بشىء من فعلك وجه الله عز وجل وإنك إن لم تُقتل اليوم تمت غداً . فانظر إذا أُعطى الناس على قدر نياتهم مانيتك » . كان عبيد الله ضد علىّ لأنه أراد قتله لقتله الهرمزان فهرب وانضم إلى معاوية .

وعن أبى عبد الرحمن السُلَمِىّ قال :

سمعت عمار بن ياسر بصفين وهو يقول لعمرو بن العاص : « لقد قاتلتُ

صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الرابعة ماهى أبر ولا أتقى » وعنه أيضا :

كنا مع علىّ بصفين فكنا قد وكلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل . فكان إذا حانت منهما غفلة فلا يرجع حتى يخضب سيفه وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه فألقاه إليهم وقال لولا أنه انثنى مارجعت .

وكان عمار يقول للمرقال هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علىّ :

« تقدم ياهاشم . الجنة تحت ظلال السيوف والموت فى أطراف الأَسَل وقدفتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين . اليوم ألقى الأحبه محمداً وحزبه، ثم قُتل عمار . قتله أبو الغادية (واحتز رأسه ابن حوى السكسكى ودفنه علىّ ولم يغسله وكان عمره نيفا وتسعين سنة وقبره بصفين) .

عمار والفئة الباغية :

لما قُتل عمار[1] وكان كما ذكر من أنصار علىّ قال عبد الله بن عمرو

---

(١) وفى قتلة يقول الحجاج بن عربة الأنصارى أبياتا رثاه بها :

يالرجال لعين ودمعها جارى قد هاج حزنى أبو اليقظان عمار
أهوى إليه أبو حوّا نوارسه يدعوالسكون والجيشين إعصار
فاختص صدر أبى اليقظان معترضاً للرمح قد وجبت فينا له النار
الله عن جمعهم لاشك كان عفا أتت بذلك آيات وآثار
من ينزع الله غلا فى صدورهم على الأسرّة لم تمسسهم النار
قال النبي له تقتلك شرذمة سيطت لحومهم بالبغى فجار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهم أصحاب تلك وفيها النار والعار .

ابن العاص لأبيه :

« ياأبت . قتلتم هذا الرجل فى يومكم هذا . وقد قال رسول الله صلى الله وسلم ماقال ؟ » . .

قال : « وما قال ؟ » . . .

قال عبد الله « ألم تكن معنا ونحن نبنى المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وعمّار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين فغشى عليه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ، ويقول : ويحك يابن سمية . الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك فى الاجر وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية » .

فلما قال ذلك عبد الله لأبيه عمرو بن العاص ، دفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال :

« يامعاوية . أما تسمع مايقول عبد الله ؟ » .

قال : « ومايقول ! » .

فأخبره الخبر فقال معاوية :

« إنك شيخ أخرق ولاتزال تحدث بالحديث وأنت تدحض فى بولك أو نحن قتلنا عماراً ؟ ! من جاء به » فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون إنما قتل عماراً من جاء به .

يقصد معاوية أن الذى قتل عماراً هو الذى حمله على القتال يعنى علياً ،

فيكون عليّ وجيشه على هذا التفسير الفئة الباغية وهذا تعسف فى التأويل ابتكره معاوية للتخلص من حديث رسول الله وهو ظاهر بأن عماراً تقتله الفئة الباغية، ولما بلغ علياً قول معاوية قال إن كنت أنا قتلته فالنبي صلى الله عليه وسلم قتل حمزة حين أرسله إلى قتال الكفار (ماأبلغ هذا الرد على معاوية!)

أما عبد الله بن عمرو بن العاص الذى روى الحديث لأبيه وارتاع من قتل عمار وخشى أن يكون فى الفئة الباغية فقد كان أسلم قبل أبيه وكان فاضلا عالماً ، حافظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد مع أبيه صفين وقاتل وندم بعد ذلك فكان يقول « مالى ولصفين . مالى ولقتال المسلمين . لوددت أنى مت قبله بعشرين سنة »

وقيل شهدها بأمر أبيه له ولم يقاتل . قال ابن أبى مليكة قال عبد الله ابن عمرو . أما والله ماطعنت برمح ولا ضربت بسيف ولارميت بسهم وما كان رجل أجهد منى رجل لم يفعل شيئاً من ذلك .

و بعدصفين اعتذر عبدالله للحسين بن على رضى الله عنهما وقال: «أماوالله مااخترطت سيفاً ولا طعنت برمح ولا رميت بسهم » .

عليّ يطلب مبارزة معاوية :

قال أبو جعفر الطبرى :

وقدذكر أن عماراً لما قتل، قال عليّ لربيعة وهمدان . أنتم درعى ورمحى فانتدب له نحواً من أثنى عشر ألفاً وتقدمهم عليّ على بغلته فحمل وحملوا

معه حملة رجل واحد فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض وقتلوا كل من انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية وعلي يقول:

أضربهم ولا أرى معاويه   الجاحظ العين العظيم الحاويه

قوله العظيم الحاوية: يعني العظيم البطن . وعلى ذلك كان معاوية جاحظ العين كبير البطن .

ثم نادى علي معاوية فقال:

«علام تقتتل الناس بيننا؟ هلم أحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه، استقامت له الأمور» .

فقال له عمرو . « نصفك الرجل »

فقال معاوية : «ما أنصفتُ وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله»

قال له عمرو : « وما يجمل بك إلا مبارزته » .

فقال معاوية : « طمعت فيها بعدى »

خشى معاوية أن يبارز علياً لأنه مابارز رجلاً إلا قتله . أما قوله لعمرو . «طمعت فيها بعدى» أى أنك تريد أن أبارزه فيقتلني وتخلص مني لأنك تطمع فى الخلافة بعدى .

اتهام عليّ وأصحابه بعدم الصلاة ! !

إن أعداء عليّ رضى الله عنه لم يتركوا وسيلة لإغراء الناس وتحريضهم على قتاله إلا اتخذوها ولا تهمة إلا أذاعوها ولا كذباً إلا افتروه . ولم يكتفوا بأن ادعوا أنه قاتل عثمان رضى الله عنه، بل نشروا أن علياً وأصحابه، وهم أصحاب

رسول الله صلى الله عليه المعروفون بالصلاح والتقوى، لايصلون ولذلك وجب قتلهم . فقد روى الطبرى ما يأتى :

قال أبو مخنف وحدثنى أبو سلمة أن هاشم بن عتبة الزهرى[1] دعا الناس عند المساء . « ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فإلىّ » .

فأقبل إليه ناس كثير فشد فى عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً فليس من وجه يحمل عليه إلا صبر له وقاتل فيه قتالاً شديداً .

فقال لأصحابه :

لايهولنكم ماترون من صبرهم . فوالله ماترون فيهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها ، وإنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق . ياقوم اصبروا وصابروا واجتمعوا وامشوا بنا إلى عدونا على تؤدة رويداً ثم اثبتوا وتناصروا واذكروا الله ، ولا يسأل رجل أخاه ولا تكثروا الالتفات واصمدوا صمدهم ، وجاهدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين »

ثم إنه مضى فى عصابة معه من القراء فقاتل قتالا شديداً هو وأصحابه عند الماء حتى رأوا بعض مايسرون به . فإنهم لكذلك إذ خرج عليهم فتى شاب وهو يقول :

---

(١) هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وهو ابن أخى سعد بن أبى وقاص ، يكنى أبا عمرو ويعرف بالمرقال . نزل الكوفة . أسلم يوم الفتح وكان من الشجعان الأبطال الفضلاء الأخيار . فقئت عينه يوم اليرموك بالشام وهو الذى افتتح جلولاء من بلاد الفرس وهزم الفرس . وكانت جلولاء تسمى « فتح الفتوح » .

أنا ابن أرباب الملوك غسان   والدائن اليوم بدين عثمان
أنى أتانى خبر فأشجان   أن علياً قتل ابن عفان

ثم يشد فلا ينثنى حتى يضرب بسيفه . ثم يشتم ويلعن ويكثر الكلام فقال له هاشم بن عتبة :

« ياعبد الله إن هذا الكلام بعده الخصام ، وإن هذا القتال بعده الحساب . فاتق الله ، فإنك راجع إلى الله فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به » .

قال الشاب : « فإنى أقاتلكم لأن صاحبكم لايصلى كما ذكر لى ، وأنتم لا تصلون أيضا وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم أردتموه على قتله » .

فقال له هاشم : « وما أنت وابن عفان ! . إنما قتله أصحاب محمد وأبناء أصحابه وقراء الناس حين أحدث الأحداث وخالف حكم الكتاب وهم أهل الدين وأولى بالنظر فى أمور الناس منك ومن أصحابك . وما أظن أمر هذه الأمة وأمر هذا الدين أهمل طرفة عين » .

فقال له : « أجَل! . والله لا أكذب فإن الكذب يضر ولاينفع »

قال : « فإن أهل هذا الأمر أعلم به فخله وأهل العلم به » .

فقال الشاب : « ماأظنك والله إلا نصحتَ لى »

قال هاشم : « وأما قولك إن صاحبنا (يعنى علياً) لايصلى ، فهو أول من صلى وأفقه خلق الله فى دين الله وأولى بالرسول . وأما كل من ترى معى

فكلهم قارئ لكتاب الله . لا ينام الليل تهجداً . فلا يغوينك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون »

فقال الفتى : « ياعبد الله . إنى أظنك امرأ صالحاً فتخبرنى هل تجد لى من توبة ؟ » .

فقال : « نعم ياعبد الله ، تب إلى الله يتب عليك ، فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت ويحب المتطهرين » .

اقتنع الفتى بما قاله هاشم بن عتبة وأدرك أنه قد غرر به فرجع تاركاً القتال . فقال له رجل من أهل الشام : « خدعك العراقى . خدعك العراقى » قال : « لا . ولكن نصح لى » .

ثم إن هاشم بن عتبة قاتل حتى قتل .

رد على على شاتميه من أهل الشام :

مر علىّ رضى الله عنه على جماعة من أهل الشام فيها الوليد بن عقبة وهم يشتمونه فخُبّر بذلك فوقف فيمن يليهم من أصحابه فقال :

انهدوا إليهم (أسرعوا لقتالهم) . عليكم السكينة والوقار وقار الإسلام وسيما الصالحين ، فوالله لاقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنهم معاوية وابن النابغة وأبو الأعور السلمى[1] وابن أبى معيط (الوليد بن عقبة) شارب الخمر المجلود حداً فى الإسلام[2] وهم أولى من يقومون فينقصوننى ويجذبوننى وقبل

(١) أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمى من أصحاب معاوية وخاصته وكان أشد من عنده على على ابن أبى طالب رضى الله عنه وكان علىّ يدعو عليه فى القنوت .

(٢) راجع كتاب « عثمان بن عفان » للمؤلف فى عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة ص ٥٤ — ٥٧ .

اليـوم ماقاتلونى وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام وهم يدعوننى إلى عبادة الأصنام. الحمد لله قديماً عادانى الفاسقون فبعّدهم الله. ألم يُفتحوا. إن هـذا لهو الخطب الجليل. إن فساقاً كانوا غير مرضيين وعلى الإسلام وأهله متخوفين. خدعوا شطر هذه الأمة وأشربوا قلوبهم حب الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، قد نصبوا لنا الحرب فى إطفاء نور الله عز وجل. اللهم فافضُض خدمتهم، وشتت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم: فإنه لايذل من واليت، ولايعز من عاديت».

علىّ يبارز عمرو بن العاص :

نادى عمرو بن العاص علياً فقال :

«ياأبا الحسن اخرج إلىّ أنا عمرو بن العاص». فخرج إليه علىّ فتطاعنا فلم يصنعا شيئاً. فانتضى علىّ سيفه[1] فحمل عليه فلما أراد أن يجلله[2] رمى بنفسه عن فرسه ورفع رجليه فبدت عورته فصرف علىّ وجهه وتركه وانصرف عمرو. ولو كان أحد غير علىّ لقتل عمراً فى الحال

مقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب :

خرج ذو الكَلاع فى ٤٠٠٠ فارس من أهل الشام قد تبايعوا على الموت فحملوا على ربيعة وكانوا فى ميسرة علىّ وعليهم عبد الله بن عباس فتصدعت جموع ربيعة فناداهم خالد بن المُعَمّر يامعشر ربيعة أسخطتم الله فثابوا إليه فاشتد القتال حتى كثرت القتلى ونادى عبيد الله بن عمر «أنا الطيب

---

(١) انتضى السيف: اخترطه من جفنه.

(٢) يعلوه.

ابن الطيب» فسمعه عمار فناداه «بل أنت الخبيث بن الطيب » ثم حمل عبيد الله وهو يرتجز :

أنا عبيد الله ينمينى عمر خير قريش من مضى ومن غبر
غيرَ رسول الله والشيخ الأغر أبطأ عن نصر ابن عفان مضر
والرَّبعيُّون فلا أُسقوا المطر

فضرب شمر بن الريان العجلى فقتله وكان من فرسان ربيعة .

فلما أصبحوا خرج عبيد الله فيمن كان معه بالأمس وخرجت إليه ربيعة فاقتتلوا بين الصفين وعبيد الله أمامهم يضرب بسيفه فحمل عليه حُريث بن جابر الحنفى فطعنه فى لَبَّته (منحره) فقتله .

مقتل ذى الكلاع

وخرج ذو الكلاع فى يوم من تلك الأيام فى كتيبة من أهل الشام من عك ولخم . فخرج إليه عبدالله بن عباس فى ربيعة فالتقوا ونادى رجل من مَذْحج العراق: آل مذحج خدموا . فاعترضت مذحج عكا يضربون سوقهم بالسيوف فيبركون ، فنادى ذو كلاع آل عك بروكاً كبروك الإبل . وحمل رجل من بكر وائل يسمى خِنْدِفاً على ذى كلاع فضربه بالسيف على عاتقه فقدّ الدرع وفَرَى عاتقه فخر ميتاً .

وذو الكلاع هذا اسمه اسميفع بن نا كور وقيل ايفع ، وقيل سميفع وهو حميرى يكنى أبا شرحبيل ، وكان إسلامه فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيساً فى قومه متبوعاً . أسلم وكتب إليه رسول الله صلى الله

عليه وسلم فى التعاون على قتل الأسود العنسى وكان الرسول جرير بن عبد الله ثم إن ذا الكلاع خرج إلى الشام وأقام به ، وقيل إن معاوية سره قتله وذلك أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمّار بن ياسر : تقتله الفئة الباغية فقال لمعاوية وعمرو : « ماهذا وكيف نقاتل علياً وعماراً ؟ . فقالوا إنه يعود إلينا ويُقتل معنا . فلما قتل ذو الكلاع وقتل عمار ، قال معاوية : « لو كان ذو الكلاع حياً ، لمال نصف الناس إلى على » وعلى ذلك يكون ذو الكلاع قتل قبل عمار .

وقيل إنه أراد الخلاف على معاوية لأنه صح عنده أن علياً برئ من دم عثمان .

ليلة الهرير (١)

Night of clangour

مر علىّ بأهل راية فرآهم لا يزولون عن موقفهم فحرض عليهم وذُكر أنهم غسان ، فقال إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن دَرَّاك يُخرج منهم النَّسَم (٢) وضرب يُفلق منه الهام ويُطيح العظام وتسقط منه المعاصم والأكف وحتى يصدع جباههم بعُمُد الحديد وتنتشر حواجبهم على الصدور والأذقان ، أين أهل الصبر وطلاب الأجر ؟ . . .

---

(١) الهرير : صوت الكلاب دون النباح وبه يشبه نظر الكماة بعضهم إلى بعض . ويوم الهرير وقعة بين تيم وبكر بن وائل وليلة الهرير وقعة كانت بين معاوية وعلىّ بظاهر الكوفة ويسمون هذه ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية .

(٢) النسم : النفس .

فثاب إليه عصابة من المسلمين. فدعا ابنه محمداً فقال: «امش نحو أهل هـــذه الراية مشياً رويداً على هينتك حتى إذا اشرعت فى صدورهم الرماح فأمسك حتى يأتيك رأيى». ففعل وأعد علىٌّ مثلهم فلما دنا منهم فأُشرع بالرماح فى صدورهم، أمر علىٌّ الذين أعدهم فشدوا عليهم وانهض محمداً بمن معه فى وجوههم فزالوا عن مواقفهم وأصابوا منهم رجالاً. ثم اقتتل الناس بعد المغرب قتالاً شديداً فما صلى أكثر الناس إلا إيماء.

ومر الأسود بن قيس المرادى بعبد الله بن كعب المرادى وهو صريع فقال: «ياأسود». قال: «لبيك» وعرفه وهو بآخر رمق فقال:

«عز والله علىّ مصرعك. أما والله لو شهدتُك لآسيتك ولدافعت عنك ولو عرفت الذى أشعرك ألا يتزايل حتى أقتله أو أُلحق بك».

ثم نزل إليه فقال:

«أما والله أن كان جارك ليأمن بوائقك وأن كنت من الذاكرين الله كثيرا. أوصنى رحمك الله».

فقال: «أوصيك بتقوى الله عز وجل وأن تناصح أمير المؤمنين وتقاتل معه المُحلين حتى تظهر أو تلحق بالله، وأبلغه عنى السلام وقل له: قاتل عن المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنه من أصبح غداً والمعركة خلف ظهره كان العالى».

ثم لم يلبث أن مات. فأقبل الأسود إلى علىّ فأخبره فقال:

«رحمه الله. جاهد فينا عدونا فى الحياة ونصح لنا فى الوفاة».

وقيل إن الذى أشار على أمير المؤمنين بهذا الرأى ، عبد الرحمن بن حنبل الجمحى . فاقتتل الناس تلك الليلة كلها إلى الصباح وهى (ليلة الهرير) حتى تقصفت الرماح ، ونفذ النبل وصار الناس إلى السيوف وأخذ علىٌّ يسير فيما بين الميمنة والميسرة ويأمر كل كتيبة من القراء أن تقدم على التى تليها فلم يزل يفعل ذلك بالناس ويقوم بهم حتى أصبح ، والمعركة كلها خلف ظهره ، والأشتر فى ميمنة الناس ، وابن عباس فى الميسرة ، وعلىّ فى القلب والناس يقتتلون من كل جانب ، وذلك يوم الجمعة. وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها وكان قد تولاها عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى وأخذ يقول لأصحابه : ازحفوا قيد هذا الرمح ، وهو يزحف بهم نحو أهل الشام . فإذا فعلوا قال : ازحفوا قيد هـذا القوس . فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى ملّ أكثر الناس الإقدام .

فلما رأى الأشتر ذلك قال : أعيذكم بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليـوم ثم دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيان بن هَوذة النخعى وخرج يسير فى الكتائب ويقول :

« من يشترى نفسه من الله عز وجل ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله ؟ » . فاجتمع إليه ناس كثير فيهم حيان بن هوذة وغيره فرجع إلى المكان الذى كان فيه وقال لهم : شدوا شدة فدى لكم عمى وخالى تُرضون بها الرب وتعزون بها الدين . إذا شددت فشدوا . ثم نزل فضرب وجه دابته ثم قال لصاحب رايته : قدم بها ثم شد على القوم وشد معه أصحابه . فضرب

أهلَ الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم ثم إنهم قاتلوه عند المعسكر قتالاً شديداً فقتل صاحب رايته وأخذ عليٌّ لما رأى من الظفر من قِبله يمده بالرجال فقال عمرو بن العاص لوردان مولاه : أتدرى مامَثَلى ومثلك ومثل الأشتر ؟ قال : لا . قال كالأشقر إن تقدم عُقر وإن تأخر نُحر . لئن تأخرت لأضربنّ عنقك . ائتونى بقيد ، فوضعه فى رجليه ، فقال : أما والله لأُردنك حياض الموت . ضع يدك على عاتقى . ثم جعل يتقدم وينظر إليه أحياناً ويقول : لأوردنك حياض الموت .

عمرو بن العاص

يشير برفع المصاحف لتوقيف القتال والرجوع الى كتاب الله

لما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف فى ذلك الهلاك ، قال لمعاوية :

« هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ؟ »

قال معاوية « نعم » .

قال : « نرفع المصاحف ثم نقول مافيها حُكْمٌ بيننا وبينكم . فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدتَ فيهم من يقول بلى ينبغى أن تقبل فتكون فرقة تقع بينهم ، وإن قالوا بلى نقبل مافيها ، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين » .

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : « هذا كتاب الله عز وجل بيننا

و بينكم . مَن لثغور أهل الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق ؟ » .

فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت ، قالوا : نجيب إلى كتاب الله عز وجل و ننيب إليه[1] وأول من قال بذلك أهل الكوفة .

هذه هى الحيلة التى لجأ إليها عمرو بن العاص وأطاعه معاوية لإحداث الفرقة فى جيش علىّ رضى الله عنه ولوقف القتال حيناً بعد أن أعيتهم الحيل للتغلب على جيش علىّ وبعد أن رأى عمرو أن جيش الشام على وشك الانهزام . على ان الرجوع إلى كتاب الله فى هذه الحالة أمر غامض ولم يغب عن ذهن علىّ أن فى ذلك حيلة ، وخديعة ، ومكيدة ، ولذلك خاطب جيشه قائلا :

« عباد الله أمضوا على حقكم وصدقكم قتالَ عدوكم فإن معاوية ، وعمرو ابن العاص ، وابن أبى معيط ، وحبيب بن مسلمة ، وابن أبى سرح ، والضحاك ابن قيس ليسوا بأصحاب دين ، ولا قرآن. أنا أعرف بهم منكم . قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال ، وشر رجال . ويحكم إنهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ، ودهناً ، ومكيدة »

وهذا ينقض ماذهب إليه بعض المؤرخين من أن علياً رضى الله عنه خُدع بهذه الحيلة وأوقف رحى القتال ، والحقيقة أنه أوقف القتال لئلا ينفض عنه جيشه .

(١) ربطت المصاحف فأول ماربط مصحف دمشق الأعظم ربط على خمسة أرماح تحملها خمسة رجال ثم ربط جميع من كان معهم المصاحف .

فلما قال علىّ ماقال وحذرهم المكيدة قالوا له :

« مايسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله » .

فقال لهم : « فإنى إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هـذا الكتاب فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه » .

فقال له قوم :

« ياعلىّ أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا ندفعك بُرمّتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه ، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك » .

فقال علىّ :

« فاحفظوا عنى نهى إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى . أما أنا فإن تطيعونى تقالوا وإن تعصونى فاصنعوا مابدا لكم :

قالوا له : « إمّا لا فابعث إلى الأشتر فليأتك » .

فأرسل علىّ إلى الأشتر « يزيد بن هانئ الشبيمى » أن ائتنى فأتاه فبلّغه فقال قل له « ليس هـذه الساعة التى ينبغى لك أن تُزيلنى فيها عن موقفى . إنى قد رجوت أن يُفتح لى فلا تعجلنى » .

فرجع يزيد بن هانئ إلى علىّ فأخبره فما هو إلا أن انتهى إليه حتى علت الأصوات من قِبل الأشتر فقال له القوم والله ماتُراك إلا أمرته أن يقاتل .

فقال : « من أين ينبغى أن تُرَوا ذلك . رأيتمونى ساررته ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية وأنتم تسمعونى ؟ » .

قالوا : « فابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك » .

قال على : « ويحك يايزيد قل له أقبل إلىّ فإن الفتنة قد وقعت » .

فذهب يزيد إلى الأشتر وأبلغه بأن علياً يطلب قدومه . فقال له الأشتر : « ألرفع المصاحف ؟ » .

قال « نعم » .

قال « والله لقد ظننت حين رفعت أنها ستوقع اختلافاً وفرقة . إنها مشورة بن العاهرة (يعنى عمرو بن العاص) . ألا ترى ماصنع الله لنا ؟ أينبغى أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم ؟ » .

قال يزيد بن هانئ فقلت له :

« أتحب أنك ظفرت هاهنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذى هو به يُفرج عنه أو يُسلَم ؟ » .

قال . لا والله سبحان الله » .

قال يزيد : « فإنهم قد قالوا لُترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو نقتلك كما قتلنا ابن عفان» .

فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فقال :

« ياأهل العراق . ياأهل الذل والوهن حين علوتم القوم ظهراً وظنوا أنكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيها ، وقد والله تركوا

ماأمر الله عز وجل به فيها وسُنة من أُنزلت عليه صلى الله عليه وسلم فلا تجيبوهم . أمهلونى عدو الفرس فإنى قد طمعت فى النصر » .

قالوا : « إذاً ندخل معك فى خطيئتك » .

قال : « نحدثونى عنكم وقد قتل أماثلكم وبقى أراذلكم . متى كنتم محقين ؟ أحين كنتم تقاتلون وخياركم يقتلون ؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون أم الآن أنتم محقون فقتلاكم الذين لاتنكرون فضلهم فكانوا خيراً منكم فى النار إذاً » .

وهنا يجد القارئ أن الأشتر أقام الحجة على المعارضين الراغبين فى وقف القتال وأنه رأى رأى علىّ وطلب منهم أن يمهلوه قليلاً لأنه كان واثقاً بالغلبة . لكن انظر بماذا أجابوه ؟ قالوا :

« دعنا منك ياأشتر . قاتلناهم فى الله عز وجل وندع قتالهم لله سبحانه إنا لسنا مطيعيك ولا صاحبك فاجتنبنا » .

فلما سمع منهم ذلك ، علم أنهم خدعوا بتلك الحيلة فقال لهم :

« خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ياأصحاب الجباه السود . كنا نظن صلواتكم زهادة فى الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله عز وجل ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت . ألا قبحاً أشباه النيب الجلالة وما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون » .

ولما قال الأشتر ذلك لهم شتموه واعتدوا على دابته بسياطهم فنهرهم علىّ من التعدى وقال : قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حُكماً .

بعث الأشعث الى معاوية ليستطلع رأيه :

جاء الأشعث بن قيس[1] إلى عليّ رضى الله عنه فقال له :

ماأرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى مادعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيتُ معاوية فسألته مايريد فنظرتَ مايسأل » .

قال ائته إن شئت فسله . فأتاه فقال :

« يامعاوية لأى شئ رفعتم هذه المصاحف ؟ » .

قال : « لنرجع نحن وأنتم إلى ماأمر الله عز وجل به فى كتابه . تبعثون منكم رجلا ترضون به ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لايعدوانه ثم نتبع مااتفقنا عليه » .

فقال له الأشعث « هـذا الحق » فانصرف إلى عليّ فأخبره بالذى قال معاوية ، فقال الناس : فإنا قد رضينا وقبلنا .

اختيار الحكمين :

قال أهل الشام فإنا قد اخترنا « عمرو بن العاص » .

فقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج بعد . فإنا قد رضينا « بأبى موسى الأشعرى » .

---

(١) الأشعث بن قيس وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة . فى وفد كندة وكانوا ستين راكباً فأسلموا ثم ارتد الأشعث بعد النبي صلى الله عليه وسلم وجىء به أسيراً فى خلافة أبى بكر فأطلقه وزوجه اخته وشهد اليرموك بالشام ففقئت عينه ثم سار إلى العراق فشهد القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وسكن الكوفة وابتنى بها داراً وشهد صفين مع على رضى الله عنه . وكان ممن ألزم عليا بالتحكيم .

قال عليٌّ : « فإنكم عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن . إنى لاأرى أن أولّى أبا موسى » فاختيار أبى موسى كان خلاف رأى علىّ .

فقال الأشعث وزيد بن حصين الطائى ومِسْعَر بن فَدَكىّ . لانرضى إلا به فإنه ما كان يحذرنا وقعنا فيه .

(وكان أبو موسى واليا على الكوفة فى خلافة عثمان رضى الله عنه ولم يزل عليها حتى استخلف عليٌّ فأقره عليها . فلما سار علىّ إلى أهل البصرة ليمنع طلحة والزبير عنها ، أرسل إلى أهل الكوفة يدعوهم لينصروه فمنعهم أبوموسى وأمرهم بالقعود فى الفتنة فعز' علىّ عنها) .

فلما اختاروا أبا موسى ، قال عليٌّ : إنه ليس لى بثقة . قد فارقنى وخذّل الناس عنى ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هـــذا ابن عباس نوليه ذلك .

قالوا : مانبالى أنت كنت أم ابن عباس . لانريد إلا رجلاً هو منك ، ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر » .

فقال عليٌّ فإنى أجعل « الأشتر » .

فقال الأشعث : وهل سعّر الأرض غير الأشتر ، وفى رواية أنه قال : وهل نحن إلا فى حكم الأشتر .

قال عليٌّ : وما حكمه ؟

فقال الأشعث : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد .

قال : فقد أبيتم إلا أبا موسى ؟ . .

قالوا : نعم . قال : فاصنعوا ماأردتم .

كان علىّ رضى الله عنه يحرض جيشه للقتال بشجاعته وفصاحته فلما كان على وشك أن يهزم أهل الشام ، رفعوا المصاحف وطالبوه بالرجوع إلى حكم كتاب الله . فعلم أن هذه حيلة دبرها معاوية للتفرقة وأنه يجب الاستمرار فى القتال حتى يتم إحراز النصر ، وكذا كان رأى الأشتر الذى أبلى فى القتال بلاء حسناً . لكن جيش علىّ رضى الله عنه كان قد مل القتال ونفذ صبره فاضطروا أمير المؤمنين إلى وقف الحرب بدعوى الرجوع إلى كتاب الله ، فرضى مضطراً . ثم إنهم اضطروه لاختيار أبى موسى حكماً بدلاً من ابن عباس أو الأشتر مع أنه لم يكن يثق به لأنه كما تقدم أمر أهل الكوفة بالقعود عن الحرب وعدم الانضمام إلى جيش علىّ .

بعث الناس إلى أبى موسى وقد اعتزل القتال فأتاه مولى له . فقال إن الناس قد اصطلحوا ، فقال الحمد لله رب العالمين قال قد جعلوك حكماً . قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

ولم يرض الناس كذلك أن يشركوا الأحنف مع أبى موسى .

وحضر عمرو بن العاص عند علىّ ليكتب القضية بحضوره فكتبوا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماتقاضى عليه علىّ أمير المؤمنين » .

فقال عمرو . اكتب اسمه واسم أبيه . هو أميركم فأما أميرنا فلا » .

فأبى الأحنف وأبى علىّ مليًّا من النهار وأخيراً قال الأشعث بن قيس امح هذا الاسم برّحه الله فمحى .

وقال علىّ : الله أكبر سُنة بسنة ومَثَل بمَثَل ، والله إنى لكاتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية إذ قالوا لست رسول الله ولا نشهد لك به ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبه .

فقال عمرو بن العاص : سبحان الله ومَثَل هـــذا أن نُشبَّه بالكفار ونحن مؤمنون ؟ .

فقال على : « يا ابن النابغة ! ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمسلمين عدواً ، وهل تشبه إلا أمك التى وضعت بك ! .

فقام عمرو وقال : « لايجمع بينى وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم » .

فقال له علىّ : « وإنى لأرجو أن يطهِّر الله عز وجل مجلسى منك ومن أشباهك » .

وكتب الكتاب وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماتقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان . قاضى علىّ على أهل الكوفة ، ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين ، والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ، ومن كان معهم من المؤمنين ، والمسلمين . إننا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وأن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته . نحيى ماأحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل ، وهما أبو موسى

الأشعرى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشى، عملا به وما لم يجدا فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأخذ الحكمان من علىّ ومعاوية، ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة، وإن وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وشاهدهم وغائبهم، وعلى عبدالله بن قيس، وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة، ولا يرداها فى حرب ولا فرقة حتى يُعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما، وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المَعْدَلة والقِسط، وإن مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكانٌ عدلٌ بين أهل الكوفة والشام، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود. ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك ما فى هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً. أللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة».

شهد من أصحاب علىّ:

(١) الأشعث بن قيس الكندى (٢) عبد الله بن عباس (٣) سعيد ابن قيس الهمدانى (٤) وقاء بن سُمَىّ البجلى (٥) عبد الله بن مُحلّ العجلى

(٦) حُجر بن عدى الـكندى (٧) عبد الله بن الطفيل العامرى (٨) عقبة بن زياد الحضرمى (٩) زيد حُجَيَّة التيمى (١٠) مالك بن كعب الهمدانى .

وشهد من أصحاب معاوية .

(١) أبو الأعور السلمى عمرو بن سفيان (٢) حبيب بن مسلمة الفهرى (٣) المخارق بن الحارث الزبيدى (٤) زمل بن عمرو العُذْرى (٥) حمزة بن مالك الهمدانى (٦) عبد الرحمن بن خالد المخزومى (٧) سبيع بن يزيد الأنصارى (٨) علقمة بن يزيد الأنصارى (٩) عتبة بن أبى سفيان (١٠) يزيد بن الحر العبسى .

ولما كتبت هـذه الصحيفة دعى لها الأشتر ليشهد مع الشهود عليه فقال : « لاصبحتنى يمينى ، ولا نفعنى بعدها الشمال ، إن كتب لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة . أولست على بينة من أمرى ، ويقين من ضلالة عدوى ؟ أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور ؟ فقال رجل والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً . هلم فاشهد على نفسك ، وأقر بما كتب فى هذه الصحفة ، فإنه لا رغبة لك عن الناس . فقال بلى والله إن لى لرغبة عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الأخرة للآخرة . ولقد سفك الله بسيفى هـذا دماء رجال ما أنت عندى بخير منهم ، ولا أحرم دماً . قال نصر بن مزاحم الرجل هو الأشعث بن قيس . قال فكأنما قصع على أنفه الحميم . ثم قال ولكنى قد

رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه فإنه لا يدخل إلا فى الهدى والصواب .

قال أبو جعفر الطبرى فكتب كتاب القضية بين علىّ ومعاوية فيما قيل يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ من الهجرة[١] على أن يوافى علىّ موضع الحكمين بدومة الجندل فى شهر رمضان ومعاوية مع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه .

الإفراج عن الأسرى :

كان علىّ رضى الله عنه أسر كثيرين يوم صفين فخلى سبيلهم فأتوا معاوية ، وأن عمراً ليقول له ، وقد أسر أيضاً أسارى كثيرة أقتلهم . فما شعروا إلا بأسرائهم قد خلى سبيلهم . فقال معاوية : يا عمرو . لو أطعناك فى هؤلاء الأسرى وقعنا فى قبيح من الأمر . ألا ترى قد خلى سبيل أسارانا ؟ وأمر بتخلية سبيل من فى يديه من الأسارى . ودفن الجيشان قتلاهم . وبلغ عدد قتلى صفين ٩٠٠٠ من شجعان المسلمين .

فى انتظار أمر الحكمين :

اتفق علىّ ومعاوية على أن يكون اجتماع الحكمين بدومة الجندل ، وهو النصف بين العراق والشام ، ووجه علىّ مع أبى موسى شريح بن هانئ فى أربعة آلاف من خاصته . وولى عبد الله بن عباس على صلاتهم . وبعث

---

(١) الموافق ٣١ يونيه سنة ٦٥٧م .

معاوية مع عمرو بن العاص أبا الأعور السلمى فى مثل ذلك من أهل الشام .

فساروا فى صفين حتى وافوا دومة الجندل ، وانصرف عليٌّ بأصحابه حتى وافى الكوفة ، وانصرف معاوية بأصحابه حتى وافى دمشق ينتظران ما يكون من أمر الحكمين .

وكان عليٌّ إذا كتب إلى ابن عباس فى أمر اجتمع إليه أصحابه فقالوا . ما كتب إليك أمير المؤمنين ؟ فيكتمهم ، فيقولون : لم كتمتنا ؟ وإنما كتب إليك فى كذا ، وكذا فلا يزالون يخالطونه حتى يقفوا على ما كتب به .

وتأتى كتب معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يأتيه أحد من أصحابه يسأله عن شىء من أمره .

وكتب معاوية إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وإلى عبد الله بن الزبير وإلى أبى الجهم بن حذيفة ، وإلى عبد الرحمن بن عبد يغوث : « أما بعد فإن الحرب قد وضعت أوزارها ، وصار هذان الرجلان إلى دومة الجندل فأقدموا عليهما إن كنتم قد اعتزلتم الحرب فلم تدخلوا فيما دخل الناس فيه لتشهدوا ما يكون منهما والسلام » .

فلما أتاهم كتابه ، ساروا جميعاً إلى دومة الجندل فأقاموا ينتظرون ما يكون من الرجلين وحضر معهم سعد بن أبى وقاص وسار المغيرة بن شعبة وكان مقيماً بالطائف ، ولم يشهد شيئاً من تلك الحروب حتى أتى إلى دومة الجندل فأقام ينتظر ما يكون منهما .

رأى الحكمين فيمن اعتزل القتال :

لما طال مقام المغيرة بدومة الجندل سار حتى أتى معاوية بدمشق فقال له معاوية : أشر علىَّ بما ترى .

فقال له المغيرة : لو أشرتُ عليك لقاتلتُ معك، ولكنى قد أتيتك بخبر الرجلين .

قال معاوية : وما خبرهما ؟ .

قال إنى خلوت بأبى موسى لأبلوَ ماعنده ، فقلت ماتقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟ . فقال : أولئك خيار الناس . خفّت ظهورهم من دماء إخوانهم ، وبطونهم من أموالهم.

قال فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص فقلت: ياعبد الله ماتقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ فقال : أولئك شِرار الناس لم يعرفوا حقاً ، ولم ينكروا باطلاً .

رأى المغيرة فى الحكمين :

قال المغيرة بعد ذلك لمعاوية : أنا أحسب أبا موسى خالعاً صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسب سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أُراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه ، فأقلق ذلك معاوية .

رأى أبى موسى خلع الرجلين : علىّ ومعاوية:

ثم إن عمرو بن العاص جعل يظهر التبجيل لأبى موسى ويجله ويقدمه فى الكلام ويوقره ، ويقول له : صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلى وأنت أكبر سناً منى . ثم اجتمعا ليتناظرا فى الحكومة ، فقال أبو موسى : ياعمرو هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ .

قال : وما هو ؟ .

قال أبو موسى : نولى عبد الله بن عمر فإنه لم يدخل نفسه فى شئ من هذه الحروب .

فقال له عمرو : أين أنت من معاوية ؟ .

قال أبو موسى : مامعاوية موضعاً لها ولا يستحقها بشئ من الأمور

قال عمرو : ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً ؟ قال بلى . قال فإن معاوية ولّى عثمان وبيته يعد فى قريش ماقد علمت ، فإن قال الناس : لم ولى الأمر وليست له سابقة ؟ فإن لك فى ذلك عذراً ، تقول إنى وجدته ولّى عثمان والله تعالى يقول . (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا) وهو مع هذا أخو أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد أصحابه .

قال أبو موسى : اتق الله ياعمرو ! أما ماذكرت من شرف معاوية فلو كان يستوجب بالشرف الخلافة لكان أحق الناس بها أبرهة بن الصبّاح فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا شرق الأرض وغربها . ثم أى شرف لمعاوية مع علىّ بن أبى طالب ، وأما قولك إن معاوية ولّى عثمان

فأولى منه ابنه عمرو بن عثمان ، ولكن إن طاوعتنى أحيينا سنة عمر بن الخطاب وذكره بتوليتنا ابنه عبد الله الحَبر (العالم) .

قال عمرو : فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ .

فقال أبو موسى : إن ابنك رجل صدق ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمساً ، ولكن هلم نجعلها للطيّب بن الطيّب عبد الله بن عمر .

قال عمرو : يا أبا موسى إنه لايصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر .

قال أبو موسى : ويحك ياعمرو ! إن المسلمين قد أسندوا إلينا أمراً بعد أن تقارعوا بالسيوف وتشاكوا بالرماح فلا نردهم فى فتنة .

قال فما ترى ؟ . . .

قال أرى أن نخلع هذين الرجلين : علياً ومعاوية . ثم نجعلها شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من أحبوا .

قال عمرو : فقد رضيت بذلك وهو الرأى الذى فيه صلاح الناس ، فافترقا على ذلك .

الخوارج والشيعة :

لما قدم علىّ الكوفة فارقته الخوارج ، ووثبت إليه الشيعة فقالوا فى أعناقنا بيعة ثانية . نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت .

فقالت الخوارج : استبقتم أنتم ، وأهل الشام إلى الكفر كفرسى رهان .

بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا . وبايعتم أنتم علياً على أنكم أولياء من والى ، وأعداء من عادى .

فقال لهم زياد بن النضر : والله مابسط عليٌ يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت ، ونحن كذلك وهو على الحق والهدى ومن خالفه ضال ومضل .

وبعث عليٌ ابن عباس إليهم فقال لاتعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك ، فخرج إليهم حتى أتاهم ، فأقبلوا يكلمونه فلم يصبر حتى راجعهم فقال مانقمتم من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

فقالت الخوارج : أما ماجعل حكمه إلى الناس . وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه . حَكَمَ في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده . فليس للعباد أن ينظروا في هذا .

قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول (يحكم به ذَوَا عدل منكم) فقالوا له أو نجعل الحكم في الصيد والحَدَث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ؟

وقالت الخوارج : قلنا له فهذه الآية بيننا وبينك . أعدلٌ عندك ابن العاص ، وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ فإن كان عدلاً فلسنا بعدول

ونحن أهل حربه ، وقد حكمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه فى معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا . وقبل ذلك مادعوناهم إلى كتاب الله عز وجل فأبوه . ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة ، وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة ؛ إلا من أقر بالجزية .

وبعث علىٌّ زياد بن النضر إليهم . فقال انظر بأى رءوسهم هم أشد إطافة فنظر فأخبره أنه لم يرهم عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس فخرج علىّ فى الناس حتى دخل إليهم فأتى فسطاط يزيد بن قيس فدخله فتوضأ فيه وصلى ركعتين وأمّره على أصبهان والرى ، ثم خرج حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس ، فقال انته عن كلامهم ألم أنهك رحمك الله ؟ ثم تكلم فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال :

« إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفُلج (الفوز) ومن نطق فيه وأوعث (مشى فى الطريق الخشن) فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً »

ثم قال لهم : « من زعيمكم ؟ » .

قالوا : « ابن الكوّاء » .

قال علىّ : « فما أخرجكم علينا ؟ » .

قالوا : « حكومتكم يوم صفين » .

قال : « أنشدكم بالله . أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم إنى أعلم بالقوم منكم . إنهم ليسوا بأصحاب

دين ولا قرآن . إنى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال . أمضوا على حقكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودَهْناً ومكيدة فرددتم علىّ رأيى وقلتم لا بل نقبل منهم . فقلت لكم اذكروا قولى لكم ومعصيتكم إياى ، فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يُميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن، وأن أبيا فنحن من حكمهما بُرَاء»

قالوا له فخبرنا ، أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ »

فقال : « إنا لسنا حكمنا الرجال . إنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال » .

قالوا : « فخبرنا عن الأجل . لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ »

قال : ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة . ادخلوا مصركم رحمكم الله » . فدخلوا من عند آخرهم

إعلان رأى الحكمين للناس

(سنة ٣٧ هـ — ٦٥٨ م)

أقبل عمرو بن العاص وأبو موسى ، بعد أن اتفقا على خلع صاحبيهما ، إلى الناس وهم مجتمعون فى المسجد فقال عمرو : يا أبا موسى . أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق .

فتكلم أبو موسى فقال : « إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة » .

فقال عمرو « صدق وبرّ . يا أبا موسى تقدم فتكلم » .

فتقدم أبو موسى ليتكلم . فقال له ابن عباس « ويحك والله إنى لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده فإن عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه ، فإذا قمت فى الناس خالفك » وكان أبو موسى مغفلاً فقال : إنا اتفقنا فصعد أبو موسى المنبر فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس . إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ، ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، ونستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً » .

ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن هذا قد قال ماسمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأُثبت صاحبي معاوية فإنه ولىُّ عثمان بن عفان رضى الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه » .

فقال أبو موسى : « مالك لاوفقك الله . غدرت وفجرت ؛ إنما مَثَلُكَ مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

قال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وكان اجتماع الحكمين فى شعبان سنة ٣٨ من الهجرة فى زعم الواقدى وبعد أن تكلم عمرو حمل عليه شُرَيح بن هانىء فضربه بالسوط وحجز الناس بينهما وكان شريح يقول بعد ذلك « ماندمت على شىء ندامتى على ضرب عمرو بالسوط . ألا أكون ضربته بالسيف آتياً به الدهرُ ما أتى . والتمس أهل الشام أبا موسى فركب راحلته وهرب إلى مكة فراراً من اللوم والتعنيف .

قال ابن عباس : قبح الله رأى أبى موسى حذرته وأمرته بالرأى فما عقل ؛ فكان أبو موسى يقول : حذرنى ابن عباس غدرة الفاسق ولكنى اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة[1] ورجع ابن عباس وشريح ابن هانئ إلى علىّ وكان إذا صلى الغداة يقنت فيقول (اللهم العن معاوية وعمراً ، وأبا الأعور السلمى وحبيباً ، وعبد الرحمن بن خالد والضحاك ابن قيس والوليد) .

فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس والأشتر وحسناً وحسيناً .

ورجع عمرو إلى منزله من دومة الجندل فكتب إلى معاوية :

أتتك الخلافة مزفوفة ... هنيئاً مريئاً تقر العيونا
تزف إليك زفاف العروس ... بأهون من طعنك الدارعينا

(١) إلا أن معاوية لم يتول الخلافة إلى سنة ٤٠ هـ .

وما الأشعرى بصلد الزناد ولا خامل الذكر فى الأشعرينا
ولكن أتيحت له حية يظل الشجاع لها مستكينا
فقالوا وقلت وكنت امرأ أجهجه بالخصم حتى يلينا
فخذها ابن هند على بعدها فقد دافع الله مايحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم عدواً مبيناً وحرباً زبوناً

يظهر عمرو لمعاوية فى هذه الأبيات أنه تغلب على أبى موسى بحيلته ويبشره بالخلافة وانتهاء الحرب ، فكان جزاؤه أنه ولاه مصر .

وقال بعض الأشعريين لأبى موسى :

أباموسى خُدعت وكنت شيخاً قريب القعر مدهوش الجنان
رمى عمرو صفاتك يا ابن قيس بأمر لاينوء به اليدان
وقد كنا نجمجم عن ظنون فصرحت الظنون عن العيان
فعض الكف من ندم وماذا يرد عليك عضك بالبنان

ثورة الخوارج على علىّ وأصحابه ورميهم بالكفر :

لما بلغ أهل العراق ما كان من أمر الحكمين لقيت الخوارج بعضها بعضاً واجتمعوا عند عبد الله بن وهب الراسبىّ فتكلم وقال :

« معاشر إخوانى إن متاع الدنيا قليل وإن فراقها وشيك فاخرجوا بنا منكرين لهذه الحكومة ، فإنه لاحكم إلا لله وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ».

ثم تكلم حمزة بن سيّار فقال : « الرأى ما رأيتما ومنهج الحق فيما قلتما . فولو أمركم رجلا منكم ، فإنه لابدّ لكم من قائد وسائس وراية تحفون بها وترجعون إليها » .

فعرضوا الأمر على يزيد بن الحصين وكان من عبادهم فأبى أن يقبلها . ثم عرضوها على ابن أبى أوفى العبسى فأبى أن يقبلها ثم عرضوها على عبد الله ابن وهب الراسبي فقال : « هاتوها فوالله ما أقبلها رغبة فى الدنيا ولا فراراً من الموت . ولكن أقبلها لما أرجو فيها من عظيم الأجر » ثم مد يده فقاموا إليه فبايعوه ، فقام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد فإن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق والجهاد فى سبيله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . وقال الله عز وجل : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأشهد على أهل دعوتنا من أهل ديننا أن قد اتبعوا الهوى ونبذوا حكم الكتاب وجاروا فى الحكم وأن جهادكم لحق فأقسم بمن تعنو له الوجوه وتخشع له الأبصار لولم أجد على قتالهم مساعداً لقاتلتهم وحدى حتى ألقى ربى شهيداً » .

فلما كان من الغد أقبل عبد الله بن وهب الراسبي فى نفر من أصحابه حتى دخل على شريح بن أبى أوفى والعبسى وكان من عظمائهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإن هذين الحكين قد حكما بغير ماأنزل الله وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما وحكموا الرجال فى دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق » .

فقال شريح : « أنذر أصحابك وأعلمهم خروجك ثم اخرج بنا على بركة الله حتى نأتى المدائن فننزلها ونرسل إلى إخواننا الذين بالبصرة فيقدموا علينا فتكون أيديهم فى أيدينا » .

فقال يزيد بن حصين الطائى : « إنكم إن خرجتم بجماعتكم طَلَبتم ولكن اخرجوا فرادى مستخفين . فأما المدائن فإن بها من يمنع عنها ولكن تواعدوا أن توافوا جسر النهروان فتقيموا هناك وتكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصره أن يوافوكم بها »

اتفقوا على ذلك وأنذروا أصحابهم واستعدوا للخروج فرادى ، وكتبوا إلى من كان منهم بالبصرة الكتاب التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن وهب ، ويزيد بن الحصين وحرقوص بن زهير ، وشريح بن أبى أوفى إلى من بلغه كتابنا بالبصرة من المؤمنين المسلمين . سلام عليكم ، فإنا نحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو الذى جعل أحب عباده إليه أعملهم بكتابه ، وأقومهم بالحق فى طاعته ، وأشدهم اجتهاداً فى مرضاته ، وإن أهل دعوتنا حكموا الرجال فى أمر الله فحكموا بغير مافى كتاب الله ولا فى سنة نبىّ الله فكفروا لذلك وصدوا عن سواء السبيل وقد نابذناهم على سواء . إن الله لايحب الخائنين .

أما بعد : فقد اجتمعنا بجسر النهروان فسيروا إلينا رحمكم الله لتأخذوا نصيبكم من الأجر والثواب وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وكتابنا هذا إليكم مع رجل من إخوانكم ذى أمانة ودين فسلوه عما أحببتم واكتبوا إلينا بما رأيتم والسلام » .

ثم وجهوا كتابهم مع عبد الله بن سعد العبسى فسار حتى أتى البصرة وأوصل الكتاب إلى أصحابه فاجتمعوا وعلموا مابه ثم كتبوا إليهم بموافاتهم ثم إن القوم خرجوا بالكيفية التى ذكروها فى كتابهم، وخرج يزيد بن الحصين على بغلة يقود فرساً وهو يتلو هذه الآية :

(فخرج منها خائفاً يترقب . قال رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) وسار حتى انتهى إلى السِّيب (نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة) فاجتمع إليه جمع كثير من أصحابه وفيهم زيد بن عدى بن حاتم ، وكان سعيد بن مسعود عامل علىّ على المدائن فتحاموه ، وخرج عبد الله بن وهب الراسبى ليلاً واجتمع إليه أصحابه واستخلف سعيد بن مسعود على المدائن ابن أخيه المختار بن أبى عبيد وخرج فى طلب عبد الله بن وهب وأصحابه فلقيهم بكر فى بغداد مع مغيب الشمس وسعيد فى خمسمائة فارس ، والخوارج ثلاثون رجلاً فتناوشوا ساعة . فقال أصحاب سعيد لسعيد . أيها الأمير . ماتريد إلى قتال هؤلاء ولم يأتك فيهم أمر خل سبيلهم ، واكتب إلى أمير المؤمنين تعلمه أمرهم . فمضى وتركهم .

سار عبدالله بن وهب حتى انضم إلى أصحابه وهم بنهروان ووافاهم من

كان على رأيهم من أهل البصرة وكانوا ٥٠٠ رجل . وكان على البصرة يومئذ عبد الله بن العباس . فلما بلغه خروجهم وجه فى طلبهم أبا الأسود الديلىّ فى ألف فارس فلحقهم بجسر تُستر (تستر : مدينة بخوزستان) وحال بينهم الليل ففاتوه . وكانوا فى جميع مسيرهم لايلقون أحداً إلا قالوا له . ماتقول فى الحكمين ؟ فإن تبرأ منهما تركوه ، وإن أبى قتلوه . ثم أقبلوا حتى انتهى إلى دجلة فعبروها من ناحية صَرِيفين حتى وافوا نهروان .

كتاب على رضى الله عنه الى الخوارج :

كتب علىّ رضى الله عنه إلى هؤلاء الخوارج بشأن الحكمين :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن وهب الراسبي ويزيد بن الحصين ومن قبلهما : سلام عليكم ، فإن الرجلين اللذين ارتضيناهما للحكومة خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلما لم يعملا بالسنة ولم يحكما بالقرآن تبرأنا من حكمهما ونحن على أمرنا الأول . فاقبلوا إلىّ رحمكم الله فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم لنعود لمحاربتهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين »

رد الخوارج .

فلما وصل إليهم كتابه كتبوا :

« أما بعد فإنك لم تغضب لربك ولكن غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك أنك كفرت في كان من تحكيمك الحكمين واستأنفت التوبة

والإيمان ، نظرنا فيماسألتنا من الرجوع إليك وإن تكن الأخرى فإنا ننابذك على سواء إن الله لايهدى كيد الخائنين »

إن الخوارج كفروا علياً رضى الله عنه لأنه قبل التحكيم والحقيقة أنه لم يكفر لأنه شرط على الحكمين أن يحكما بكتاب الله عز وجل فلما خالفا كتاب الله تبرأ منهما ومن حكمهما فقدخدع عمروأباموسى فانخدع . لكن الخوارج أصروا على أن يتوب علىّ ثم إنه رضى الله عنه لما رفع أهل الشام المصاحف عرف أنها حيلة يراد بها التفرقة ، ووقف الحرب وأدرك الأشتر ذلك لكنهم قالوا نرجع إلى كتاب الله فاضطروا علياً إلى وقف الحرب كما اضطروه إلى قبول التحكيم ، فلما عيّن ابن عباس رفضوا ثم اختار الأشتر فقال قائلهم : وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ وأبوا إلا أباموسى وكان علىّ لايثق به واحتج على اختياره ، لكنه لما رأى تمسكهم به أذعن لرأيهم مرغما ، وبعد ذلك يقولون له رضى الله عنه : إنك كفرت فإن لم تتب عن كفرك قاتلناك !! فهل بعد ذلك تعسف ؟ .

رأى علىّ بعد أن علم إصرارهم على رأيهم أن يدعهم على حالهم ويسير إلى الشام

عليّ يقاتل الخوارج وينتصر عليهم بالنهروان

سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م)

جمع عليّ رضى الله عنه أكثر من ثمانين ألف رجل فلما تهيأ للمسير إلى الشام أتاه عن الخوارج أخبار فظيعة من قتلهم عبد الله بن خباب وامرأته، وذلك أنهم لقوهما فقالوا لهما أرضيتما بالحكمين ؟ قالا : نعم، فقتلوهما . وقتلوا أم سِنان الصيداوية واعتراضهم الناس يقتلونهم . فلما بلغه ذلك بعث إليهم الحارث بن مرة الفقعسى ليأتيه بخبرهم فأخذوه فقتلوه . فلما بلغ الناس ذلك اجتمعوا إلى عليّ فقالوا : يا أمير المؤمنين أتدع هؤلاء على ضلالتهم وتسير فيفسدوا فى الأرض ويعترضوا الناس بالسيف ؟ سر إليهم وادعهم إلى الرجوع إلى الطاعة والجماعة فإن تابوا وقبلوا فإن الله يحب التوابين وإن أبوا فآذنهم بالحرب . فإذا أرحت الأمة منهم سرت إلى الشام .

فنادى فى الناس بالرحيل وسار حتى ورد عليهم نهروان فعسكر عليّ على بعد فرسخ منهم . وأرسل إليهم قيس بن سعد بن عُبادة ، وأبا أيوب الأنصارى . فأتيا فقالا :

« عباد الله إنكم قد ارتكبتم أمراً عظيماً باستعراضكم الناس تقتلونهم وشهادتكم علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم » .

فأجابهما عبد الله بن السَّخْبر فقال : « إليكما عنا فإن الحق قد أضاء لنا كالصبح ولسنا بتابعيكم ولا راجعين إليكم أو تأتوا بمثل عمر بن الخطاب !! »

فقال قيس بن سعد مانعرفه فينا إلا عليّ بن أبى طالب . فهل تعرفونه فيكم ؟ .

قال : لا .

قال : فأنشدكم الله فى أنفسكم أن تهلكوها فإنى أرى الفتنة قد دخلت قلوبكم ثم تكلم أبو أيوب بنحو هذا فقالوا :

« يا أبا أيوب إنا إن بايعنا كم اليوم حكمتم غداً آخر » .

قال : « فإنا ننشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ماتأتى به فى قابل » .

قالوا : « إليكما عنا فقد نابذنا كم على سواء » .

فانصرفا إلى عليّ فأخبراه بذلك .

فأقبل عليّ رضى الله عنه حتى وقف عليهم بحيث يسمعون كلامه فنادى : « أيتها العصابة التى أخرجتها اللجاجة وصدّها عن الحق الهوى فأصبحت فى لبس وخطأ إنى نذير لكم تمادوا فى ضلالتكم فتُلْفَوا مصرّعين من غير بينة من ربكم ولا برهان ألم تعلموا إنى شرطت على الحكمين أن يحكما بما فى كتاب الله وأخبرتكم أن طلب القوم الحكومة مكيدة . فلما أبيتم إلا الحكومة شرطتُ عليهم أن يحييا ما أحيا القرآن ويُميتا ما أمات القرآن فخالفا الكتاب والسنة وعملا بالهوى فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول . فأين يتاه بكم ومن أين أتيتم » .

قالوا : « إنا كفرنا حين رضينا بالحكمين ، وقد تبنا إلى الله من ذلك فان تبت كما تبنا فنحن معك وإلا فاذن بحرب فإنا منابذوك على سواء » .

فقال لهم عليٌّ « أشهد على نفسي بالكفر . لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين » ولا شك أنه ـ رضى الله عنه ـ قال ذلك تهكماً بهم.

ثم قال عليٌّ : « ليخرج إليّ رجل منكم ترضون به حتى أقول ويقول فإن وجبت عليّ الحجة أقررتُ لكم وتبت إلى الله ، وإن وجبت عليكم فاتقوا الله الذى مردّكم إليه » .

فقالوا لعبد الله بن الكوّاء وكان من كبرائهم : اخرج إليه حتى تحاجه فخرج إليه فقال عليٌّ : هل رضيتم ؟ قالوا « نعم » قال اللهم أُشهد فكفى بك شهيداً .

فقال عليٌّ رضى الله عنه : « يا ابن الكواء ! ما الذى نقمتم عليّ بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لي . فهلا برئتم مني يوم الجمل ؟ » .

قال ابن الكواء : « لم يكن هناك تحكيم » .

فقال عليٌّ : « يا ابن الكواء ويحك ! أنا أهدى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » .

قال ابن الكواء : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

قال : « فما سمعتَ قول الله عز وجل (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون ؟ » .

قال : « إن ذلك احتجاج عليهم وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين فنحن أحرى أن نشك فيك » .

قال عليٌّ: «وإن الله تعالى يقول : (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) » .

فقال ابن الكواء : « ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم » .

فلم يزل عليٌّ رضى الله عنه يحاج ابن الكواء بهذا وشبهه ، فقال ابن الكواء :

« أنت صادق فى جميع ماتقول غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين » .

فقال عليٌّ « ويحك يا ابن الكواء ! إنى إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمراً » .

قال ابن الكواء : « فإن أبا موسى كان كافراً » .

قال عليٌّ : « ويحك ! متى كفر ؟ أحين بعثته أم حين حكم ؟ » .

قال « بل حين حكم » قال : « أفلا ترى أنى إنما بعثته مسلماً فكفر فى قولك بعد أن بعثته ؟ أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله فدعاهم إلى غيره هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شئ ؟ » قال لا . قال ويحك ! فما كان عليّ أن ضل أبوموسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟ » .

فلما سمع عظماء الخوارج ذلك ، قالوا لابن الكواء : انصرف ، ودع مخاطبة الرجل . فانصرف وأبى القوم إلا التمادى فى الغى ، وأمر عليّ بالنداء فى الناس أن يأخذوا أهبة الحرب ثم عبى جنوده بالكيفية الآتية :

ولّى على الميمنة ـ حجر ن عدى .

الميسرة ـ شبث ن ربعى .

الخيـل ـ أبا أيوب الأنصارى .

الرجالة ـ أبا قتادة .

واستعدا الخوارج فجعلوا على ميمنتهم ـ يزيد بن حُصين ، وعلى ميسرتهم ـ شريح بن أبى أوفى العبسى، وكان من نساكهم ، وعلى الرجالة ـ حرقوص بن زهير ، وعلى الخيل كلها ـ عبد الله بن وهب .

ورفع علىّ راية وضم إليها ٢٠٠٠ رجل، ونادى من التجأ إلى هــــذه الراية فهو آمن .

ثم توافف الفريقان ، فقال فروة بن نوفل الأشجعى وكان من رؤساء الخوارج لأصحابه :

« ياقوم والله ماندرى على مانقاتل علياً ، وليست لنافى قتاله حجة ولا بيان . ياقوم انصرفوا بنا حتى تنفذ لنا البصيرة فى قتاله أو اتباعه » .

فترك أصحابه فى موافقهم ، ومضى فى ٥٠٠ رجل حتى أتى البندنيجين[1] وخرجت طائفة أخرى حتى لحقوا بالكوفة واستأمن إلى الراية منهم ١٠٠٠ رجل . فلم يبق مع عبد الله إلا أقل من ٤٠٠٠ .

فقال علىّ لأصحابه : لاتبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم ، فتنادت الخوارج

---

(١) البندنيجين : بلدة فى طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد .

« لاحكم إلا لله وإن كره المشركون » ثم شدوا على أصحاب علىّ وافترقت الخوارج فرقتين : فرقة أخذت نحو الميمنة ، وفرقة أخرى نحو الميسرة .

وعطف عليهم أصحاب علىّ وحمل قيس بن معاوية البُرْجُمىّ من أصحاب علىّ على شريح بن أبى أوفى فضربه بالسيف على ساقه فأبانها فجعل يقاتل برجل واحدة وهو يقول : « الفحل يحمى شَوْلَه معقولاً » فحمل عليه قيس بن سعد فقتله وقُتلت الخوارج كلها وأمر علىّ بمن كان منهم ذا رمق أن يدفعوا إلى عشائرهم وكانوا ٤٠٠ رجل وأمر بأخذ ما كان فى عسكرهم من سلاح ودواب فقسمه فى أصحابه وأمر بما سوى ذلك فدُفع إلى ورثتهم وقيل لم يقتل من أصحاب على إلا سبعة أولهم يزيد بن نويرة .

انهزم الخوارج شر هزيمة فقتل منهم من قتل وجرح من جرح وإنا نذكر فيما يلى رؤساءهم وأشهر أعلامهم :

(١) بشير بن يزيد البولانى (٢) حرقوص بن زهير (٣) حمزة بن سنان (٤) زرعة بن البرج الطائى (٥) زيد بن الحصين الطائى (٦) شريح بن أبى أوفى (٧) عبد الله بن السخبر (٨) عبد الله بن سعد الطائي (٩) عبد الله بن الكواء (١٠) عبد الله بن وهب (١١) عمرو بن مالك النبهانى (١٢) فروة بن نوفل الأشجعى (١٣) مسعر بن فدكى التميمى (١٤) يزيد بن عاصم المحاربى .

وتاريخ هذه الموقعة ٩ صفر سنة ٣٨ هـ (١٧ يوليه سنة ٦٥٨ م)[١]

---

(١) قال الاستاذ موير إنه كان خيراً للاسلام أن لاينجو أحد من هؤلاء الخوارج البالغ عددهم ٤٠٠٠ فان الأفعى جرحت ولم تقتل .

انظار الخوارج للتحكيم :

قالت الخوارج حكم علىّ الرجال فى دين الله تعالى والله عزّ وجلّ قد حرم ذلك بقوله (إن الحكم إلا لله) وبقوله تعالى (وما اختلفتم من شىء فحكمه إلى الله) وقد ذكرنا مارد به علىّ رضى الله عنه عليهم فى خطبه وكتبه لكنهم لم يقنعوا بقوله فحاربهم وهزمهم كما رأيت وقد رد عليهم ابن حزم فى كتابه (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) الجزء الرابع بما يأتى قال :

ماحكم علىّ رضى الله عنه قط رجلا فى دين الله وحاشاه من ذلك وإنما حكم كلام الله عزّ وجلّ كما افترض الله تعالى عليه، وإنما اتفق القوم كلهم إذ رفعت المصاحف على الرماح وتداعوا إلى مافيها على الحكم بما أنزل الله عز وجل فى القرآن. وهذا هو الحق الذى لايحل غيره لأن الله تعالى يقول (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) : فإنما حكم علىّ رضىالله عنه أبا موسى وعمراً رضى الله عنهما ليكون كل واحد منهما مدلياً بحجة من قدمه وليكونا متخاصمين عن الطائفتين ثم حاكمين لمن أوجب القرآن الحكم له . إذ من المحال الممتنع الذى لايمكن الذى لايفهم لغط العسكرين أو أن يتكلم جميع أهل العسكر بحجتهم . فصح يقيناً لامحيد عنه صواب علىّ فى تحكيم الحكمين، والرجوع إلى ما أوجبه القرآن، وهذا لايجوز غيره، ولكن أسلاف الخوارج كانوا أعراباً قرأوا القرآن قبل أن يتفقهوا فى السنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء لامن أصحاب ابن مسعود، ولا أصحاب عمر

ولا أصحاب عليّ ولا أصحاب عائشة ، ولاأصحاب أبى موسى ، ولا أصحاب معاذ ابن جبل ولا أصحاب أبى الدرداء ولا أصحاب سلمان الفارسى، ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر ، ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها فظهر ضعف القوم وجهلهم وأنهم أنكروا ماقام البرهان الذى أوردنا بأنه حق ، ولولم يكن من جهلهم إلا قرب عهدهم بخبر الأنصار يوم السقيفة وإذعانهم رضى الله عنهم مع جميع المهاجرين، لوجب الأمر فى قريش دون الانصار وغيرهم وان عهدهم بذلك قريب منذ خمسة وعشرين عاماً وأشهر . وجمهورهم أدرك ذلك بسنة وثبت عند جميعهم كثبات أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولافرق ؛ لأن الذين نقلوا إليهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقلوا اليهم القرآن والشرائع فدانوا بكل ذلك هم بأعيانهم لازيادة فيهم ولا نقص نقلوا اليهم خبر السقيفة ، ورجوع الأنصار إلى أن الأمر لايكون إلا فى قريش وهم يقرون ويقرأون قوله تعالى (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى) وقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً . الآية) وقوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) ثم أعماهم الشيطان وأضلهم الله تعالى على علم ، فخلوا بيعة مثل عليّ وأعرضوا عن مثل سعيد بن زيد وسعد وابن عمر وغيرهم ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل وأعرضوا عن سائر الصحابة الذين انفقوا بعد الفتح

وقاتلوا ووعدهم الله الحسنى وتركوا من يقرون بأن الله تعالى عزّ وجلّ علم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ورضى عنهم وبايعوا الله ، وتركوا جميع الصحابة وهم الأشداء على الكفار الرحماء بينهم ، الركع السجد المبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوهم من أثر السجود ، المثنى عليهم فى التوراة والانجيل من عند الله عزّ وجلّ الذين غاظ الله بهم الكفار المقطوع على أن باطنهم فى الخير كظاهرهم؛ لأن الله عزّ وجلّ شهد بذلك فلم يبايعوا أحداً منهم وبايعوا شبث بن ربعى مؤذن سجاح أيام ادعت النبوة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم حتى تداركه الله عزّ وجلّ ففرّ عنهم وتبين لهم ضلالتهم فلم يقع اختيارهم إلا على عبدالله بن وهب الراسبى . أعرابى بوّال على عقبيه ، لاسابقة له ولاصحبة ولافقه ولاشهد الله له بخير قط . فمن أضل ممن هذه سيرته واختياره . ولكن حق لمن كان أحداً يمينه ذوخويصرة الذى بلغه ضعف عقله وقلة دينه إلى تجويره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكمه ، والاستدراك ورأى نفسه أورع من رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا وهو يقر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه وبه اهتدى وبه عرف الدين ، ولولاه لكان حماراً ونعوذ بالله من الخذلان [1]

---

(١) ذو الخويصرة هذا الذى ذكره ابن حزم هو حرقوص بن زهير الذى تقدم ذكره وهو أصل الخوارج . عن أبى سعيد الخدرى قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ذات يوم قسما فقال ذو الخويصرة ، رجل من تميم : يارسول الله أعدل . فقال ويلك من يعدل إذا لم أعدل . فقال عمر رضى الله عنه ائذن لى لأضرب عنقه قال لا ، أن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كمروق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شئ وينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء وينظر إلى نضيه فلايوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجدفيه شيء سبق الفرث والدم يخرجون على حين فرقة من الناس آيتهم رجل احدى ثدييه مثل ثدى المرأة ومثل البضعة تدردر قال أبو سعيد أشهد لسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أنى كنت مع على رضى الله عنه حين قاتلهم فالتمس فى القتلى فأتى به على النعت الذى نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خطب علىّ رضى الله عنه فى حث الناس على المسير الى الشام :

قال على رضى الله عنه للناس وهو أول كلام قال لهم بعد النهر :

« أيها الناس ! استعدوا للمسير إلى عدوّ فى جهاده القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده . حيارى فى الحق جُفاة عن الكتاب نُكُبٍ عن الدين . يعمهون فى الطغيان ويُعكسون فى غمرة الضلال . فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رِباط الخيل ، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا ، وكفى بالله نصيراً »

فلم ينفروا ولم يتيسروا فتركهم أياماً .

وقيل لما فرغ علىّ من أهل النهروان حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم »

قالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قِصداً (متكسرة) فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عُدتنا عُدَّة مَن هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا وكان الذى تولى ذلك الكلام الأشعث بن قيس . فأقبل حتى نزل النخيلة فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يُقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم . فأقاموا فيه أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالاً من وجوه الناس قليلا وتُرك العسكر خالياً . فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه فى المسير .

ولما يئس علىّ رضى الله عنه من اجتماع جيشه دعا رؤساءهم ووجوههم

فسألهم عن رأيهم وما الذى يبطىء بهم . فمنهم المعتل ومنهم المتكره وأقلهم من نشط فقام فيهم خطيباً فقال :

«عباد الله . مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من العز ؟ أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة ، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون ، وكأن أبصاركم كُمْهٌ فأنتم لاتبصرون . لله أنتم ! ماأنتم إلا أسود الشَّرَى فى الدعة وثعالب روّاغة حين تدعون إلى البأس . ماأنتم لى بثقة سجيس الليالى . ماأنتم بركب يُصال بكم، ولاذى عز يُعتصم اليه ، لعمر الله لبئس خشاش الحرب أنتم . إنكم تُكادون ولا تكيدون . وينتقص أطرافكم ولا تحاشون ، ولا يُنام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون . ان أخا الحرب اليقظان، وبات لذل مَن وادع وغلب المتجادلون والمغلوب مقهور ومسلوب» .

ثم قال :

« أما بعد فإن لى عليكم حقاً . وإن لكم علىّ حقاً ، فأما حقكم علىّ فالنصيحة لكم ماصحبتكم وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيما لا تجهلوا وتأديبكم كى تعلموا . وأما حق عليكم فالوفاء بالبيعة والنصح لى فى الغيب والمشهد ، والاجابة حين أدعوكم . والطاعة حين آمركم . فإن يرد الله بكم خيراً انتزعوا عما أكره وترجعوا إلى ماأحب ، تنالوا ماتطلبون وتدركوا ماتأملون » .

دخول عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن أبى بكر

سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م)

ذكرنا أن علياً رضى الله عنه عزل قيس بن سعد عن ولاية مصر بسبب رفضه محاربة أهل خَربتا ، وولى مكانه محمد بن أبى بكر .

وقد أوصاه قيس بن سعد عند مالقيه فقال : إنه لايمنعنى نصحى لك عزله إياى ولقد عزلنى عن غير وهن ولا عجز فاحفظ ماأوصيك به يدم صلاح حالك . دع معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطاة ومن ضوى إليهم على ماهم عليه لاتكفهم عن رأيهم فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم وإن تخلفوا عنك فلا تطلبهم ، وانظر هذا الحى من مضر فأنت أولى بهم منى فألن لهم جناحك وقرب عليهم مكانك وارفع عنهم حجابك ، وانظر هذا الحى من مدلج فدعهم وما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم ، وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم . فإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل فإن هذا لاينقصك ولن تفعل . إنك والله ماعلمت لتنظر الخيلاء وتحب الرياسة وتسارع إلى ماهو ساقط عنك والله موفقك .

هذه نصيحة قيس لمحمد بن أبى بكر . نصحه بموادعة المطالبين بدم عثمان وكان عددهم ١٠٠٠٠ وكانوا بخربتا خوفاً من أن يثوروا عليه لكنه أبى إلاحربهم لأنه كان ضد عثمان وأتباعه ولأن علياً رضى الله عنه أمره بمحاربتهم ونصحه بالتحبب إلى الناس ليستميل قلوبهم ، ولأن الخيلاء تنفر الرعية من الحاكم .

فعمل محمد بخلاف ماأوصاه به قيس فبعث إلى ابن حديج والخارجة معه يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه فبعث إلى دور الخارجة فهدمها ونهب أموالهم ، وسجن ذراريهم فنصبوا له الحرب . فبلغ علياً وثوب أهل مصر على محمد ابن أبى بكر، فقال ما لمصر إلا أحد الرجلين صاحبنا الذى عزلناه عنها (يعنى قيساً أو مالك بن الحارث ـ الأشتر) وكان علىّ حين انصرف من صفين رد الأشتر على عمله بالجزيرة وقد كان قال لقيس بن سعد أقم معى على شُرَطى حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة ثم اخرج إلى آذربيجان فإن قيساً مقيم مع علىّ على شرطته . فلما انقضى أمر الحكومة كتب على إلى مالك ابن الحارث الأشتر وهو يومئذ بنصيبين :

« أما بعد فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين وأقمع به نخوة الأثيم وأشد به الثغر المخوف وكنت وليت محمد بن أبى بكر (مصر) فخرجت عليه بها الخوارج . وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب ، ولا بمجرّب للأشياء فاقدم علىّ لننظر فى ذلك فيما ينبغى ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام » وكان محمد بن أبى بكر شاباً عمره (٢٦ سنة) أو نحو ذلك .

فأقبل الأشتر إلى علىّ حتى دخل عليه فحدثه حديث أهل مصر . وقال ليس لها غيرك اخرج رحمك الله فإنى لم أوصك . اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك . فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ ، واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة .

فخرج من عنـده فأتى رحله فتهيأ للخروج إلى مصر . وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية عليّ الأشتر ، فعظم ذلك عليه وقد كان طمع فى مصر فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن ابى بكر فبعث معاوية إلى (الجايستار)[1] رجل من أهل الخراج فقال له إن الأشتر قد ولى مصر ، فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت . فاحتل له بمـا قدرت عليه . فخرج الجايستار حتى أتى القُلزُم وأقام به . وخرج الأشتر من العراق إلى مصر . فلما انتهى إلى القلزم استقبله الجايستار . فقال هذا منزل وهذا طعام وعلف وأنا رجل من أهل الخراج فنزل به الأشتر فأتاه الدهقان بعلف وطعام حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سماً فسقاه اياها فلما شربها مات .

هذه رواية الطبرى أما ابن خلدون فقال : « وقيل ان معاوية بعث إلى صاحب القلزم فسمه على أن يسقط عنه الخراج وهذا بعيد » .

وعلى كل حال مات الأشتر من شربة العسل قبل أن يصل مصر . وأقبل معاوية يقول لأهل الشام إن علياً وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه فكانوا يدعون الله على الأشتر فلما بلغ معاوية موته قام فى الناس خطيباً وقال :

« أما بعد فإنه كانت لعلى بن أبى طالب يدان يمينان قطعت إحداهما يوم صفين ـ يعنى عمّار بن ياسر ـ وقطعت الأخرى اليوم يعنى الأشتر .

---

(١) ذكر الجايستار فى تاريخ ابن الأثير باسم الحاسات .

كتاب عليّ الى أهل مصر ثم الى محمد بن أبي بكر :

لما مات الأشتر وجدوا معه كتاب عليّ إلى أهل مصر هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى أمة المسلمين الذين غضبوا لله حين عُصى فى الأرض وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر فلا حق يستراح إليه ولا منكر يُتناهى عنه . سلام عليكم فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عبيد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعادى حِذار الدوائر . أشد على الكفار من حريق النار وهو مالك بن الحارث أخو مَذْحج فاسمعوا له وأطيعوا فإنه سيف من سيوف الله . لا نابى الضريبة ولا كليل الحد فإن أمركم أن تقدموا فأقدموا وإن أمركم أن تنفروا فانفروا فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى وقد آثرتكم به على نفسى لنُصحه لكم وشدة شكيمته على عدوكم عصمكم الله بالهدى وثبتكم على اليقين والسلام » .

وقد كان الأشتر أهلا لهذه الثقة فإنه أبلى بصفين بلاء حسناً وقاتل قتالا شديداً وكان من أنشط القواد وأشجعهم وأشدهم إخلاصاً.

ولما بلغ محمد بن أبى بكر أن علياً قد بعث الأشتر، شق عليه فكتب عليّ اليه عند وفاة الأشتر :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى محمد ابن أبى بكر . سلام عليك . أما بعد فقد بلغنى موجدتك فى تسريحى الأشتر إلى عملك . وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً منى لك فى

الجد . ولو نزعتُ ماتحت يدك من سلطانك لوليتك ماهو أيسر عليك فى المئونة وأعجب اليك ولاية منه أن الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً ، وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون . فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب . اصبر لعدوك ، وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله : والاستعانة به والخوف منه يكفك ماأهمك ، ويعينك على ماولاك . اعاننا وإياك على مالاينال إلا برحمته والسلام عليك » .

فكتب إليه محمد بن أبى بكر :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله علىّ أمير المؤمنين من محمد بن أبى بكر . سلام عليك فإنى أحمد الله الذى لاإله غيره . أما بعد فإنى قد انتهى إلىّ كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت مافيه، وليس أحد من الناس بأرضى منى برأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه منى . وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس إلا من نصب حرباً وأظهر لنا خلافاً وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظ وملتجئ إليه وقائم به والله المستعان على كل حال والسلام عليك » .

معاوية يستشير عمراً فى الحملة على مصر :

استشار معاوية أصحابه فى أمر مصر وكان فيهم عمرو بن العاص فقال له: « أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به

فيأتى مصر حتى يدخلها فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فنظاهره على من بها من عدونا . فإذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوتُ أن يعين الله بنصرك ويُظهر فُلجك » (فوزك) .

قال معاوية : هل عندك شىء دون هذا يُعمل به فيما بيننا وبينهم ؟

قال عمرو . ما أعلمه .

قال : بلى فإن غير هـذا عندى . أرى أن نكاتب من بها من شيعتنا ومن بها من أهل عدونا . فأما شيعتنا فآمرهم بالثبات على أمرهم . ثم أمنيهم قدومنا عليهم ، وأما من بها من عدونا فندعوهم إلى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا . فإن صلح لنا ماقبلهم بغير قتال فذاك ما أحببنا وإلا كان حربهم من وراء ذلك كله . إنك ياابن العاص امرؤ بورك لك فى العجلة وأنا امرؤ بورك لى فى التؤدة .

قال عمرو : فاعمل بمـا أراك الله فوالله ماأرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى الحرب العوان .

كتاب معاوية الى أنصاره فى مصر :

فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وإلى معاوية بن حُديج السكندى وكانا قد خالفا علياً :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فان الله قد ابتعثكما لأمر عظيم أعظم به أجركما ورفع به ذكركما وزينكما به فى المسلمين . طلبكما بدم الخليفة المظلوم وغضبكما لله إذ تُرك حكم الكتاب ، وجاهدتمـا أهل البغى والعدوان فأبشروا

برضوان الله وعاجل نصر أولياء الله ، والمواساة لكما فى الدنيا وسلطاننا حتى يُنتهى فى ذلك مايرضيكما ونؤدى به حقكما إلى مايصير أمركما اليه . فاصبروا وصابروا عدوكما وادعوا المدبر إلى هداكما وحفظكما ، فإن الجيش قد أُضل عليكما فانقشع كل ماتكرهان ، وكان كل ماتهويان والسلام عليكما » .

وكتب هذا الكتاب ، وبعث به مع مولى له يقال له سُبَيع . فخرج الرسول بكتابه حتى قدم عليهما مصر ومحمد بن أبى بكر أميرها ، وقد ناصب هؤلاء الحرب بها وهو غير متخون بها يوم الاقدام عليه .

فدفع كتابه إلى مسلمة بن مخلد وكتاب معاوية إلى حُديج . فقال مسلمة امض بكتاب معاوية إليه حتى يقرأه ثم القنى به حتى أجيبه عنى وعنه . فانطلق الرسول بكتاب معاوية بن حديج إليه فأقرأه إياه . فلما قرأه قال : إن مسلمة بن مخلد قد أمرنى أن أرد إليه الكتاب إذا قرأته لكى يجيب معاوية عنك وعنه . قال : قل له فليفعل ودفع إليه الكتاب . فأتاه ثم كتب مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج :

« أما بعد ، فإن هذا الأمر الذى بذلنا له أنفسنا واتبعنا أمر الله فيه . أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر ممن خالفنا وتعجيل النقمة لمن سعى على إمامنا وطأطأ الركض فى جهادنا ونحن بهذا الحيِّز من الأرض قد نفينا من كان به من أهل البغى ، وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل وقد ذكرتَ المواساة فى سلطانك ودنياك . وبالله إن ذلك لأمر ماله نهضنا ولا إياه أردنا فإن يجمع الله لنا مانطلب ويؤتنا ماتمنينا فإن الدنيا والآخرة

لله رب العالمين وقد يؤتيهما الله معاً حا كما من خلقه كما قال فى كتابه ولا خُلف لموعده . قال : (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) عجّل علينا خيلك ورجلك فإن عدونا قد كان علينا حربا وكنا فيهم قليلاً . فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مقرنين ؛ فإن يأتنا الله بمدد من قِبلك يفتح الله عليكم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ونعم الوكيل والسلام عليك »

ورد هذا الكتاب إلى معاوية وهو بفلسطين فأمر عمراً بالتجهز وبعث معه ٦٠٠٠ رجل وخرج وودعه وقال :

إياك أوصيك ياعمرو بتقوى الله والرفق فإنه يُمن ، وبالمهل والتؤدة فإن العجلة من الشيطان ، وبأن تقبل ممن أقبل وأن تعفو عمن أدبر فإن قبل فبها ونعمت وإن أبى فإن السطوة بعد المعذرة أبلغ فى الحجة وأحسن فى العاقبة ، وادع الناس إلى الصلح والجماعة . فإذا أنت ظهرت فليك أنصارك آثر عندك ، وكل الناس فأول حسنا .

عمرو بن العاص ومعاوية يهددان محمد بن أبى بكر :

خرج عمرو بن العاص يسير حتى نزل أدانى أرض مصر ، فاجتمعت العثمانية اليه فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبى بكر :

« أما بعد . فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فانى لا أحب أن يصيبك منى ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك . فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البِطان [1] فاخرج

(١) البطان : حزام القتب الذى يجعل تحت بطن البعير .

منها فإنى لك من الناصحين والسلام » .

وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه :

« أما بعد ، فإن غبّ البغى والظلم عظيم الوبال ، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ومن التبعة الموبقة فى الآخرة . وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ولا أسوأ له عيباً ولا أشد عليه خلافاً منك . سعيت عليه فى الساعين وسفكت دمه فى السافكين . ثم أنت تظن أنى عنك نائم أو ناس لك حتى تأتى فتأمَّر على بلاد أنت فيها جارى وجُل أهلها أنصارى يرون ويرقبون قولى ، ويستصرخونى عليك ، وقد بعثت إليك قوماً حِناقا عليك يستسقون دمك ويتقربون إلى الله بجهادك . وقد أعطوا الله عهداً ليمثلن بك ولولم يكن منهم اليك ماعدا قتلك ماحذرتك ولا انذرتك ولأحببتُ أن يقتلوك بظلمك ، وقطيعتك وعدوك على عثمان يوم يُطعن بمشاقصك بين خششائه [1] وأوداجه [2] ولكن أكره أن أمثل بقرشى ، ولن يسلمك الله من القصاص أبداً » .

محمد بن أبى بكر يطلب من علىّ المدد :

وبعد أن قرأ محمد بن أبى بكر كتابى عمرو ومعاوية طواهما وبعث بهما إلى علىّ وكتب معهما :

« أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أدانى مصر ، واجتمع اليه أهل البلد

---

(١) الخششاء : العظم الناتئ خلف الأذن .

(٢) الاوداج جمع ودج وهو : عرق الاخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة .

جُلهم ممن كان يرى رأيهم . وقد جاء فى جيش لَجِب [1] خُرّاب ، وقد رأيت ممن قِبلى بعض الفشل ، فإن كان لك فى أرض مصر حاجة فأمدنى بالرجال والأموال والسلام عليك» .

طلب محمد من علىّ رضى الله عنه أن يمده بالرجال والأموال لقتال جيش عمرو بن العاص غير أن جيش علىّ كان لا يريد القتال فكان يدعوهم إلى المسير إلى الشام لمحاربة معاوية فلا يجتمع إليه إلا عدد قليل حتى يئس منهم .

فكتب إليه علىّ :

«أما بعد فقد جاءنى كتابك تذكر أن ابن العاص قد نزل بأدانى أرض مصر فى لَجِبٍ من جيشه خراب وأنّ من كان بها على مثل رأيه قد خرج إليه وخروج من يرى رأيه إليه خير لك من إقامتهم عندك . وذكرت أنك قد رأيت من قِبلك فشلاً فلا تفشل ، وإن فشلوا حصّن قريتك واضمم إليك شيعتك واندب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة والنجدة والبأس فإنى نادب إليك الناس على الصعب والذلول . فاصبر لعدوك ، وامض على بصيرتك وقاتلهم على نيتك وجاهدهم صابراً محتسباً ، وإن كانت فئتك أقل الفئتين فإن الله قد يُعز القليل ويخذل الكثير ، وقد قرأت كتاب الفاجر ابن الفاجر معاوية والفاجر ابن الكافر عمرو المتحابين فى عمل المعصية ، والمتوافقين والمرتشين فى الحكومة ، المنكرين فى الدنيا قد استمتعوا بخلاقهم

(١) جيش لجب أى ذو جلبة .

كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم فلا يَهُلْك إرعادهما وإبراقهما وأجبهما إن كنت تجبهما بما هو أهله فإنك تجد مقالاً ماشئت والسلام » .

رد محمد بن أبي بكر على معاوية وعمرو بن العاص :

كتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية بن أبي سفيان جواب كتابه فقال « أما بعد فقد أتاني كتابك تذكرني من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه ، وتأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني المُثلة كأنك شفيق . وأنا أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم فاجتاحكم في الوقعة ، وإن تؤتوا النصر ويكن لكم الأمر في الدنيا فكم لعمري من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مرد الأمور ، وهو أرحم الراحمين والله المستعان على ماتصفون والسلام » .

وكتب إلى عمرو بن العاص :

« أما بعد فقد فهمت ماذكرت في كتابك يابن العاص : زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر وأشهد إنك من المبطلين وتزعم أنك لي نصيح وأقسم إنك عندي ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمري وندموا على اتباعي فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء فحسبنا الله رب العالمين وتوكلنا على الله رب العرش العظيم والسلام » .

قدوم عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن أبى بكر

(١٤ صفر سنة ٣٨ هـ)

أقبل عمرو بن العاص حتى قصد مصر . فقام محمد بن أبى بكر فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« أما بعد معاشر المسلمين والمؤمنين . فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة وينعشون الضلالة ، ويشبون نار الفتنة ويتسلطون بالجبرية قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بالجنود . عباد الله فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم فى الله . انتدبوا إلى هؤلاء رحمكم الله مع كنانة بن بشر » .

فانتدب معه نحوٌ من ألفى رجل وخرج محمد فى ألفى رجل ، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد وكان عمرو بن العاص قدم معه ٦٠٠٠ من أهل الشام . فأقبل عمرو نحو كنانة ، فلما دنا من كنانة سرَّح الكتائب كتيبة بعد كتيبة فجعل كنانة لا تأتيه كتيبة من كتائب أهل الشام إلا شد عليها بمن معه فيضربها حتى يقربها بعمرو بن العاص ففعل ذلك مراراً فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن حديج فأتاه فى مثل الدَّهم (العدد الكثير) فأحاط بكنانة وأصحابه واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب . فلما رأى ذلك كنانة بن بشر نزل عن فرسه ونزل أصحابه وكنانة يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ، ومن يرد ثواب

الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » .
فضاربهم بسيفه حتى استشهد رحمه الله تعالى .

وأقبل عمرو بن العاص نحو محمد بن أبى بكر وقد تفرق عنه أصحابه لما بلغهم قتل كنانه حتى بقى وما معه أحد من أصحابه . فلما رأى ذلك محمد خرج يمشى فى الطريق حتى انتهى إلى خربة فى ناحية الطريق فأوى إليها وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط وخرج معاوية بن حديج فى طلب محمد حتى انتهى إلى عُلوج فى قارعة الطريق فسألهم هل مر بكم أحد تنكرونه فقال أحدهم : لا والله إلا أنى دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس . فقال ابن حديج : « هو . هو ورب الكعبة » . فانطلقوا حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً .

وجاء فى كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس : إن عجوزاً قالت لهم أتريدون الأمير محمد بن أبى بكر ؟ فقالوا لها : نعم . فقالت أتعطونى الأمان لأخى وأنا أدلكم عليه ؟ فقالوا لها : نعم قد أعطيناك الأمان لأخيك . وكان أخوها يبيع الفجل فى مدينة الفسطاط فدلتهم على مكانه اﻫ .

ولما وجدوه فى الخربة أقبلوا به نحو فسطاط مصر فوثب أخوه عبدالرحمن بن أبى بكر إلى عمرو بن العاص وكان فى جنده فقال : أتقتل أخى صبراً ؟ ابعث إلى معاوية بن حديج فانهه . فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبى بكر . فقال معاوية : أكذاك قتلتم كنانة بن بشر وأخلى أنا

عن محمد بن أبي بكر هيهات. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟

فقال لهم محمد : اسقوني من الماء .

قال له معاوية بن حديج : لاسقاه الله إن سقاك قطرة أبداً . إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً مُحْرِماً فتلقاه الله بالرحيق المختوم . والله لأقتلنك يا ابن أبي بكر فيسقيك الله الحميم والغساق . قال له محمد يا ابن اليهودية النساجة . ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت . إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ يسقي أولياءه ، ويظمئ أعداءه أنت وضُرباؤك ، ومن تولاهم . أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا . قال معاوية أتدري ما أصنع بك أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار . فقال له محمد إن فعلتم بي ذلك فطالما فُعل ذلك بأولياء الله وإني لأرجو هذه النار التي تحرقني بها أن يجعلها الله عليّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليله إبراهيم ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه . إن الله يُحرقك ومن ذكرته وإمامك (يعني معاوية) وهذا وأشار إلى عمرو بن العاص بنار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله سعيراً .

قال له معاوية . « اني إنما أقتلك بعثمان » .

فقال له محمد : « ما أنت وعثمان عمل بالجور ، ونبذ حكم القرآن ، وقد قال الله تعالى ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ـ فنقمنا ذلك عليه فقتلناه وحسّنت أنت له ذلك ونظراؤك فقد برأنا الله إن شاء الله من ذنبه ، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه وجاعلك على مثاله »

فغضب معاوية فقدمه فقتله ثم ألقاه فى جيفة حمار، ثم أحرقه بالنار .

وقال ابن إياس : وضرب عنقه بالسيف ، ثم جره برجله وطاف به فى المدينة ، ثم أدخل جثته فى جوف حمار ميت وأحرقه حتى صار فحماً فكانت قتلته فى رابع عشر صفر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، وكانت مدة ولايته على مصر خمسة أشهر ، وكان له من العمر لما قتل ٢٨ سنة وكان مولده فى عام حجة الوداع ، وتوفى أبو بكر وله من العمر نحو سنتين ونصف .

قال الكندى : لما قتل الأمير محمد أرسل معاوية بن حديج قميصه الذى قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة الشريفة . فلما وصل إلى دار الامام عثمان بن عفان اجتمع عصبة عثمان ونساؤه وأظهروا الفرح والسرور فى ذلك اليوم . ثم إن نائلة زوجة عثمان لبست القميص ورقصت به بين الرجال . قيل إن أخت معاوية بن حديج لما وصل قميص الأمير محمد إلى المدينة أرسلت إلى عائشة بنت أبى بكر بخروف مشوى وقالت لها هكذا شوى أخوك محمد بمصر . فحلفت عائشة أنها لا تأكل شوياً قط حتى تلقى الله تعالى . فما أكلته من بعد ذلك أبداً .

جزعت عائشة جزعاً شديداً لما بلغها قتل أخيها ، وكانت تدعو على معاوية وعمرو . ثم قبضت عيال محمد إليها فكان القاسم بن محمد بن أبى بكر فى عيالها .

وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية عند قتله محمد بن أبى بكر وكنانة ابن بشر :

«أما بعد فإنا لقينا محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى جموع جمة من أهل مصر فدعوناهم إلى الهدى والسنة، وحكم كتاب الله فرفضوا الحق، وتوركوا فى الضلال فجاهدناهم، واستنصرنا الله عليهم. فضرب الله وجوههم وأدبارهم ومنحونا أكتافهم. فقتل الله محمد بن أبى بكر، وكنانة بن بشر وأماثل القوم والحمد لله رب العالمين والسلام عليك» .

وحزن علىّ بن أبى طالب حين بلغه خبر مقتل محمد بن أبى بكر حزناً شديداً حتى رؤى ذلك فى وجهه، وتبين فيه. وقام فى الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال :

«ألا إن مصر قد افتتحها الفجرة أولو الجور والظلم الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجاً. ألا وإن محمد بن أبى بكر قد استشهد رحمه الله فعند الله نحتسبه. أما والله إن كان ماعلمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر، ويحب هُدى المؤمن. إنى والله ما ألوم نفسى على التقصير. وإنى لمقاساة الحرب نَجِدٌ خبير. وإنى لأُقدم على الأمر وأعرف وجه الحزم، وأقوم فيكم بالرأى المصيب فأستصرخكم معلناً : وأناديكم نداء المستغيث معربا فلا تسمعون لى قولا، ولا تطيعون لى أمراً حتى تصير بى الأمور إلى عواقب المساءة فأنتم القوم لا يُدرك بكم الثأر ولا ينقض بكم الأوتار دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة، فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق [1] وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نية فى جهاد العدو

---

(١) العريض الشدق .

ولا اكتساب الأجر . ثم خرج إلىّ منكم جُند متذانب[١] كَثَبَرَة[٢] يساقون إلى الموت وهم ينظرون فأف لكم ! ! »

يتبين من هذه الخطبة حزن علىّ رضى الله عنه على استشهاد محمد بن أبى بكر وأنه لم يقصر فى الحث على إرسال نجدة إليه . لكنه دعا الجيش فأبطأوا وتثاقلوا كأنهم يساقون إلى الموت . فما حيلته فيمن لايجيب دعوته ولا يطيعه ولا يغيثه إذا استغاث . وقال عن أعدائه الذين فتحوا مِصر إنهم فجرة ظالمون يصدون عن سبيل الله . هذا هو حكمه عليهم ، وكتب يبث شكواه إلى ابن عباس رضى الله عنه ويخبره بفتح مصر وقتل محمد بن أبى بكر :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن عباس . سلام عليك . فإنى أحمد الله إليك الذى لاإله إلا هو . أما بعد فإن مصر قد افتتحت ومحمد بن أبى بكر قد استشهد فعند الله نحتسبه وندخره وقد كنتُ قمتُ فى الناس فى بدئه وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ودعوتهم سراً وجهراً وعوداً وبدءا . فنهم من أتى كارها ، ومنهم من اعتل كاذباً ، ومنهم القاعد حالا . أسأل الله أن يجعل لى منهم فرجاً ومخرجاً ، وأن يريحنى منهم عاجلا ، والله لولا طمعى عند لقاء عدوى فى الشهادة لأحببت أن لاأبقى مع هؤلاء يوماً واحداً . عزم الله لنا ولك على الرشد وعلى تقواه وهداه . إنه على كل شئ قدير والسلام » .

---

(١) يتبع بعضه بعضاً .

(٢) كهالكين .

فكتب إليه ابن عباس :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس . سلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه افتتاح مصر ، وهلاك محمد بن أبى بكر فالله المستعان على كل حال ، ورحم الله محمدبن أبى بكر وأجرك ياأمير المؤمنين، وقد سألتُ الله أن يجعل لك من رعِيتك التى ابتليت بها فرجاً ومخرجاً ، وأن يعزك بالملائكة عاجلاً بالنصرة . فإن الله صانع لك ذلك ، ومعزك ومجيب دعوتك ، وكابت عدوك . أخبرك ياأمير المؤمنين أن الناس ربما تثاقلوا ، ثم ينشطون . فارفق بهم ياأمير المؤمنين وداجنهم ومَنِّهم واستعن بالله عليهم . كفاك الله المهم والسلام » .

أسف علىّ رضى الله عنه على ضياع مصر، ونسب « مستر موير » السبب فى ضياعها إلى عزل قيس عنها . وقال إنه كان مع ذلك يمكن استردادها لولا تقاعس أهل الكوفة .

إرسال معاوية عبد الله بن الحضرمىّ إلى البصرة

سنة ٣٨ هجرية

بعد أن دخل عمرو بن العاص أرض مصر سيّر معاوية ، عبد الله ابن الحضرمى إلى البصرة وقال له : إن جل أهلها يرون رأينا فى عثمان ، وقد قتلوا فى الطلب بثأرهم ودم إمامهم فانزل فى مضر وتودد الأزد فإنهم كلهم معك ، ودع ربيعة فلن ينحرف عنك أحد سواهم فاحذرهم .

سار ابن الحضرمى حتى قدم البصرة ، وكان ابن عباس قد خرج إلى علىّ بالكوفة . واستخلف زياد بن أبيه على البصرة .

فلما وصل ابن الحضرمىّ إلى البصرة نزل فى بنى تميم . فأتاه العثمانية مسلمين عليه وحضره غيرهم . فخطبهم وقال : « إن عثمان إمامكم . إمام الهدى قُتل مظلوماً . قتله علىّ فطلبتم بدمه فجزاكم الله خيراً » .

فقام الضحاك بن قيس الهلالى ، وكان على شرطة ابن عباس فقال :

« قبح الله ماجئتنا به وماتدعونا إليه . أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير . أتيانا ، وقد بايعنا علياً ، واستقامت أمورنا فحملانا على الفرقة حتى ضرب بعضنا بعضاً ونحن الآن مجتمعون على بيعته . وقد أقال العثرة وعفا عن المسىء . أفتأمرنا أن ننتضى أسيافنا ، ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً . والله ليوم من أيام علىّ خير من معاوية وآل معاوية » .

فقام عبد الله بن خازم السلمى فقال للضحاك : اسكت فلست بأهل أن تتكلم . ثم أقبل على ابن الحضرمى فقال . نحن أنصارك ويدك ، والقول قولك فاقرأ كتابك .

فأخرج الحضرمى كتاب معاوية إليهم يذكرهم فيه آثار عثمان فيهم وحبه العافية وسده ثغورهم ويذكر قتله ويدعوهم إلى الطلب بدمه ويضمن أنه يعمل فيهم بالسنة ويعطيهم عطاءين فى السنة .

فلما فرغ من قراءة كتاب معاويه قام الأحنف فقال : « لا ناقتى فيها ولا جملى » واعتزل القوم .

وقد قاتل جيش علىّ الحضرمى ، ومن معه فانهزم وتحصن بقصر سنبيل وكان علىّ أرسل جارية بن قدامة بجيش فاحرق جارية القصر بمن فيـه فمات ابن الحضرمى وسبعون رجلاً معه .

خروج الخرّيت بن راشد وبنى ناجية على علىّ رضى الله عنه

سنة ٣٨ هجرية (٦٥٨ م)

أظهر الخرّيت بن راشـــد الناجىّ بجنوب فارس الخلاف على علىّ أمير المؤمنين وكان قد حارب مع علىّ فى موقعة الجمل وصفين فحضر عند علىّ فى ثلاثين راكباً فقال له :

«ياعلىّ . والله لاأطيع أمرك . ولا أصلى خلفك . وأنى غداً مفارق لك»

فقال له علىّ : «ثكلتك أمك إذ تعصى ربك ، وتنكث عهدك ولا تضر إلا نفسك . خبرنى لم تفعل ذلك ؟ » .

فقال : « لأنك حكمت وضعفت عن الحق وركنت إلى القوم الذين ظلموا . فأنا عليك زار وعليهم ناقم ، ولكم جميعاً مباين » .

فقال له علىّ : « هلم أدارسك الكتاب وأناظرك فى السنن وأفاتحك أموراً أنا أعلم بها منك . فلعلك تعرف ماأنت له الآن منكر » .

قال : « فإنى عائد إليك » .

فقال علىّ : « لايستهوينك الشيطان ولا يستخفنك الجهال والله لئن استرشدتنى وقبلت منى لأهدينك سبيل الرشاد » .

وخرج زياد بن خصفة للحاق بهم بعد أن استأذن أمير المؤمنين لأنه خشى أن يفسدوا الناس عليه. فجمع زياد أصحابه من بكر وائل فسار معه ١٣٠ رجلا حتى أتى دير أبي موسى فنزله يوما ينتظر أمر علىّ وأتى علياً كتاب من قرظة بن كعب الأنصارى يخبره أنهم توجهوا نحو نفر وأنهم قتلوا رجلا من الدهاقين (رئيس قرية) كان أسلم . فأرسل علىّ إلى زياد يأمره باتباعهم ويخبره خبرهم وأنهم قتلوا رجلا مسلماً ويأمره بردهم إليه فإن أبوا يناجزهم . وسيَّر الكتاب مع عبد الله بن وال ، فاستأذنه عبد الله فى المسير مع زياد فأذن له ، وسار بكتاب علىّ إلى زياد فأدركوهم وقد تعبوا وكلوا من الطريق فاقتتلوا قتالا شديداً ، وكان عدد الفريقين متساوياً فكتب زياد إلى علىّ رضى الله عنه يخبره أنه مُقيم يداوى الجرحى وينتظر أمره فندب علىّ مع معقل بن قيس ألفين من أهل الكوفة منهم يزيدبن المعقل الأسدى ، وكتب علىّ إلى ابن عباس يأمره أن يبعث من أهل البصرة . جلا شجاعاً معروفا بالصلاح فى ألفى رجل إلى معقل وهو أمير أصحابه حتى يأتى معقلا فإذا لقيه كان معقل الأمير . وكتب إلى زياد بن خصفة يشكره ، ويأمره بالعود ، واجتمع على الخريج كفار من أهل الأهواز كثير أرادوا كسر الخراج ، ولصوص وطائفة أخرى من العرب ترى رأيه وطمع أهل الخراج فى كسره فكسروه (امتنعوا من أدائه) وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس وكان عاملاً لعلىّ عليها . فقال ابن عباس لعلىّ: أنا ألفيك فارس بزياد يعنى ابن أبيه . فأمره بإرساله إليها

وتعجيل تسييره . فأرسل زياد إليها فى جمع كثير فوطئ بلادِ فارس فأدوا الخراج واستقاموا .

وسار معقل بن قيس ووصاه علىّ فقال له :

« اتق الله مااستطعت ولا تبغ على أهل القبلة ولا تظلم أهل الذمة ولا تتكبر فإن الله لايحب المتكبرين » .

فقدم معقل الأهواز ينتظر مدد البصرة فأبطأ عليه فساروا جميعاً فلحقوهم قريب جبل من جبال رامهرمز . فصف معقل أصحابه فجعل على ممنته يزيد بن المعقل وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبي من أهل البصرة .

وصف الخريب أصحابه فجعل من معه من العرب ميمنته ومن معه من أهل البلد والعلوج ميسرة ومعهم (الأكراد) وحض كل واحد منهما أصحابه وحرك معقل رأسه مرتين ثم حمل فى الثالثة فصبروا له ساعة ثم انهرموا فقتل أصحاب معقل منهم ٧٠ رجلا من بنى ناجية ومن معهم من العرب وقتلوا نحواً من ٣٠٠ من العلوج والأكراد وانهزم الخريت بن راشد فلحق بأسياف البحر وبها جماعة كثيرة من قومه . فما زال يسير فيهم ويدعوهم إلى خلاف علىّ ويخبرهم أن الهدى فى حربه حتى اتبعه منهم ناس كثير ، وأقام معقل بأرض الأهواز وكتب إلى علىّ بالفتح فقرأ علىّ الكتاب على أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم نرى أن تأمر معقلاً أن يتبع آثار الفاسق حتى يقتله أو ينفيه فإنا لانأمن أن يفسد عليك الناس . فكتب إلى معقل يثنى عليه وعلى من معه ويأمره باتباعه وقتله أو نفيه . فسأل معقل عنه فأخبر بمكانه بالأسياف

وأنه قد رد قومه عن طاعة عليّ ، وأفسد من عنده من عبد القيس وسائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صفين ، وذلك العام . فسار إليهم معقل فأخذ على فارس ، وانتهى إلى أسياف البحر : فلما سمع الخريت بمسيره ، قال لمن معه من الخوارج . أنا على رأيكم ، وإن علياً لم ينبغ له أن يحكم . وقال للآخرين من أصحابه إن علياً حكم ، ورضى نخلعه حكمه الذى ارتضاه . وقال سراً للعثمانية : أنا والله على رأيكم . قد والله قتل عثمان مظلوما . فأرضى كل صنف منهم . وقال لمن منع الصدقة : شدوا أيديكم على صدقاتكم ، وصلوا بها أرحامكم ، وكان فيها نصارى كثير قد أسلموا . فلما اختلف الناس ، قالوا والله لديننا الذى خرجنا منه خير من دين هؤلاء ، لا ينهاهم دينهم عن سفك الدماء . فقال لهم الخريت : ويحكم لا ينجيكم من القتل إلا قتل هؤلاء القوم ، والصبر فإن حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يُقتل ولا يقبلون منه توبة ولا عذراً نخدعهم جميعاً ، وأتاه من كان من بنى ناجية وغيرهم خلق كثير . فلما انتهى معقل إليه ، نصب راية أمان ، وقال من أتاها من الناس فهو آمن إلا الخرّيت ، وأصحابه الذين حاربونا أول مرة . فتفرق عن الخريت جل من كان معه من غير قومه . وعبى معقل أصحابه وزحف نحو الخريت ، ومعه قومه مسلمهم ونصرانيهم ومانع الزكاة منهم . فقال الخريت لمن معه قاتلوا عن حريمكم وأولادكم فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسبنكم . فقال له رجل من قومه هذا والله ماجره علينا يدك ولسانك . فقال سبق السيف العذل . وسار معقل فى الناس يحرضهم ويقول :

« أيها الناس ماتريدون أفضل مما سيق لكم من الأجر العظيم . إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة وارتدوا عن الإسلام ونكثوا البيعة ظلماً. فأشهد لمن قتل منكم بالجنة ومن بقى منكم فإن الله مقر عينه بالفتح » .

ثم حمل معقل وجميع من معه فقاتلوا قتالاً شديداً وصبروا له ثم إن النعمان ابن صهبان الراسبى بصر بالخريت فحمل عليه فطعنه فصرع عن دابته ثم اختلفا ضربتين فقتله النعمان وقتل معه فى المعركة ١٧٠ رجلا وذهب الباقون يميناً وشمالاً وسبى معقل من أدرك من حريمهم وذرياتهم ، وأخذ رجالا كثيراً . فأما من كان مسلماً فخلاه وأخذ بيعته وترك له عياله . وأما من كان ارتد فعرض عليهم الاسلام فرجعوا فخلى سبيلهم وسبيل عيالهم إلا شيخاً كبيراً نصرانيا منهم يقال له (الرُّمَاحى) لم يسلم فقتلة وجمع من منع الصدقة ، وأخذ منهم صدقة عامين . وأما النصارى وعيالهم فاحتملهم مقبلاً بهم ، وأقبل المسلمون معهم يشيعونهم . فلما ودعوهم بكى الرجال والنساء والصبيان ، وصاح الرجال : يا أبا الفضل ياحامى الرجال ومأوى المعضب وفكاك العناة امنن علينا واشترنا وأعتقنا . فقال (مصقلة) أقسم بالله لأتصدقن عليكم ، إن الله يجزى المتصدقين فبلغ قوله معقلا فقال . والله لوأعلم أنه قالها توجعاً عليهم وازراء علينا لضربت عنقة ، ولو كان فى ذلك تفانى تميم وبكر . ثم إن (مصقلة) اشتراهم من معقل بـ ٥٠٠٫٠٠٠ فقال له معقل ، عجل المال إلى أمير المؤمنين ، فقال أنا أبعث الآن ببعضه ، ثم كذلك حتى لايبقى منه شىء .

وأقبل معقل إلى عليّ فأخبره بما كان منه فاستحسنه، وبلغ علياً أن (مصقلة) أعتق الأسرى ولم يسألهم أن يعينوه بشيء فقال ماأظن أن مصقلة إلا قد تحمل جمالة سترونه عن قريب منها مُلبداً وكتب إليه يطلب منه المال أو يحضر عنده. لحضر عنده وحمل من المال ٢٠٠,٠٠٠. قال ذهل ابن الحارث فاستدعانى ليلة فطعمنا. ثم قال إن أمير المؤمنين يسألنى هـــذا المال ولا أقدر عليه. فقلت: والله لو شئت مامضت جمعة حتى تحمله. فقال والله ما كنت لأحملها قومى. أماو الله لوكان ابن هند (معاوية) ماطالبنى بها ولوكان ابن عفان لوهبها لى. ألم تره أطعم الأشعث بن قيس كل سنة من خراج آذربيجان مائة ألف ؟ قال فقلت: إن هذا لايرى ذلك الرأى ولايترك منها شيئا. فهرب (مصقلة) من ليلتة فلحق بمعاوية. وبلغ علياً ذلك فقال: ماله ترحه الله فعل فعل السيد وفر فرار العبد. وخان خيانة الفاجر؟ أما أنه لو أقام فعجز مازدنا على حبسه. فإن وجدنا له شيئا أخذناه وإلا تركناه. ثم سار عليّ إلى داره فهدمها وأجاز عتق السبي وقال أعتقهم مُبتاعُهم وصارت أثمانهم ديناً على معتقهم. وكان أخوه. نُعَيم بن هُبَيْرة، شيعة لعليّ. فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تغلب اسمه (حلوان) يقول له: إن معاوية قد وعدك الإمارة والكرامة. فأقبل ساعة يلقاك رسولى والسلام فأخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرحه إلى عليّ فقطع يده فمات. وكتب نُعَيم إلى أخيه مَصْقَلَة:

لاترمين هداك الله معترضاً ... بالظن منك فما بالى وحُلوانا
ذاك الحريص على ما نال من طمع ... وهو البعيد فلا يحزنك إذ خانا
وماذا أردت إلى إرساله سفهاً ... ترجو سقاط امرئ لم يُلف وسنانا
عرضته لعليّ إنه أسدٌ ... يمشى العِرَضنة من آساد خفّانا
قد كنت فى مَنْظَرعن ذاو مُسْتَمَع ... تحمى العراق وتُدعى خير شيبانا
حتى تقحّمت أمراً كنتَ تكرهه ... للراكبين له سراً وإعلانا
لو كنتَ أديت مااللقوم مصطبراً ... للحق أحييت أحيانا وموتانا
لكن لحقتَ بأهل الشام ملتمساً ... فضلَ ابن هند وذاك الرأى أشجانا
فاليوم تقرُع سِن الغُرم من ندم ... ماذا تقول وقد كان الذى كانا
أصبحتَ تُبغضك الأحياء قاطبة ... لم يرفع الله بالبغضاء إنسانا

فلما جاءه الكتاب علم أن رسوله قد مات ولم يلبث التغلبيون إلا قليلا حتى بلغهم موت صاحبهم (حُلوان) فأتوا مصقلة فقالوا إنك بعثت صاحبنا فأهلكته . فإما أن تحييه وإما أن تَديه . فقال : أما أن أحييه فلا أستطيع ولكنى سأديه فوداه .

هزيمة الخوارج بعد النهروان

من شهر ربيع الآخر الى رمضان سنة ٣٨ هـ

بعد أن قُتل أهل النهروان ، أخذ الخوارج يناوشون علياً فكان كلما خرجت إليه جماعة منهم حاربتها جيوشه وهزمتها وهذا بيان حملاتهم التى كان نصيبها الاندحار :

(١) خرج أشرس بن عوف فى ٢٠٠ وسار إلى الأنبار. فوجه إليه علىّ الأبرش بن حسان فى ٣٠٠ فقتل أشرس (فى ربيع الآخر سنة ٣٨ هـ) .

(٢) خرج هلال بن علفة من تيم الرباب ومعه أخوه مجالد فأتى ماسبندان فوجه إليه علىّ معقل بن قيس فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر من ٢٠٠ وكان قتلهم (فى جمادى الأولى سنة ٣٨ هـ) .

(٣) خرج الأشهب بن بشر وقيل الأشعث وهو من بجيلة فى ٢٨٠ فأتى المعركة التى أصيب فيها هلال بن علفة وأصحابه فصلى عليهم ودفن من قدر عليه . فوجه إليهم علىّ جارية بن قدامة فقتل الأشهب وأصحابه (فى جمادى الآخرة سنة ٣٨ هـ) .

(٤) خرج سعيد بن قفل التيمى من تيم الله بن ثعلبة فى رجب بالبندنيجين ومعه ٢٠٠ رجل فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم (فى رجب سنة ٣٨)

(٥) خرج أبو مريم السعدى التيمى فأتى شهر زور وأكثر من معه من الموالى واجتمع معه ٢٠٠ رجل ، وعاد حتى نزل على خمسة فراسخ من

الـكوفة . فأرسل إليه علىّ يدعوه إلى بيعته ودخول الـكوفة فأبى فأرسل إليه شريح بن هانئ فى ٧٠٠ وخرج إليه علىّ بنفسه ودعاهم إلى الطاعة فأبوا فقتلهم جيش علىّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلا وذلك (فى شهر رمضان سنة ٣٨ هـ) .

إرسال معاوية جيوشه لمحاربة علىّ

سنة ٣٩ هـ

(١) أرسل معاوية بن أبى سفيان ، النعمان بن بشير فى (٢٠٠٠) رجل إلى عين تمر[1] وبها مالك بن كعب مسلحة[2] لعلىّ فى (١٠٠٠) وكان مالك قد أذن لأصحابه فأتوا الـكوفة ولم يبق معه إلا (١٠٠) رجل . فلما سمع بالنعمان كتب إلى أمير المؤمنين يخبره بأمر النعمان ومن معه ويستمده . فخطب علىّ فى الناس وأمرهم بالخروج فتثاقلوا .

وواقع مالك بن كعب النعمان وأمر أصحابه أن يجعلوا جدار القرية فى ظهورهم لقلة عددهم وكتب إلى مِخْنَف بن سُلَيم يسأله أن يمده وهو قريب منه فقاتلهم مالك بمن كان عنده قتالا شديداً . ووجه إليه مخنف ابنه عبد الرحمن فى (٥٠) رجلا فانتهوا إلى مالك وأصحابه جفون سيوفهم واستقتلوا . فلما

---

(١) بلدة قريبة من الأنبار غربى الـكوفة . افتتحها المسلمون فى أيام أبى بكر على يد خالد ابن الوليد سنة ١٢ هـ وكان فتحها عنوة .

(٢) المسلحة موضع السلاح كالثغر والمرقب ج مسالح وهى مايكون فيها أقوام يرقبون العدوّ لئلا يطرق الجند على غفلة فاذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له وهى بالانجليزية :
Arsenal or Garrison .

رآهم أهل الشام ، وذلك عند المساء ، ظنوا أن لهم مدداً وانهزموا وتبعهم مالك فقتل منهم ثلاثة نفر ومضوا على وجوههم .

(٢) وأرسل معاوية ، سفيان بن عوف فى (٦٠٠٠) رجل . وأمره أن يأتى هيت [١] فيقطعها ، وأن يغير عليها ثم يمضى حتى يأتى الانبار والمدائن فيوقع بأهلها .

فسار سفيان كما أمره معاوية حتى وصل هيت فلم يجد بها أحداً . ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلىّ تكون (٥٠٠) رجل ، وقد تفرقوا فلم يبق منهم إلا مائة رجل فقاتلهم وصبر لهم أصحاب علىّ مع قلتهم . ثم حملت عليهم الخيل والرجالة فقتلوا صاحب المسلحة ، وهو أشرس بن حسان البكرى فى ثلاثين رجلا واحتملوا ما كان فى الانبار من الأموال ، وأموال أهلها ورجعوا إلى معاوية . وبلغ الخبر علياً فخرج حتى أتى النخيلة فأرسل فى طلبهم فلم يدركوا .

(٣) كذلك وجه معاوية ، عبد الله بن مَسْعَدَة الفَزارى فى (١٧٠٠) رجل إلى تيماء [٢] وأمره أن يُصدّق من مربه من أهل البوادى ، وأن يقتل من امتنع من عطائه صدقة ماله . ثم يأتى مكة والمدينة والحجاز يفعل ذلك ، واجتمع إليه خلق كثير من قومه .

فلما بلغ علياً ذلك وجه المسيب بن نجبة الفَزارى . فسار حتى لحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس قتالاً شديداً . وحمل

---

(١) بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار .

(٢) بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق .

المسيب على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات فدخل ابن مسعدة ، ومن معه الحصن وهرب الباقون نحو الشام وانتهب الأعراب إبل الصدقة التى كانت مع ابن مسعدة . وحصره ، ومن كان معه المسيب ثلاثة أيام . ثم ألقى الحطب على الباب وألقى النيران فيه حتى احترق . فلما أحسوا بالهلاك أشرفوا على المسيب فقالوا : « يامسيب قومك » . . فرق لهم وكره هلاكهم فأمر بالنار فأطفئت . وقال لأصحابه قد جاءتنى عيون (جواسيس) فأخبرونى أن جنداً قد أقبل إليكم من الشام فانضموا فى مكان واحد : فخرج ابن مسعدة فى أصحابه ليلا حتى لحقوا بالشام ، فقال له عبد الرحمن بن شبيب سر بنا فى طلبهم فأبى ذلك عليه ، فقال له غششت أمير المؤمنين وداهنت فى أمرهم .

إلا أن هذه الحملة التى أرسلها معاوية كان نصيبها الفشل والخذلان وقد انتصر عليهم قائد علىّ (المسيب) .

(٤) وأرسل معاوية ، الضحاك بن قيس وأمره أن يمر بأسفل واقصة (بطريق مكة) وأن يغير على كل من مرَّ به ممن هو فى طاعة علىّ من الأعراب ووجه معه (٣٠٠٠) رجل .

فسار الضحاك وأخذ أموال الناس وقتل من لقى من الأعراب ومرَّ بالثعلبية (بطريق مكة من الكوفة) فأغار على مسالح علىّ وأخذ أمتعتهم ومضى حتى انتهى إلى القُطقطانة (موضع قرب الكوفة) فأتى عمرو بن عميس بن مسعود وكان فى خيل لعلىّ وأمامه أهله وهو يريد الحج . فأغار على من كان معه وحبسه عن المسير .

فلما بلغ علياً ذلك سرّح حُجر بن عديّ الكندى فى (٤٠٠٠) فلحق الضحاك بتدمر[1] فقتل منهم تسعة عشر رجلا وقتل من أصحابه رجلان وحال بينهم الله فهرب الضحاك وأصحابه حُجر ومن معه .

وهذه الحملة أيضا لم تفز بطائل بل خسرت وهرب قائدها الضحاك .

(٥) وسار معاويه بنفسه إلى دجلة حتى شارفها ثم رجع ولم نعلم عدد من كان معه ولا اسم أحد من قواده ولا سبب عودته .

الحج بالناس :

حج بالناس سنة ٣٦ هـ عبد الله بن العباس بأمر علىّ بن أبى طالب وفى سنة ٣٧ هـ حج بالناس عبيد الله بن عباس ، وفى سنة ٣٨ هـ حج بهم قُثم ابن العباس من قِبل علىّ رضى الله عنه وكان قثم يومئذ عامل علىّ على مكة وكان على اليمن عبيد الله بن العباس وعلى البصرة عبد الله بن العباس وفى سنة ٣٩ هـ دعا معاوية (يزيد بن شجرة الرهاوى) وهو من أصحابه . فقال له : إنى أريد أن أوجهك إلى مكة لتقيم للناس الحج وتأخذ لى البيعة بمكة وتنفى فيها عامل علىّ . فأجابه إلى ذلك ، وسار إلى مكة فى (٣٠٠٠) فارس ، وبها قثم ابن العباس عامل علىّ . فلما سمع به قثم ، خطب أهل مكة ، وأعلمهم بمسير الشاميين ودعاهم إلى حربهم فلم يجيبوه بشىء وأجابه شيبة بن عثمان العبدرى بالسمع والطاعة فعزم قثم على مفارقة مكة ، واللحاق ببعض شعابها ومكاتبة أمير المؤمنين بالخبر فإن أمده بالجيوش قاتل الشاميين . فنهاه أبو سعيد الخدرى

---

(١) مدينة فى برية الشام قريبة من حلب .

عن مفارقة مكة . وقال له . أقم فإن رأيت منهم القتال وبك قوة فاعمل برأيك وإلا فالمسير عنها أمامك .

وقدم الشاميون ولم يعرضوا لقتال أحد وأرسل قثم إلى أمير المؤمنين يخبره . فسيَّر جيشاً فيهم الريان بن ضمره بن هوذة بن على الحنفى وأبو الطفيل أول ذى الحجة .

وكان قدوم ابن شجرة قبل التروية بيومين[1] فنادى فى الناس : « أنتم آمنون إلا من قاتلنا ونازعنا » واستدعى أبا سعيد الخدرى وقال له : إنى أريد الالحاد فى الحَرَم[2] ولوشئت لفعلت لما فيه أميركم من ضعف فقل له يعتزل الصلاة بالناس وأعتزلها أنا ويختار الناس رجلا يصلى بهم . فقال أبو سعيد لقثم ذلك . فاعتزل الصلاة واختار الناس شيبة بن عثمان[3] فصلى بهم وحج بهم . فلما قضى الناس حجهم رجع يزيد إلى الشام . وأقبل خيل علىّ فأخبروا بعود أهل الشام فتبعوهم وعليهم معقل بن قيس فأدركوهم ، وقد رحلوا عن وادى القرى فظفروا بنفر منهـــم فأخذوهم أسارى وأخذوا مامعهم إلى أمير المؤمنين ففادى بهم أسارى كانت له عند معاوية .

---

(١) يوم التروية . ثامن ذى الحجة من ذلك لأن الماء كان قليلا بمنى فكانوا يرتوون من الماء لما بعد .

(٢) ألحد فى الحرم استحل حرمته وانتهكها .

(٣) شيبة بن عثمان بن أبى طلحة من أهل مكة وأبوه عثمان يعرف بالأوقص قتله علىّ يوم أحد كافراً وأسلم شيبة يوم الفتح وقيل يوم حنين وكان شيبة من خيار المسلمين ودفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة وإلى ابن عمه عثمان .

امتناع فارس عن أداء الخراج وتولية زياد بن أبيه

سنة ٣٩ هـ

ذكرنا أن معاوية بن أبى سفيان أرسل عبد الله بن الحضرمى إلى البصرة وكان ابن العباس قد خرج إلى علىّ بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه على البصرة وأن ابن الحضرمى هزم ولجأ إلى قصر سنبيل فأحرق جارية القصر بمن فيه .

فلما قتل ابن الحضرمى ، طمع أهل فارس وكَرْمان فى كسر الخراج وأخرجوا عمال علىّ رضى الله عنه .

فاستشار علىّ الناس فى رجل يوليه فارس حين امتنعوا من أداء الخراج فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك ياأمير المؤمنين على رجل صليب الرأى . عالم بالسياسة . كاف لما ولى ؟ .

قال : « من هو ؟ » .

قال : « زياد » قال : « هو لها » فولاه فارس و كرمان ووجهه فى ٤٠٠٠ فدوّخ تلك البلاد حتى استقاموا وأدوا الخراج .

وعن أيوب بن موسى قال : حدثنى شيخ من أهل اصطخر قال سمعت أبى يقول أدركت زياداً وهو أمير على فارس وهى تضرم ناراً فلم يزل بالمداراة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة . لم يقف موقفاً للحرب .

وكان أهل فارس يقولون ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى .

ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه وخوّف قوماً وتوعدهم وضرب بعضهم ودل بعضهم على عورة بعض وهربت طائفة وأقامت طائفة فقتل بعضهم بعضاً وصفت له فارس ، فلم يلق فيها جمعاً ، ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس . فسار فى كورها فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد وأتى اصطخر فنزلها وحصَّن قلعة بها ما بين بيضاء اصطخر واصطخر فكانت تسمى « قلعة زياد » فحمل إليها الأموال ثم تحصَّن فيها بعد ذلك منصور اليشكرى .

وقد جعل زياد مركز حكومته مدينة اصطخر (Persepolis) واشتهر بحسن ادارته .

غارات معاوية

سنة ٣٩ هـ

سيَّر معاوية فى هـذه السنة عدة غارات (١٢ غارة تقريبا) فسيَّر عبد الرحمن بن قباث بن أشيم إلى بلاد الجزيرة وفيها شبيب بن عامر جد الكرمانى الذى كان بخراسان وكان شبيب بنصيبين فكتب إلى كميل بن زياد وهو بهيت يعامه خبرهم .

فسار كميل إليه نجدة له فى ٦٠٠ فارس فأدركوا عبد الرحمن ومعه معن

ابن يزيد السلمى فقاتلهما كميل وهزمهما فغلب على عسكرهما وأكثر القتل فى أهل الشام وأمر أن لا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح وقتل من أصحاب كميل رجلان . وكتب إلى على بالفتح فجزاه خيراً وأجابه جواباً حسنا ورضى عنه بعد أن كان ساخطا عليه .

وأقبل شبيب بن عامر من نصيبين فرأى كميلا قد أوقع بالقوم فهنأه بالظفر واتبع الشاميين فلم يلحقهم فعبر الفرات وبث خيله فأغارت على نواحى الرقة فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلا استاقها ولا خيلاً ولا سلاحاً إلا أخذه وعاد إلى نصيبين . وكتب إلى علىّ فكتب إليه علىّ ينهاه عن أخذ أموال الناس إلا الخيل والسلاح الذى يقاتلون به .

ولما قدم يزيد بن شجرة على معاوية وهو الذى وجهه معاوية إلى مكة ليقيم للناس الحج ، وجه الحارث بن نمر التنوخى إلى الجزيرة ليأتيه بمن كان فى طاعة علىّ . فأخذ من أهل دارا سبعة نفر من بنى تغلب قد فارقوا علياً إلى معاوية فسألوه فى إطلاق أصحابهم فاعتزلوه أيضا . وكتب معاوية إلى علىّ ليفاديه بمن أسر معقل بن قيس من أصحاب يزيد بن شجرة فسيرهم علىّ إلى معاوية وأطلق معاوية هؤلاء . . وبعث علىّ رجلا من خثعم يقال له عبدالرحمن إلى ناحية الموصل ليسكن الناس فلقيه أولئك التغلبيون الذين اعتزلوا معاوية وعليهم قريع بن الحارث التغلبى فتشاتموا . ثم اقتتلوا فقتلوه ، فأراد علىّ أن يوجه إليهم جيشاً . فكلمته ربيعه وقالوا هم معتزلون لعدوك داخلون فى طاعتك ، وإنما قتلوه خطأ فأمسك عنهم .

وبعث معاوية مسلم بن عقبة المرىّ إلى دومة الجندل ، وكان أهلها قد امتنعوا من بيعة علىّ ومعاوية جميعاً . فدعاهم إلى طاعة معاوية فامتنعوا وبلغ ذلك علياً فسير مالك بن كعب الهمدانى فى جمع إلى دومة الجندل إلى البيعة لعلىّ فقالوا لانبايع حتى يجتمع الناس على إمام . فانصرف وتركهم .

وفى هـذه السنة توجه الحارث بن مرة العبدى إلى بلاد السند غازياً متطوعاً بأمر أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنـه فغنم وأصاب غنائم ، وسبياً كثيراً وقسم فى يوم واحـد ١٠٠٠ رأس ، وبقى غازياً إلى أن قتل بأرض القيقان [1] هو ومن معه

توجيه معاوية بسر بن أبى أرطاة إلى الحجاز

سنة ٤٠ هـ

بسر بن أبى أرطاة . قال الواقدى ولد قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بسنتين شهد صفين مع معاوية وكان شديداً على علىّ وأصحابه . قال أبو عمر كان يحيى بن معين يقول لاتصح له صحبة . وكان يقول هو رجل سوء وذلك لما ركبه فى الإسلام من الأمور العظام منها مانقله أهل الأخبار والسير وأهل الحديث أيضاً من ذبحه عبد الرحمن وقثم بن عبيد الله بن العباس ابن عبد المطلب وهما صغيران بين يدى أمهما . وكان معاوية سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة علىّ ويأخذ البيعة له فسار إلى المدينة ففعل بها أفعالا

(١) القيقان من بلاد السند مما يلى خراسان وكان قتل الحارث بن مرة سنة ٤٢ هـ .

شنيعة وسار إلى اليمن ، وكان الأمير على اليمن عبيد الله بن العباس عاملا لعليّ بن أبى طالب رضى الله عنه فهرب عبيد الله فنزلها بسر بن أرطاة ففعل فيها هذا . ودخل المدينة فهرب منها كثير من أهلها منهم جابر بن عبد الله وأبو أيوب الأنصارى وغيرهما ، وقتل فيها كثيراً . وأغار على همدان باليمن ، وسبي نساءهم فكن أول مسلمات سبين فى الاسلام وهدم بالمدينة دوراً .

ثم سار بسر بعد المدينة إلى مكة وكان عدد جيشه ٣٠٠٠ فخاف أبو موسى أن يقتله فقال له بسر: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك . وكتب أبو موسى قبل ذلك إلى اليمن : إن خيلا مبعوثة من عند معاوية تقتل الناس . تقتل من أبى أن يقر بالحكومة . ثم مضى بسر إلى اليمن كما ذكر ، وكان عليها عبيد الله بن عباس عاملا لعليّ . فلما بلغه مسيره فر إلى الكوفة حتى أتى علياً واستخلف عبد الله بن عبد المدان الحارثى على اليمن فأتاه بسر فقتله ، وقتل جماعة كثيرة من شيعة عليّ باليمن . وبلغ علياً خبر بسر فوجه جارية ابن قدامة فى (٢٠٠٠) ووهب بن مسعود فى (٢٠٠٠) فسار جارية حتى أتى نجران فحرّق بها وأخذ ناساً من شيعة عثمان فقتلهم ، وهرب بسر وأصحابه منه واتبعهم حتى بلغ مكة فقال لهم جارية بايعونا فقالوا قد هلك أمير المؤمنين فلمن نبايع . قال لمن بايع له أصحاب عليّ فتثاقلوا ، ثم بايعوا . ثم سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلى بهم فهرب منه فقال جارية والله لو أخذت أبا سنور لضربت عنقه . ثم قال لأهل المدينة بايعوا الحسن بن عليّ فبايعوه وأقام يومه . ثم خرج منصرفا إلى الكوفة وعاد أبو هريرة يصلى بهم

وكانت أم ابنى عبيد الله أم الحكم جويرية بنت خويلد بن قارظ لما قتل ولديها بسر ولهت عليهما ولا تزال تنشدهما فى المواسم فتقول :

يامن أحس بابنى اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف

يامن أحس بابنىّ اللذين هما ... مخ العظام فمخى اليوم مزدهف

يامن أحس بابنىّ اللذين هما ... قلبى وسمعى فقلبى اليوم مختطف

من ذل والهة حيرى مدلهمة ... على صبيين ذلا إذ غدا السلف

نبئت بسرا وما صدقت مازعموا ... من إفكهم ومن القول الذى اقترفا

أحنى على ودجى ابنىّ مرهفة ... من الشفار كذاك الإثم يعترف

فلما سمع أمير المؤمنين بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا على بسر . فقال اللهم اسلبه دينه ،وعقله . فأصابه ذلك ، وفقد عقله فكان يهذى بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويجعل بين يديه زق منفوخ فلا يزال يضرب به ولم يزل كذلك حتى مات .

ولما استقر الأمر لمعاوية ، دخل عليه عبيد الله بن عباس وعنده بسر فقال لبسر وددت أن الأرض أنبتتنى عندك حين قتلت ولدىّ فقال هاك سيفى . فأهوى عبيد الله ليتناوله فأخذه معاوية وقال لبسر أخزاك الله شيخاً قد خرفت والله لو تمكن منه لبدأ بى . قال عبيد الله : أجل ثم ثنّيت به .

المهادنة بين علىّ ومعاوية

سنة ٤٠ هـ

جرت فى سنة ٤٠ هـ بين علىّ ومعاوية المهادنة بعد تبادل عدة مكاتبات على وضع الحرب بينهما ويكون لعلىّ العراق ولمعاوية الشام فلايدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو .

قال زياد بن عبد الله عن أبى إسحاق : لما لم يُعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية إلى علىّ . أما إذا شئت فلك العراق ولى الشام وتكف السيف عن هـذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين . ففعل ذلك وتراضيا على ذلك . فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها . وعلىّ بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده.

مقتل علىّ رضى الله عنه

١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ (٢٥ يناير سنة ٦٦١ م)

اجتمع ثلاثة رجال عبد الرحمن بن مُلجم ، والبُرك بن عبد الله ، وعمرو ابن بكر التميمى فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم . ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا : مانصنع بالبقاء بعدهم شيئا . فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا (١) .

(١) قال الاستاذ واشنطون ايرفنج انهم اجتمعوا بمسجد مكة وذكر أهل النهر .

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علىّ بن أبى طالب وكان من أهل مصر .

وقال البُرَك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .

فتعاقدوا وتواثقوا بالله لاينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه .

فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه . وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه الذى يطلب .

فأما ابن ملجم المرادى فكان عداده فى كندة . فخرج فلقى أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره . فإنه رأى ذات يوم أصحاباً من تيم الرباب ، وكان علىٌّ قتل منهم يوم النهر عشرة فذكروا قتلاهم ولقى من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها قَطام ابنة الشجنة وقد قتل أباها وأخاها يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال . فلما رآها التبست بعقله ، ونسى حاجته التى جاء لها . ثم خطبها . فقالت لا أتزوجك حتى تشفى لى . قال ومايشفيك ؟ قالت ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة وقتل علىٍّ بن أبى طالب قال هو مهر لك : فأما قتل علىّ فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى . قالت: بلى ، التمس غرته ؛ فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنأك العيش معى ، وإن قُتلتَ فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها .

قال: فوالله ماجاء بى إلى هذا المصر إلا قتل علىّ . فلك ماسألت . قالت: إنى أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك . فبعثت إلى رجل من قومها من تيم الرباب يقال له وَرْدان فكلمته فأجابها وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بَجَرة ، فقال : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة؟ قال : وماذاك ؟ قال : قتل علىّ بن أبى طالب . قال: ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إدًّا كيف تقدر على علىّ ؟ قال أكمن له فى المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة . شددنا عليه فقتلناه . فإن نجونا شفينا أنفسا وأدركنا ثأرنا ، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا ومافيها (فقد كان ابن ملجم يحسب أنه بقتل علىّ يتقرّب إلى الله تعالى !!) .

قال ويحك !! لو كان غير علىّ لكان أهون علىّ . قد عرفت بلاءه فى الاسلام وسابقته مع النبى صلى الله عليه وسلم . وما أجدنى انشرح لقتله .

قال . أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟ قال بلى . قال فنقتله بمن قتل من إخواننا . فأجابه فجاءوا قطام ، وهى فى المسجد الأعظم معتكفة فقالوا لها : قد أجمع رأينا على قتل علىّ . قالت فإذا أردتم ذلك فأتونى .

ثم عاد إليها ابن ملجم فى ليلة الجمعة التى قتل فى صبيحتها علىّ سنة ٤٠ . فقال هذه الليلة التى واعدت فيها صاحبىّ أن يقتل كل واحد منا صاحبه . فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السُّدة التى يخرج منها علىّ (الباب) فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف فى قرنه (فى جبهته)

وهرب وردان حتى دخل منزله فدخل عليه رجل من بنى أبيه ، وهو ينزع الحرير عن صدره . فقال ماهذا الحرير والسيف ؟ فأخبره بما كان ، وانصرف فجاء بسيفه فعلا به وردان حتى قتله .

وخرج شبيب نحو أبواب كندة فى الغَلَس وصاح الناس فلحقه رجل من حضرموت يقال له « عُويمر » وفى يد شبيب السيف فأخذه وجثم عليه الحضرمىّ، فلما رأى الناس قد أقبلوا فى طلبه وسيف شبيب فى يده خشى على نفسه فتركه ونجا شبيب فى غُمار الناس .

فشدوا على ابن ملجم فأخذوه إلا أن رجلا من همدان يكنى أبا أرماء أخذ سيفه فضرب رجله فصرعه ، وتأخر علىّ ، وتقدم جَعْدة بن هبيرة ابن أبى وهب فصلى بالناس الغداة . ثم قال علىّ : علىّ بالرجل ، فأدخل عليه ثم قال : « أى عدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ » .

قال : « بلى » .

قال : « فما حملك على هذا ؟ » .

قال : « شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه » .

فقال علىّ رضى الله عنه : « لا أراك إلا مقتولا به ولا أراك إلا من شر خلقه » ثم قال : « النفس بالنفس . إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأيى » .

ودخل الناس على الحسن فزعين لما حدث . فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف بين يديه إذ نادته أم كُلثوم بنت علىّ وهى تبكى . أى عدو الله .

لا بأس على أبي والله مخزيك . قال : فعلى من تبكين ، والله لقد اشتريته (السيف) بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقى منهم أحد .

ودخل جُندب بن عبد الله على عليّ فسأله فقال : « ياأمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن ؟ » .

فقال : « ما آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر » فرد عليه مثلها فدعا حسناً وحسيناً فقال :

« أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شئ زُوى عنكما، وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف، واصنعا للاخرة، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً واعملا بما فى الكتاب ولا تأخذكما فى الله لومة لائم » .

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال : « هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ » .

قال : نعم .

قال: «فإنى أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك، العظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما » .

ثم قال : « أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه » .

وقال للحسن : « أوصيك أى بنيّ بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها

وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء فإنه لاصلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع الزكاة، وأوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ، وصلة الرحم والحلم عند الجهل والتفقه فى الدين والتثبت فى الأمر والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الفواحش » .

وصية علىّ لما حضرته الوفاة :

ولما حضرته الوفاة أوصى فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماأوصى به علىّ بن أبى طالب . أوصى أنه يشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له . وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. فإنى سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام . انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوهم يهوّن الله عليكم الحساب . الله . الله فى الأيتام فلا تُعنوا أفواههم ولا يضعُنّ بحضرتكم . والله الله فى جيرانكم فإنهم وصية نبيكم صلى الله عليه وسلم . مازال يوصى به حتى ظننا أنه سيورثه . والله الله فى القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم . والله الله فى الصلاة فإنها عمود دينكم . والله الله فى بيت ربكم فلا تخلوه مابقيتم فإنه إن ترك لم يُناظر . والله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . والله

الله فى الزكاة فإنها تطفىء غضب الرب . والله الله فى ذمة نبيكم فلا يُظلمنّ بين أظهركم . والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم . والله الله فيما ملكت أيمانكم . الصلاة الصلاة . لاتخافن فى الله لومة لائم . يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم . وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيوَلَّى الأمرَ شرارُكم ثم تَدْعون فلا يستحابُ لكم ، وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق . وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديدالعقاب ، حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيكم ، أستودعكم الله ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله » .

ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض رضى الله عنه بعد أن أصيب بثلاثة أيام

النهى عن المثلة بقاتله :

وقد كان علىّ رضى الله نهى ابنه الحسن عن المُثلة وقال :

« يابنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قُتل أمير المؤمنين . قُتل أمير المؤمنين . ألا لا يُقتلن إلا قاتلى . انظر ياحسن إن أنامتْ من ضربته هذه ، فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور » .

قتل ابن ملجم قاتل عليّ :

لما قبض عليّ رضى الله عنه بعث الحسن إلى ابن ملجم فقال للحسن : هل لك فى خصلة . إنى والله ماأعطيت الله عهداً إلاوفيت به . إنى كنت قد أعطيت الله عهداً عند الحطيم [١] أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما فإن شئتَ خليتَ بينى وبينه ولك الله علىَّ إن لم أقتله أو قتلته أن آتيك حتى أضع يدى فى يدك . فقال له الحسن : «أما والله حتى تعاين النار» ثم قدمه فقتله ثم أخذه الناس فأدرجوه فى بوارى (الأرض الخربة) ثم أحرقوه بالنار .

وجاء فى طبقات بن سعد :

قالوا : وكان عبد الرحمن بن ملجم فى السجن فلما مات عليّ رضوان الله عليه ورحمته وبركاته ودفن ، بعث الحسن بن عليّ إلى عبد الرحمن بن ملجم فأخرجه من السجن ليقتله فاجتمع الناس ، وجاءوه بالنفط ، والبوارى والنار فقالوا : نحرقه . فقال عبد الله بن جعفر وحسين بن على ومحمد بن الحنفية ، دعونا حتى نشفى أنفسنا منه ، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم ، فكحل عينيه بمسار مُحْمًى فلم يجزع وجعل يقول : إنك لتكتحل عين عمك بملمول مض وجعل يقول ـ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ـ حتى أتى على آخر السورة كلها وإن عينيه لتسيلان ثم أمر به فعولج عن لسانه ليقطعه فجزع فقيل له : قطعنايديك ورجليك وسَمَلنا عينيك ياعدوّ الله فلم تجزع، فلما صرنا إلى لسانك جزعت. فقال : ماذاك منى

(١) الحطيم فى مكة ما كان بين الركن الأسود والباب .

من جزع إلا أنى أكره أكون فى الدنيا فواقا لاأذكر الله . فقطعوا لسانه ثم جعلوه فى قوصرة (وعاء من قصب) وأحرقوه بالنار .

وذكرت هـذه الرواية أيضاً فى كتاب أسد الغابة وتاريخ أبى الفداء والأخبار الطوال ، وفيها مخالفة لما نهى عنه علىّ رضى الله عنه فإنه نهى عن المثلة بقاتله عملاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

البرك بن عبد الله الذى خرج لقتل معاوية :

أما البرك بن عبد الله فإنه فى تلك الليلة التى ضُرب فيها علىٌّ قعد لمعاوية فلما خرج ليصلى الغداة ، شد عليه بسيفه فوقع السيف فى إليته فاخذ فقال : إن عندى خبراً أسرك به فإن أخبرتك فنافعى ذلك عندك ؟ .

قال نعم . قال : إن أخاً لى قتل علياً فى مثل هـذه الليلة . قال : فلعله لم يقدرعلى ذلك . قال بلى إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه . فأمر به معاوية فقتل ، وبعث معاوية إلى الساعدى وكان طبيباً ، فلما نظر إليه قال : اختر إحدى خَصلتين إما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فإن ضربتك مسمومة . فقال معاوية أما النار فلا صبر لى عليها . وأما انقطاع الولد فإن فى يزيد وعبد الله ماتقر به عينى . فسقاه تلك الشربة فبرأ ولم يولد له بعدها ، وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس له وقيام الشُّرَط على رأسه إذا سجد .

عمرو بن بكر الذى خرج لقتل عمرو بن العاص :

أما عمرو بن أبى بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى بطنه فأمر خارجة بن حذافة [1] وكان صاحب شرطته وكان من بنى عامر ابن لؤى فخرج ليصلى فشد عليه وهو يحسب أنه عمرو فضربه فقتله . فأخذه الناس فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمارة . فقال : من هذا ؟ قالوا : عمرو . قال فمن قتلت ؟ قالوا خارجة بن حذافة. قال : أما والله يافاسق ماظننته غيرك . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ، فقدمه عمرو فقتله فبلغ ذلك معاوية فكتب إليه :

وقَتْلٌ وأسباب المنايا كثيرة ... منية شيخ من لؤى بن غالب
فياعمرو مهلا إنما أنت عمه ... وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوت وقد بل المرادى سيفه ... من ابن أبى شيخ الأباطح طالب
ويضربنى بالسيف آخَرُ مثله ... فكانت علينا تلك ضربة لازب
وأنت تناغى كل يوم وليلة ... بمصرك بيضاً كالظباء السوارب

عمره رضى الله عنه ومدة خلافته :

اختلف فى عمره رضى الله عنه يوم قتل . فقال بعضهم قتل ، وهو ابن ٥٩ سنة . وقيل كان الحسن بن علىّ يقول . قتل أبى وهو ابن ثمان وخمسين سنة وقال بعضهم قتل وهو ابن خمس وستين سنة .

وعن جعفر بن محمد قال : قتل علىّ وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وهو

(١) خارجة بن حذافة معروف بمصر وليس هو بأخى عبد الله بن حذافة .

أصح ماقيل فيه . وعن أبى اسحاق ، قال قتل علىّ رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وقال هشام ولى علىّ وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأشهر وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر . ثم قتله ابن ملجم واسمه عبد الرحمن بن عمرو فى رمضان لسبع عشرة مضت منه ، وكانت ولايته أربع سنين وتسعة أشهر ، وقتل سنة ٤٠ وهو ابن ٦٣ سنة .

وصلى الحسن بن علىّ على علىّ بن أبى طالب فكبر عليه أربع تكبيرات ودفن علىّ بالكوفة عند مسجد الجماعة فى الرحبة مما يلى أبواب كندة قبل أن ينصرف الناس من صلاة الفجر ، وقيل دفن عند قصر الإمارة ، وقيل حوّله ابنه الحسن إلى المدينة ودفنه بالبقيع عند قبر زوجته فاطمة . قال أبو الفداء والأصح (وهو الذى ارتضاه ابن الأثير وغيره) أن قبره هو المشهور بالنجف وهو الذى يزار اليوم ويتبرك به .

خطبة الحسن بعد قتل أبيه رضى الله عنه :

لما توفى علىّ رضى الله عنه ، خرج الحسن إلى المسجد الأعظم فاجتمع الناس فبايعوه . ثم خطب الناس فقال :

« فعلتموها . قتلتم أمير المؤمنين . أما والله لقد قتل فى الليله التى نزل فيها القرآن ورفع فيها الكتاب وجف القلم ، وفى الليلة التى قبض فيها موسى ابن عمران وعرج فيها بعيسى » .

كبار الصحابة الذين توفوا فى خلافة على :

توفى فى أيام علىّ حذيفة بن اليمان من كبار الصحابة ، وكان فتح الدينور على يده وولاه عمر المدائن فبقى بها إلى حين وفاته . وتوفى بعد عثمان بأربعين يوما . وكان قد أسرّ النبى صلى الله عليه وسلم إليه أسماء المنافقين وعرفه بالفتن التى تكون بين يدى الساعة . وهو الذى ندبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب ليأتيه بخبر القوم وله الجنة .

وفى خلافة علىّ قتل الزبير بن العوام الاسدى كما مرّ وهو ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرة بالجنة . وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل نبىّ حوارىّ ، وحوارىّ الزبير أى ناصرى . أسلم وله ست عشرة سنة ، وهو أول من سل سيفه فى سبيل الله ، وكان مديد القامة خفيف العارضين . عيّنه عمر فيمن يصلح للخلافة . وكان كثيرِ المتاجر ، والأموال . قيل كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فربما تصدق بذلك فى مجلسه . وقد خلف أملاكاً بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم ، وهذا لم يسمع بمثله قط قُتل وله نيف وستون سنة فى موقعة الجمل وقبره بوادى السباع. وقال المسعودى فى مروج الذهب: قتل الزبير رضى الله عنه وله خمس وسبعون سنة

وقتل طلحة بن عبيد الله أحد العشرة ، وكان طلحة يرد النبل عن وجه رسول الله فى غزوة أحد حتى شلت يده . كان آدم كثير الشعر ليس بالجعد القطط ولا بالسبط ، حسن الوجه ، دقيق العِرنين [1] ، لا يغير شيبه وكان من

(١) العرنين من الأنف ماهو تحت مجتمع الحاجبين وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشحم .

الأجواد ، يقال له طلحة الفيّاض وطلحة الجود ، رُمى يوم الجمل بسهم فما زال يسيل الدم حتى مات ، ودفن بالبصرة مع أبيه فى ذلك اليوم ، وكان يدعى بالسجاد وهو ابن ٦٤ سنة ، وقتل محمد بن طلحة .

ومات سلمان الفارسى من سادة الصحابة حضر غزوة الأحزاب ، وأشار بحفر الخندق على المدينة . قيل عاش ٢٠٠ سنة وقيل أكثر .

ومات عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى العامرى ، وكان عامل عثمان على مصر وله غزوات وفتوح . ولما جاءه الموت قال: اللهم اجعل آخر عملى الصلاة . فلما طلع الفجر توضأ وصلى فلما ذهب ليسلم عن يساره مات

وتوفى حكيم بن جبله العبدى ، وكان شريفاً مطاعاً ، تولى إمرة السند فغزاها ورجع وأقام بالبصرة ، قتل يوم الجمل .

ومات خباب بن الأرت التميمي من السابقين البدريين ونجباء الصحابة، ومات صهيب بن سنان ، وقتل عمار بن يسر ومات الأشتر مسموما وقتل محمد ابن أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين .

خاتمة فى خلافة علىّ وحروبه

عنيت بإثبات المراسلات والخطب والأحاديث من أهم المصادر لأنها فى نظرنا أعظم مايستند إليه المؤرخ ومنها يتبين روح العصر ومقاصد الرجال الذين كان لهم شأن فى تحريك الحوادث وتفاصيل الوقائع وهى العمدة التى يبنى عليها المؤرخ حكمه ، وإن لدينا والحمد لله مستندات ووثائق كثيرة من هذا النوع تجلى منها الحقائق التاريخية . بقى علينا أن نستخلص للقارئ زبدة الحوادث ونربط بعضها ببعض مع تعليلها وتعليل نتائجها وتقدير الظروف . فنقول وعلى الله عز وجل التوفيق .

بعد أن قتل عثمان رضى الله عنه ، هرب أقاربه إلى مكة وأقبل أهل المدينة يبايعون علياً رضى الله عنه وكان يومئذ أحق الصحابة بالخلافة لأنه من أسبقهم إلى الإسلام وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وربيبه وصهره ولجهاده فى سبيل نصرة الدين وعلمه وفضله ، فبايعه المهاجرون والأنصار وتلكأ طلحة والزبير ثم بايعاه وقالا بعد ذلك إنهما إنما بايعاه مرغمين ، وما لبثا أن استأذناه فى العمرة فأذن لهما بعد تردد ، فقدما مكة واجتمعا بعائشة هنالك واتفق رأيهم على الطلب بثأر عثمان ومحاربة علىّ لأنه عندهم اشترك فى قتله وطالبوه بأن يقتص من القتلة . أما معاوية فأبى أن يبايع الخليفة لأنه علم أنه سيعزله من ولاية الشام بعد أن ثبّت قدمه فيها إذ المحاصرون لعثمان رضى الله عنه

كانوا يطالبونه بعزل أقاربه ، فأراد علىّ رضى الله عنه أن لا يبقيهم فى مراكزهم فضاً للخلاف الذى أدى إلى الثورة وقتل عثمان وعد بقاءهم نقصاً فى دينه ، وكان معاوية عاملاً للخليفة فله أن يبقيه أو يعزله ، ولم يكن مرشحا للخلافة بعد عثمان . فأراد أن يستقل بالشام لكنه كتم ذلك ، وتظاهر بالمطالبة بثأر عثمان ، فحرض أهل الشام على محاربة علىّ لذلك . علم علىّ بتخلف معاوية عن بيعته ففاوضه ، فأبى فاستعد لمحاربته بعد أن يئس منه . ولم يكن يتوقع أن يشتبك فى قتال عائشة وجيشها فلما علم بمسيرها حوّل اتجاهه وسار إليها ، ولم يفلح فى إقناعها بالعدول عن الحرب وتمسكت بالمطالبة بثأر عثمان مع أنها كانت تحرّض الناس عليه قبل أن يقتل . فكيف إذن تنقلب هذا الانقلاب ؟ قالوا إنها حقدت عليه منذ حادثة الإفك (راجع هذا الباب فى كتاب محمد رسول الله للمؤلف) ، وكانت تريد أن يلى الخلافة طلحة . فلما بايع الناس علياً جمعت الجموع بمكة وخطبت فى الناس تحثهم على محاربة علىّ وأصحابه طلباً بثأر عثمان ، واعتبرت عليا من قتلته وهو برىء من ذلك كما صرح مراراً ، وكما تدل على ذلك الحوادث . نعم إنه كان ناقماً من سياسة عثمان . تلك السياسة التى ألبت الناس عليه . لكن عثمان رضى الله عنه كان متأثرا بأقاربه فلم يستطع أن يعالج الحالة وأصرّ على الاحتفاظ بمراكزهم بالرغم من كل تهديد ، ومن الحصار الشديد الذى ضربوه حول مَنزله . وهذا ماأوجب حيرة علىّ فعجز أولاً أن يفك الحصار ويصرف

المحاصرين نهائيا ، وإن كان قد صرفهم . لكنهم عادوا بعد أن تأكدوا أن عثمان ماض على ما كان عليه لايجيب لهم طلباً . فأقام علىّ رضى الله عنه على باب عثمان حراساً من ابنيه وأبناء الصحابة وشدد عليهم . ولم يكن لدى علىّ جيش يقاوم به المحاصرين أويصرفهم . ثم إن الخليفة المحصور آثر أن يموت شهيداً من أن يسفك دماً . لذلك نهى عن أن يقاتلهم أحد ، ولم يرسل إليه معاوية نفسه جيشاً لانقاذه إلا متأخراً ، وقيل إنه تعمد الإبطاء فى إرسال الجيش . فكيف يقال إذن إن علياً اشترك فى قتل عثمان مع أن "احة والزبير اللذين انضما إلى عائشة كانا شديدين عليه ؟!

لم يكد الناس يبايعون عليًّا حتى طولب بثأر عثمان وبأن يقتص فى الحال من جميع الذين اشتركوا فى قتله وهم كثيرون منبثون فى كل جهة[1] . وذلك قبل أن يستتب له الأمر لإجراء تحقيق دقيق بحيث يتبين له الشركاء فى الجريمة وبحيث يتيسر له توقيع العقاب عليهم دون أن تحدث فى البلاد ثورة وفتنة لايمكن أن يخمدها ، ولعل من الغريب أن نرى عائشة وطلحة والزبير يطالبون بالثأر مع ماعرف عنهم من خلاف عثمان . غير أن طلحة كان يطمع فى ولاية اليمن والزبير فى ولاية العراق ، فلما لم يولهما علىّ ، تآمرا مع عائشة لمحاربته لما يعلمانه من كراهتها له واحتجا بالمطالبة بالثأر تبريراً لحملتهما

---

(١) قال ابن حزم : لكنهم (قتلة عثمان) كانوا عددا ضخما جدا لاطاقة له عليهم فقد سقط عن علىّ رضى الله عنه مالا يستطيع عليه كما سقط عنه وعن كل مسلم ماعجز عنه من قيام بالصلاة والصوم والحج ولا فرق قال الله تعالى (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) .

فاعتبرهم علىّ عصاة محاربين وجرد جيشاً من أصحابه لقتالهم مع مافى ذلك من حرمة لأن الإسلام يحرم أن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً . انتصر علىّ رضى الله عنه على جيش عائشة فى موقعة الجمل وهزمهم . لكن هذه الحرب كانت فى الحقيقة انهزاماً للمسلمين إذ قتل من الطرفين أكثر من عشرة آلاف من شجعان المسلمين ، وهذه أول حرب يقاتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وجد علىّ معاوية وجيشه من أهل الشام مستعدين لقتاله فاستعد لهم وقاتلهم فى صفين مائة يوم وعشرة كما ذكر بعض المؤرخين[١] والسبب الظاهر فى قيام معاوية والتخلف عن البيعة هو كما قلنا المطالبة بثأر عثمان وقد نجح فى تحريض أهل الشام بتعليق قميص عثمان وأصابع زوجته نائلة فى مسجد دمشق وبذل الأموال الطائلة . أما السبب الخفى هو الاحتفاظ بولاية الشام وبالحرى الفوز بالخلافة لا بالثأر لأنه لو قام وطالب بالخلافة لما نالها لوجود من هو أفضل وأسبق منه إلى الإسلام ومن جاهد فى الله حق جهاده ألا وهو علىّ رضى الله عنه ، وكادت تنتهى موقعة صفين باندحار جيش معاوية الذى كان على وشك الفرار لولا الحيلة التى ابتكرها عمرو بن العاص بغية توقيف رحى الحرب برفع المصاحف طلبا للتحكيم . علم علىّ رضى الله عنه أن هذه حيلة ومكيدة لكنه أرغم على قبول التحكيم إذ لو كان أصر على الرفض لانفض أغلب الجيش من حوله .

---

(١) راجع كتاب مروج الذهب للمسعودى .

وبعد أن تمّ التحكيم على الوجه الذى ذكرناه فى كتابنا هـذا ، اعتبره علىٌّ مخالفاً لكتاب الله فتبرأ منه ، ونجم عن ذلك أن ثارت الخوارج عليه ورموه بالكفر لقبوله التحكيم مع أنهم كانوا من الذين اضطروه إليه ، فحاربوه لكنه انتصر عليهم . غير أن هذا الانتصار ترك ذيولا لأنه لم يبدهم إلى آخرهم فكانت نتيجة ذلك أن قتله أحد الخوارج .

انقسم المسلمون بعد ذلك إلى قسمين كبيرين : أهل السنة ، والشيعة وافترقت الشيعة إلى فرق وكل فرقة تكفر غيرها وترميها بالمروق من الدين والزندقة وبقى هذا الخلاف إلى وقتنا هذا مستحكماً .

رأى ابن عباس

فى الخلفاء الراشدين وفى أبيه العباس

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش، فلما سلم وجلس، قال له معاوية: إنى أريد أن أسألك عن مسائل. قال: سل عما بدا لك. قال: ماتقول فى أبى بكر؟ قال:

« رحم الله أبا بكر. كان والله للقرآن تالياً. وعن المنكر ناهياً. وبذنبه عارفاً. ومن الله خائفا. وعن الشهوات زاجراً، وبالمعروف آمراً. وبالليل قائماً وبالنهار صائماً. فاق أصحابه ورعاً وكفافاً. وسادهم زهداً وعفافاً. فغضب الله على من بغضه وطعن عليه».

قال معاوية: إيها يا ابن عباس!! فما تقول فى عمر بن الخطاب؟ قال:

« رحم الله أبا حفص عمر. كان والله حليف الاسلام. ومأوى اليتامى. ومنتهى الإحسان. ومحل الإيمان. وكهف الضعفاء. ومعقل الحنفاء. قام بحق الله عزّ وجلّ، صابراً محتسباً حتى أوضح الدين وفتح البلاد وأمن العباد، فأعقب الله على من ينقصه اللعنة إلى يوم الدين».

قال. فما تقول فى عثمان؟ قال:

« رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجَعْدة [1] وأفضل البررة. هجاداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهاضاً عند كل مكرمة، سباقا إلى

(١) الجعدة: شجرة طيبة الريح خضراء لها قضب. فى أطرافها ثمر أبيض تحشى بها الوسائد لطيب ريحها وهى تنبت فى الربيع وتجف سريعاً.

كل منحة ، حيياً أبياً وفياً ، صاحب جيش العسرة ، وختن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين »

قال فما تقول فى علىّ ؟ قال :

« رضى الله عن أبى الحسن ، كان والله علم الهدى ، وكهف التقى ، ومحل الحجى ، وبحر الندى ، وطود النهى ، وكهف العلى للورى ، داعياً إلى المحجة العظمى ، متمسكا بالعروة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبرّ من انتعل واسعاً ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبىّ المصطفى ، صاحب القبلتين ، فهل يوازيه أحد ، وأبو السبطين ، فهل يقاربه بشر ، وزوج خير النسوان ، فهل يفوقه قاطن بلد ، للأسود قتال ، وللحروب ختال ، لم ترعينى مثله ولن ترى . فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد إلى يوم التناد »

قال إيها يا ابن عباس !! لقد أكثرت فى ابن عمك ، فما تقول فى أبيك العباس ؟ قال :

« رحم الله العباس أبا الفضل . كان صنو نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وقرة عين صفى الله سيد الأعمام ، له أخلاق آبائه الأجواد ، وأحلام أجداده الأمجاد . تباعدت الأسباب فى فضيلته . صاحب البيت والسقاية ، والمشاعر والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من دبّ » .

قال معاوية : يا ابن عباس أنا أعلم أنك كلمانى[1] أهل بيتك . قال : ولم

---

(١) رجل كلمانى : أى فصيح الكلام ، جيده .

لأ كون كذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام :

« يامعاوية . إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه خصَّ محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال وبذلوا النفوس دونه فى كل حال ، ووصفهم الله فى كتابه فقال : « رحماء بينهم ـ الآية» قاموا بمعالم الدين وناصحوا الاجتهاد للمسلمين حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء الله واستقر دينه ووضحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك وأزال روحه ومحادعائمه ، وصارت كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا فى الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أصحياء . رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها » .

فقطع عليه معاوية الكلام وقال: إيها ياابن عباس حديثاً فى غير هذا .

من كلام على رضى الله عنه

وحكمه وأمثاله

قال المسعودى : والذى حفظ الناس عنه من خطبة فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة نوردها على البديهة تناول الناس ذلك عنه قولا وعملا .

من أدعيته رضى الله عنه :

« اللهم اغفرلى ما أنت أعلم به منى ، فإن عدت فعد علىَّ بالمغفرة ، اللهم اغفرلى ماوأيتُ من نفسى ولم تجد له وفاء عندى . اللهم اغفر لى ماتقربتُ به إليك بلسانى ثم خالفه قلبي . اللهم اغفرلى رَمَزَات الألحاظ . وسقطات الألفاظ وسهوات الجنان وهفوات اللسان » .

قوله (ماوأيت) أى وعدت والوأى : الوعد (رمزات الألحاظ) الاشارة بها والألحاظ جمع لحَاظ وهو مؤخر العين .

ومن كلامه رضى الله عنه :

« أيها الناس ، الزّهادة قِصر الأمل . والشكر عند النعم والتورع عند المحارم . فإن عَزَب عنكم فلا يغلب الحرام صبركم . ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة ظاهرة وكتب بارزة العذر واضحة»

قوله . فقد أعذر الله إليكم : أى بالغ ، يريد أنه قد أوضح لكم بالحجج النيرة المشرقة مايجب اجتنابه .

وقال فى صفة الجنة :

« درجات متفاضلات . ومنازل متفاوتات . لاينقطع نعيمها . ولا يظعن مقيمها . لايَهْرَم خالدها . ولا ييأس ساكنها » .

وقال فى القرآن الكريم :

« اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لا يَغُشُّ ، والهادى الذى لايضل . والمحدث الذى لا يكذب . وماجالس هذا القرآنَ أحد إلاقام عنه بزيادة أو نقصان . زيادة فى هدى ونقصان من عمى . واعلموا أنه ليس على أحد بعدالقرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن فى غنى . فاستشفوا من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم ، فإن فيه شفاء من أكبر الداء ، وهو الكفر والنفاق والغى والضلال فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه ، ولاتسألوا به خلقه إنه ماتوجه العباد إلى الله تعالى بمثله ، واعلموا أنه شافع ومُشفّع ، وقائل مصدق ، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة صُدّق عليه » .

« اللأواء : الشدة »

قوله فى الصالحين .

« فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزماً فى لين ، وإيماناً فى يقين ، وحرصاً فى علم ، وعلماً فى حلم ، وقصداً فى غنى ، وخشوعاً فى عبادة ، وتجملا فى فاقة ، وصبراً فى شدة ، وطلباً فى حلال ، ونشاطاً فى هدى ، وتحرجاً عن طمع . يعمل الأعمال الصالحة وهو على وَجَل . يمسى وهمه الشكر ويصبح وهمه الذكر . يبيت حذراً ويصبح فرحاً . حذراً لما حُذِّر من الغفلة ، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة ، إن استصعبت عليه نفسه فيما

تكره ، لم يعطها سؤلها فيما تحب. قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل ، تراه قريباً أمله ، قليلا زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعاً نفسه ، منزوراً أكله ، سهلاً أمره ، حريزاً دينه ، ميتة شهوته ، مكظوماً غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، إن كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين ، وإن كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيداً فحشه ، ليناً قوله، غائباً منكره ، حاضراً معروفه ، مقبلا خيره مدبراً شره ، فى الزّلازل وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، لايحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لايضيع مااستحفظ ، ولا ينسى ماذُكِّر ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل فى الباطل، ولا يخرج من الحق . إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعلُ صوته ، وإن بُغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له ، نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة . ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . ليس تباعده بكبر وعظمة . ولادنوه بمكر وخديعة » .

وقال يوصى ابنه :

« يابنىّ اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك . فأحبب لغيرك ماتحب لنفسك . واكره له ماتكره لها . ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم : وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك . واستقبح من نفسك ماتستقبحه من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك. ولا تقل مالا تعلم وإن قل ماتعلم،

ولا تقل مالا تحب أن يقال لك . واعلم أن الاعجاب ضد الصواب . وآفة الألباب . فاسع فى كدحك ، ولا تكن خازناً لغيرك . وإذا أنت هديت لقصدك فكن أخشع ماتكون لربك » .

ومما قاله من الحكم فى وصيته لابنه :

« حِفظُ ما فى يديك ، أحب إلىّ من طلب ما فى يد غيرك . ومرارة اليأس ، خير من الطلب إلى الناس ، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور ، والمرء أحفظ لسره ، ورب ساع فيما يضره ، من أكثر أهجر ، ومن تفكر أبصر ، قارن أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر تبن عنهم . بئس الطعام الحرام . وظلم الضعيف أفحش الظلم . إذا كان الرفق خُرقاً كان الخُرق رفقاً . ربما كان الدواء داء ، وربما نصح غير الناصح وغش المستنصح ، وإياك والاتكالَ على المنى فإنها بضائع النَّوْكى . والعقل حفظ التجارب ، وخير ماجربت ما وعظك ، بادر الفرصة قبل أن تكون غصة . ليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يؤوب . ومن الفساد إضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد ، ولكل أمر عاقبة ، سوف يأتيك ماقدر لك ، التاجر مخاطر ، ورب يسير أنمى من كثير » .

ومما قاله أيضاً فى الحكم :

« لا تتخذنّ عدو صديقك صديقاً فتعادى صديقك ، وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة . لِنْ لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك ، ان أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها ان بدا لك ذلك يوماً مّا ، من ظن بك خيراً فصدق ظنه ، لاتضيعن حق أخيك اتكالاً على

مابينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه ، لا يكن أهلك أشقى الخلق بك . لاترغبن فيمن زهد عنك . لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا يكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فإنه يسعى فى مضرته ونفعك . وليس جزاء من سرك أن تسوءه .

«ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ، من ترك القصد جار ، الصاحب مناسب ، والصديق من صدق غيبه . الهوى شريك العمى . رب بعيد أقرب من قريب . وقريب أبعد من بعيد . والقريب من لم يكن له حبيب . من تعدى الحق ضاق مذهبه . قد يكون اليأس ادراكاً ، إذا كان الطمع هلاكاً . أخّر الشر فإنك إذا شئت تعجلته ، قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل ، من أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه ، إذا تغيَّر السلطان تغيَّر الزمان ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار » .

« البخل عار ، والجبن منقصة ، والفقر يخرس الفطن عن حاجته والمقل غريب فى بلدته » .

« العجز آفة ، والصبر شجاعة ، والزهد ثروة ، والورع جُنة ، ونعم القرين الرضى . العلم وراثة كريمة ، والأدب حلل مجددة ، والفكر مرآة صافية . صدر العاقل صندوق سره . البشاشة حبالة المودة ، الاحتمال قبر العيوب . من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه ، الصدقة دواء مُنجح . إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه . أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم» .

« من أبطأ به عمله : لم يسرع به حسبه ، ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فَلَتات لسانه وصفحات قلبه . أفضل الزهد إخفاء الزهد . فاعل الخير خير منه ، وفاعل الشر شر منه . كن سمحاً ولا تكن مبذراً ، وكن مقدراً ، ولا تكن مقتراً . أشرف الغنى ترك المنى . من أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون . من أطال الأمل أساء العمل » .

« لاقربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض .

« لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه . عيبك مستور ما أسعدك جدك . أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . السخاء ما كان ابتداء ، فإذا كان عن مسألة فحياء وتذمم .

« لاغنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالأدب ، ولا ظهير كالمشاورة . الصبر صبران ، صبر على ماتكره . وصبر عما تحب . الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غربة . المال مادة الشهوات ، من حذرك كمن بشرك . اللسان سبع إن خُلى عنه عَقَر ، فقد الأحبة غربة ، فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها ، لاتستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه . العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى . لايُرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرّطاً . إذا تم العقل نقص الكلام .

«من نصب نفسه للناس إماماً ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم .

« قيمة كل امرئ مايحسنه . من ترك قول لاأدرى أصيبت مقاتله، رأى

الشيخ أحب إلىّ من جَلد الغلام ، عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار ، رب عالم قد قتله علمه وعلمه معه لم ينفعه .

«لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلى، الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل .

« عظم الخالق عندك يصغر المخلوق فى عينيك .

ماعال امرؤ اقتصد ، قلة العيال أحد اليسارين ، التودد نصف العقل ، الهمّ نصف الهرم .

«سوسوا إيمانكم بالصدقة،وحصنوا أموالكم بالزكاة ، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء ، المرء مخبوء تحت لسانه ، هلك امرؤ لم يعرف قدره . الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم ، وعلى كل داخل فى باطل إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضا عنه .

« لايعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان .

«ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة،من أبدى صفحته للحق هلك ، من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، من كتم سره كانت الخيرة بيده ، لايعاب المرء فى تأخير حقه ، إنما يعاب من أخذ ماليس له ، ترك الذنب أهون من طلب التوبة ، الناس أعداء ماجهلوا ، إذا هِبت أمراً فقع فيه فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه ، أزجر المسىء بثواب المحسن ، آلة الرياسة سعة الصدر ، الطمع رق مؤبد ، من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع ، أول عِوض الحليم من حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل.

إن لم تكن حليماً فتحلّم فإنه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم عُجب المرء بنفسه أحد حساد عقله ، الخلاف يهدم الرأى ، حسد الصديق من سقم المودة ، ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن ، من أشرف أفعال الكريم غفلته عما يعلم ، من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه ، الطامع فى وثاق الذل ، من أتى غنيًا فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه ، من أطاع التوانى ضيَّع الحقوق ، ومن أطاع الواشى ضيَّع الصديق ، يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم .

« ما أكثر العبر وأقل الاعتبار،مازنى غيور قط ، ردوا الحجر من حيث جاء فإن الشر لايدفعه إلا الشر ، الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق ، والتقصير عن الاستحقاق عىّ أو حسد ، أشد الذنوب ما استهان به صاحبه ، من نظر فى عيوب غيره فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك هو الأحمق بعينه لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءا وأنت تجد لها فى الخير محتملا .

مقاربة الناس فى أخلاقهم أمنٌ من غوائلهم .

ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله . وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله سبحانه .

كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك .

من أصلح سريرته أصلح الله علانيته . الغيبة جهدالعاجز . شر الإخوان ماتُكلف له .

ماقيل فى رثائه من الاشعار

قال أبو الأسود الدئلى

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طُراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ورَحّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثانى والمبينا
إذا استقبلت وجه أبى حسين رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرها حسبا ودينا

وقال بكر بن حسان الباهرى :

قل لابن ملجم والاقدار غالبة هدمت للدين والاسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشى على قدم وأعظم الناس اسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سنّ الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبىّ ومولاه وناصره أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له مكان هرون من موسى بن عمرانا
قد كان يخبرهم هو بقتله قبل المنية أزمانا فأزمانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر فقلت سبحان رب العرش سبحانا
إنى لأحسبه ما كان من إنس كلا ولكنه قد كان شيطانا
فلا عفا الله عنه سوء فعلته ولا سقى قبر عمران بن حطانا

يا ضربة في شقيّ ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوي أوردته لظى وسوف يلقى بها الرحمن غضابا
كأنه لم يرد قصداً بضربته إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

وقال الفضل بن العباس بن أبي لهب :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
البر أول من صلى لقبلته وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهداً بالنبي ومن جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه مافيه لا تمترون به وليس في القوم مافيه من الحسن

وقال اسماعيل بن محمد الحميري :

سائل قريشاً به ان كنت ذاعمه من كان أثبتها في الدين أوتادا
من كان أقدم اسلاماً وأكثرها علماً وأطهرها أهلاً وأولادا
من وحّد الله إذ كانت مكذبة تدعو من الله أوثانا وأندادا
من كان يقدم في الهيجاء إن نكلوا عنها وإن يخلوا في أزمة جادا
من كان أعدلها حكماً وأبسطها كفاً وأصدقها وعداً وإبعادا
إن يصدقوك فلن يعدوا أبا حسن إن أنت لم تلق للأبرار حسادا
إن أنت لم تلق أقواما ذوي صلف وذا عناد لحق الله جحادا

آراء المستشرقين فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه

رأى مستر موير

توفى علىّ فى الستين من عمره وكانت مدة خلافته أربع سنوات وتسعة شهور كلها معارك ومتاعب ، وقد كان فى شبابه من أعظم الأبطال فى حروب الإسلام ، ولكنه بعد وفاة النبي لم يشترك فى موقعة من المواقع ، وفى آخر أيامه غلظ جسمه من السمن ، ولم يتزوج على فاطمة ابنة النبي . وبعد وفاتها تعددت زوجاته ، وكان علىّ أبا رقيق العواطف وقد ولدت له فى كبره ابنة كان يتسلى بمداعبتها ويضعها على ركبتيه ويخصها بمحبته ، وهو آخر الخلفاء الراشدين وأول الأئمة الاثنى عشر ، وكان لين الجانب ، كريما ، متحملا للشدائد ، صابراً ، ولم يظهر الحقد على الخوارج الذين ثاروا عليه وأتعبوه . وكان عاقلا فى مشورته ، وقد نسب إليه كثير من الأمثال السائرة . لكن أمثاله كانت كأمثال سليمان انتفع بها غيره دون نفسه .

رأى الأستاذ واشنطون ايرفنج

إننا لانعلق على خلق علىّ الشريف الكريم ، ذلك الخلق الذى يتجلى فى جميع أدوار حياته . لقد كان أجدر رجال الإسلام السابقين الذين أشربوا روح الحمية الدينية من صحبة النبي واقتدوا بأخلاقه الكريمة ، وهو أول خليفة كان له شأن فى العناية بالآداب والفنون ، وقد نظم الشعر وحُفظ عنه كثير من الحكم والأمثال التى ترجمت إلى عدة لغات وكان نقش خاتمه « الملك لله »

علم الجفر

ونسبته الى الامام على رضى الله عنه

إن علم الجفر عبارة عن العلم الاجمالى بلوح القضاء والقدر المحتوى على كل ما كان ومايكون كلياً وجزئيا ، وقد يقرن بالجامعة فيقال الجفر والجامعة . فالجفر عبارة عن لوح القضاء والقدر الذى هو عقل الكل ، والجامعة لوح القدر الذى هو نفس الكل . وقد ادعى طائفة أن الامام علىّ بن أبى طالب وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريق البسط الأعظم فى جلد جفر وهو الذكر من المعزى . والشاء الذى يبلغ أربعة أشهر . يستخرج منها بطريق مخصوصة وشرائط معينة ألفاظ مخصوصة يستخرج منها مافى لوح القضاء والقدر . وهذا علم يتوارثه أهل البيت . ومن ينتمى إليهم ويأخذ منهم من المشايخ الكاملين . وكانوا يكتمونه عن غيرهم كل الكتمان ، وقيل لا يقف على هـذا الكتاب حقيقة إلا المهدى المنتظر خروجه آخر الزمان . وقال ابن طلحة : الجفر والجامعة كتابان جليلان أحدهما ذكره الامام علىّ ، وهو يخطب بالكوفة على المنبر والآخر أسرّ إليه به الرسول ، وأمره بتدوينه فكتبه علىٌ حروفا متفرقة على طريقة سفر آدم فى جفر ، فاشتهر بين الناس به لأنه وجد فيه ماجرى للأولين والآخرين .

وقال الجرجانى : الجفر والجامعة كتابان لعلىّ ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث التى تحدث إلى انقراض العالم ، وكانت الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونها ويحكمون بها .

وكون الجفر من العلوم التى أسرها رسول الله إلى علىّ رضى الله عنه وتوارثه عنه أبناؤه هو عقيدة المتقدمين من الشيعة الذين يعتقدون أن الأئمة لاتذنب ولا تخطئ تنزيهاً لآل البيت . وقيل إن الجفر كتاب وضعه جعفر الصادق ، الامام السادس (وهـذا ماذكره الدميرى فى كتاب الحيوان نقلا عن أدب الكاتب لابن قتيبة) وهو مكتوب على جلد الجفر لإخبار أهل البيت بما يقع من الحوادث إلى آخر الزمان ، على أن هذا مشكوك فى صحته وإلى هذا الجفر أشار المعرّى فى قوله :

لقد عجبوا لأهل البيت لما أتاهم علمهم فى مَسْك جَفرِ
ومرآة المنجم وهى صغرى أرته كل عامرة وقفرِ

وقال ابن خلدون فى مقدمته :

«اعلم أن كتاب الجفر كان أصله أنّ هارون بن سعيد العجلى ، وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق ، وفيه علم ماسيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص . وقع ذلك لجعفر ونظائره على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الأولياء ، وكان مكتوباً عند جعفر فى جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلى وكتبه وسماه الجفر

باسم الجلد الذى كتب منه ، لأن الجفر فى اللغة ، هو الصغير وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن، ومافى باطنه من غرائب المعانى مروية عن جعفر الصادق ، وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولاعرف عينه وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات الخ .

يقول المؤلف : وليس لدينا دليل يثبت أن علم الجفر من وضع الامام على رضى الله عنه أو من وضع جعفر الصادق .

بحمد الله تم طبع سيرة (الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه) للأستاذ : « محمد رضا » مصححاً بمعرفتنا مع اطلاع مؤلفه ؟

رئيس التصحيح

أحمد سعد على

من علماء الأزهر الشريف

[القاهرة فى يوم الاثنين ٦ رجب سنة ١٣٥٨هـ / الموافق ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٩م]

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبى

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

فهـــــرس

بأسماء الرجال والقبائل

ت

ج

ح

خ

ذ

ر

ز

س

ش

غ

ف

ق

ى

فهـــرس
بأسماء النساء

فهـــرس

بأسماء البلدان والأماكن


Bibliotheca Alexandrina
0523527